لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام

الموكب الثقافي

العدد 46 – يوليو 2016م

مجلة ثقافية تربوية علمية محكمة تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم – موريتانيا

أمة تخطو بثبات نحو المستقبل

موريتانيا: ماض مشرف ومستقبل واعد

صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية

المقاربة الموريتانية في مواجهة التطرف

شنقيط بلاد الشعر والشعراء..!!

حقوق الإنسان في موريتانيا: المكاسب والآفاق

المحاظر الشنقيطية تحصين للفرد وتمكين في الأرض

يتقدم المدير الناشر، وكافة أعضاء أسرة تحرير مجلة الموكب الثقافي بأحر التهانئ وأطيب التمنيات بدوام الصحة والعافية إلى رئيس الجمهورية السيد محمد ولد عبد العزيز بمناسبة الذكرى السابعة لاستلامه السلطة، راجين من المولى العلي القدير أن يوفقه في جهوده الرامية إلى الرقي بالأمة الموريتانية.

وإلى الأمام ومن مجد إلى مجد.

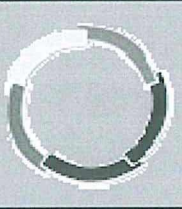

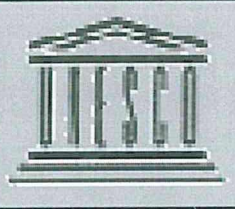

الموكب الثقافي

مجلة ثقافية تربوية علمية محكمة، تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

المدير الناشر:
- د. إسماعيل ولد شعيب

رئيس التحرير:
- محمدو ولد إحظانا

سكرتير التحرير:
- أحمد جدو ولد محمد

هيئة التحرير:
- د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
- د. محمد ولد تتا
- د. إسماعيل ولد شعيب
- محمدو ولد إحظانا
- أ. محمد أحمد الميداح
- كان محمدو أليمـــان
- أحمد جدو ولد محمد
- مريم بنت بكر

مسؤول التوزيع:
محمد ولد اعمر أبـــال

ماكيت: محمد المختار ولد محمد خيرات

سحب: المطبعة الوطنية

العنوان: ص.ب: 5155 – انواكشوط – موريتانيا
هاتف: 00(222) 45854803

كَتَبَ في هذا العدد:

- الأستاذ. د. / سيدى عبد الله المحبوبي
- د\ تربة بنت عمار
- د. محمد أحظانا
- الدكتور/ محمد المختار سيد محمد الهادي
- الأستاذ الدكتور: محمد إسحاق الكنتي
- د. أحمد ولد حبيب الله
- د. محمد بن تتا
- أ.د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
- د/ الشيخ ولد سيدي عبد الله
- الولي ولد سيدي هيبه كاتب صحفي
- الأستاذ/ الشيخ احمد ولد الزحاف
- د. عبد الوهاب ولد محفوظ
- الباحثة/ لاله بنت سدي الأمين
- د. سيدي المختار الطالب هامه
- محمذن بن أحمد بن المحبوبي
- د.محمد الأمين ولد أن
- محمد ولد أحمد الميداح، باحث في الآداب الشعبية

في بنات نعش

- موريتانيا: ماض مشرف ومستقبل واعد
- القمة العربية استحضار أمين لمجد تليد...!!
- علامات فارقة حول إسهام الشناقطة في بناء الصرح الثقافي العربي الإسلامي
- صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية- 1800-1934
- المقاربة الموريتانية في مواجهة التطرف
- شنقيط بلاد الشعر والشعراء..!!
- صورة الشنقيطي في الأدب العربي الحديث
- السرد الموريتاني والنثرية العربية:
  سياق ظهور الأشكال السردية
- "البناء" و"النسج" عند ابن خلدون
- واقع حرية الاعلام في موريتانيا
- حقوق الإنسان في موريتانيا: المكاسب والآفاق
- التغير الاجتماعي في موريتانيا
- الموارد المعدنية لموريتانيا (الواقع والآفاق)
- فرص الاستثمار في قطاع الصيد والاقتصاد
- المحاظر الشنقيطية تحصين للفرد وتمكين في الأرض
- المخطوطات الموريتانية: جهود الجمع والفهرسة
- البعد القومي في الشعر الحساني

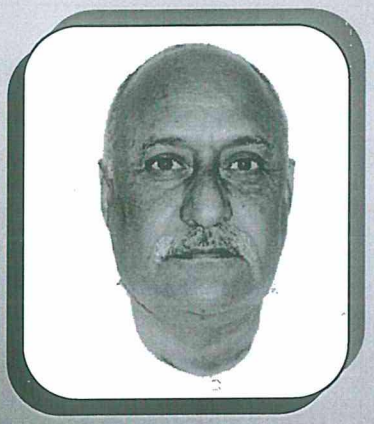

الإفتتاحية

أمة تخطو بثبات نحو المستقبل

تحل علينا هذه الأيام ذكرى خالدة أسست لمرحلة مفصلية من تاريخ موريتانيا الحديثة، ذكري تسلم صاحب الفخامة / محمد ولد عبد العزيز مقاليد السلطة سنة 2009 .

وحينما تعود بنا الذاكرة قليلا إلي تلك المرحلة فإننا سنتذكر جميعا الحالة المأساوية التي كانت تعيشها بلادنا، والتي اقل ما يقال عنها أنها اتسمت بشلل في مختلف جوانب الحياة:

- فالمشهد السياسي الوطني كان يعيش حالة استقطاب حادة بين مختلف أطراف الطيف السياسي وصلت مرحلة فقد فيها الجميع التوازن على مستوى الخطاب السياسي وعلى مستوى الرؤى الفكرية والأيديولوجية وعلى مستوى مبادئ وأدبيات الممارسة الديمقراطية السليمة.

- وعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي اتسمت هذه المرحلة بانهيار تام لمختلف أركان مؤسسات الدولة الاقتصادية والإدارية. فالخزينة العامة مفلسة والديون تحاصرها، والبنك المركزي لا يتوفر إلا على رصيد لا يتجاوز 300 ألف دولار، والمدن تعيش في ظلام تام بفعل فقدان الكهرباء، والعطش حالة عامة تهدد حياة الجميع، والمؤسسات السيادية الوطنية التي تمثل أهم مظاهر رموز الدولة معروضة للبيع، والوحدة الوطنية مهددة نتيجة شيوع قيم المتاجرة بكل شيء: بالبشر وبالحجر، فلا هم لهؤلاء المتاجرين بالقضية الوطنية سوى الكسب حتى ولو كان على حساب الوحدة الوطنية، التي هي صمام أمان أمة قامت على مبدإ التعايش السلمي بين مختلف مكوناتها، والذي رسخته مبادئ وقيم شريعتنا السمحاء.

- وعلى المستوى الأمني انتشار مختلف مظاهر الانفلات الأمني داخليا وخارجيا. فأشلاء الانتحاريين على جدران المنازل يوميا، وحدودنا الدولية مستباحة من طرف عصابات الإرهاب والجريمة المنظمة والعابرة للحدود.

في هذا الفضاء المملوء بكل ما هو سوداوي ظهر القائد الرمز يمتطي صهوة التاريخ ويحمل في أياديه البيضاء أمل الأمة.

وكم من مؤرخ سجل لحظة أو لحظات خالدة من تاريخ الأمم، لحظات يهيئ الله فيها زعماء استثنائيون لهم القدرة على التضحية والبذل والعطاء لأمتهم، ويحق لنا أن نضيف بامتياز إلى سجل هؤلاء الزعماء صاحب الفخامة السيد الرئيس / محمد ولد عبد العزيز الذي منحه الله قدرة فريدة على استلهام آمال وتطلعات الأمة الموريتانية.

لقد تجسدت جهود هذا القائد الرمز منذ الوهلة الأولى في ترسيخ قيم العدل والتراحم والمحبة والإخاء والتسامح مستعيدا بذلك قيم أمتنا النبيلة التي ظلت توحد مجتمعنا وتمنحه القدرة على العطاء، وهكذا وبفضل الله وإرادة وعزيمة هذا القائد الفذ تحققت الآمال ووصلت البلاد إلى بر الأمان وخير شاهد على ذلك ما تحقق من إنجازات في فترة قياسية وجيزة، نذكر منها نماذج على سبيل المثال لا الحصر:

- ✓ تعيش البلاد واقعا ديمقراطيا فريدا في المنطقة، فالحريات العامة تمارس بشكل فعلي وعلى كافة المستويات؛
- ✓ ليس في طول البلاد وعرضها سجينا سياسيا أو سجين رأي؛
- ✓ تم عزل الفاسدين والمفسدين من المشهد العام بما عاد على البلاد والعباد بالخير العميم؛
- ✓ عزل الطبقة السياسية المنتجة والمستفيدة من ظاهرة الفساد والتي وفرت لنفسها حصانة وامتيازات ومواقع نفوذ خلال العقود الأخيرة؛
- ✓ تهميش المنظرين والمؤطرين السياسيين والقبليين لظاهرة الفساد والمفسدين في المجتمع؛
- ✓ العمل على إلغاء ظاهرة شخصنة الأحزاب التي أفسدت المشهد السياسي الوطني طيلة العقود الأخيرة؛
- ✓ تحرير المواطن من سيطرة ثقافة التهميش والدونية وتمكينه من أن يكون فاعلا في مختلف جوانب حياته؛
- ✓ القضاء على ظاهرة نهب المال العام وتهرب المؤسسات من التزاماتها الضريبية اتجاه المجتمع؛
- ✓ السيطرة على ظاهرة نهب المؤسسات الوطنية وإلزام من نهبوها بإعادة ما نهبوه؛
- ✓ التحكم وبقدر كبير في مختلف الرخص التي كانت تمنح لاستغلال ثروات البلاد بدون حسيب ولا رقيب؛
- ✓ إلزام مختلف المؤسسات العامة العاملة على التراب الوطني باستخدام العمالة الوطنية بدل استجلابها من الخارج؛
- ✓ التحكم في أسعار السوق الذي كان عرضة لاحتكار الموردين للمواد الأساسية للمضاربة فيها على حساب المواطنين؛
- ✓ استحداث مبادرة "حوانيت أمل" لحماية الطبقات الهشة وتوفير الاحتياجات الضرورية لها بأسعار مدعومة؛
- ✓ القضاء على ظاهرة الفواتير الوهمية ومبالغها الخيالية؛
- ✓ تم تجاوز ظاهرة الزبونية للحصول على فرص العمل حيث وضعت المعايير الموضوعية حتى يأخذ كل ذي حق حقه؛

- ✓ استحداث قواعد ومعايير موضوعية وشفافة في منح الصفقات العمومية؛
- ✓ إلغاء الاستغلال المفرط لوسائل الدولة الذي ظل يمثل عبء ثقيلا على الميزانية دون مردودية تذكر؛
- ✓ إيقاف الهدر المستمر للمال العام تحت يافطة ما يعرف بدراسة الجدوائية الاقتصادية والفنية؛
- ✓ إلغاء ظاهرة الإيجار الوهمي والفاحش للمنازل الذي شكل أحد مصادر النهب المستمر لثروات البلاد؛
- ✓ القضاء على ظاهرة نهب المشاريع العامة الذي شكل مصدرا من مصادر ترسيخ قيم الفساد والمفسدين؛
- ✓ تقليص وإلى حد كبير الاعتماد المفرط على القروض الدولية وما يصاحبها عادة من تنازل عن بعض الخصوصيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛
- ✓ أصبح البنك المركزي له القدرة على تغطية حاجيات البلاد من العملة الصعبة لفترات طويلة؛
- ✓ تعميم منح القطع الأرضية على المستحقين المنتظرين منذ عقود طويلة، وتم بذلك إلغاء أحزمة البؤس التي كانت تحيط بالمدن؛
- ✓ أنشئ العديد من المباني لفائدة الطبقات الأقل حظوة ؛
- ✓ شيد الكثير من المباني الاستراتيجية (المطارات، الموانئ...)
- ✓ سويت مشكلة الكهرباء على مختلف المستويات وتم تصديرها إلى البلدان المجاورة وبذلك تم تفنيد اعتقاد الكثيرين بأن لا ضوء في نهاية النفق؛
- ✓ حل مشكلة المياه بإنجاز مشاريع إستراتيجية عملاقة شملت مختلف أرجاء الوطن ؛
- ✓ شيدت الطرق بآلاف الكيلومترات ووصلت إلى مختلف المدن والقرى؛
- ✓ تمت عقلنة استغلال وتسيير الثروات الوطنية ؛
- ✓ تحرير الصيد البحري من سيطرة المفسدين داخليا وخارجيا وتطوير مختلف مؤسساته واستحدث العديد منها؛
- ✓ التدخل الفاعل في مجال الصحة العمومية من حيث الوسائل البشرية والمادية وانتشرت بذلك التغطية الصحية لتشمل مختلف ربوع البلاد ؛
- ✓ استحداث العديد من المؤسسات التعليمية والمهنية والجامعية وصيانة الموجود منها؛
- ✓ وضع إستراتيجية وطنية شاملة لإصلاح المنظومة التربوية وأعطيت التعليمات السامية لتنفيذ هذه الاستراتيجية....؛
- ✓ تشغيل ودمج الآلاف من الشباب في القطاع العام والخاص؛
- ✓ منح المرأة مكانة خاصة وأصبحت عنصرا فاعلا لا مفعولا به؛
- ✓ إعطاء الشباب مكانة خاصة واستحدث مجلس أعلى للشباب يعنى بقضايا الشباب على مختلف المستويات ويعد خصوصية موريتانية ؛
- ✓ تحديث المؤسسة العسكرية والأمنية بشريا وماديا بعد أن كانت البلاد عرضة للتهديد الأمر الذي نتج عنه تقليم أظافر المجموعات الإرهابية ومن ثم القضاء عليها نهائيا؛
- ✓ القضاء على عصابات الإرهاب المنظم والعابرة للحدود؛

- ✓ العمل علي صيانة موروثنا الفكري والثقافي ترسيخا لهويتنا؛
- ✓ استحداث مهرجان المدن القديمة للمحافظة على الأبعاد الحضارية والثقافية التي تمثلها هذه المدن؛
- ✓ إنجاز الطبعة الأولى من المصحف الشريف لأول مرة في البلاد ؛
- ✓ إنشاء الجامعة الإسلامية تمهيدا لتفعيل دورنا الثقافي والعلمي في المنطقة؛
- ✓ إنجاز قناة خاصة بالقرآن الكريم (قناة المحظرة) ؛
- ✓ تحرير الفضاء السمعي البصري ودعم حرية الصحافة؛
- ✓ صيانة الوحدة الوطنية بمعالجة ما يعرف بظاهرة الإرث الإنساني؛
- ✓ طرد سفارة العار الصهيونية في سابقة لم يجرأ عليها إلا القائد الرمز ؛
- ✓ تفعيل دور موريتانيا في المحافل الدولية وتنمية وتطوير علاقاتنا الخارجية؛
- ✓ ترؤس القائد الرمز محمد ولد عبد العزيز للعديد من الهيئات والمنظمات والمبادرات الدولية الساعية إلى إشاعة السلم والأمن في المنطقة والعالم؛
- ✓ أصبحنا قبلة لزعماء العالم بعد أن كنا نسيا منسيا؛

ويحق لنا والحالة هذه أن نفخر بهذا القائد الرمز الذي لولاه لما كان لهذه الأمة أن تنعم بهذه النهضة التي شملت مختلف جوانب الحياة، ويجب علينا أن نقف صفا واحدا لمؤازرة مشروعه الذي أسس لأمة بدأت تخطو بخطوات ثابتة نحو المستقبل.

المدير الناشر

د. إسماعيل ولد شعيب

تنبيه

!

- الموضوعات المنشورة بالمجلة إنما تعبر حصرا عن وجهة نظر أصحابها؛

- تستقبل المجلة كل البحوث والمقالات والإبداعات باللغتين: العربية والفرنسية والتي لم تنشر سابقا؛

- لا تعاد أصول المواضيع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

موريتانيا: ماض مشرف ومستقبل واعد

بقلم: الأستاذ د./ سيدى عبد الله المحبوبي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نالت الجمهورية الإسلامية الموريتانية استقلالها عن المستعمر الفرنسي 1960 وأصبحت عضوا فى هيئة الأمم المتحدة 1961 ثم عضوا مؤسسا فى منظمة الوحدة الإفريقية 1963 ثم عضوا فى الجامعة العربية 1973. وظلت موريتانيا عبر مسيرتها رمزا للأخوة والسلم والتضامن مع كافة القضايا العادلة، كما شكلت على مر الفترات جسر اتصال وعبور قوي للثقافة العربية الإسلامية إلى إفريقيا جنوب الصحراء مكونا لحمة لا انفصام لها بين الفضاء المغاربي ونظيره فى غرب هذه القارة.

وتعتمد موريتانيا فى الوقت الراهن على العديد من المقومات والإمكانات الطبيعية والبشرية اللازمة لبلوغ مستويات متقدمة فى سلم التنمية الشاملة، وهو ما يترجمه عدد المشاريع التنموية الموجهة إلى مجالات البنى التحتية وخدمات الصحة والتعليم والماء والكهرباء وميادين الحكم الرشيد.

*** فعلى مستوى المقومات الطبيعية:** تجدر الإشارة إلى أهمية الرقعة التى تغطيها مساحة البلاد وهي 1.030.700 كلم مربع حيث تمثل 7.37% من مساحة الوطن العربي. كما تطل موريتانيا على المحيط الأطلسي بواجهة طويلة تناهز 700 كلم، حيث تتوفر بيئة بحرية أعطت لهذه الشواطئ شهرة عالمية على مستوى مصائد الأسماك وغناها.

وتتعزز هذه المقدرات بوجود مصادر للمياه المتجددة توفر للفرد الموريتاني نصيبا من هذا المورد الحيوي يحتل به الترتيب الثالث على مستوى الوطن العربي بعد السودان والعراق حيث تقدر تلك الحصة بنحو 3500 متر مكعب سنويا، رغم ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن بلد تغطى الصحراء نحو ثلثي مساحته.

ويعود ذلك إلى وجود نهر السنغال الذى يشكل الحدود الطبيعية الجنوبية لموريتانيا، كما يعود من جهة أخرى إلى ما تساهم به التساقطات المطرية السنوية من موارد سطحية توفر الظروف الملائمة للمراعى وللزراعات المطرية. وتساند المصادر المتجددة من جهة أخرى مخزونات جوفية ضخمة من المياه العذبة قد تتضاعف معها الكمية.

وإذا نظرنا إلى واقع هذه الرقعة نجد أنها تحمل فى أحشائها ثروة معدنية متنوعة تشمل الحديد والنحاس والذهب والفوسفات والغاز والبترول والجبس والملح بالإضافة إلى مجموعة من الأحجار

الكريمة، كما تظهر الدراسات وجود مؤشرات قوية لليورانيوم.

وتؤازر هذه الثروة نظيرتها على مستوى الأراضى الزراعية، حيث توفر الضفة اليمنى للنهر إمكانات هائلة للزراعات المختلفة تعززها المساحات خلف السدود وفى الواحات وفى المناطق الفيضية وتلك التى تستغل للزراعات المطرية فى المواسم الجيدة.

وإلى جانب المقومات الآنفة الذكر تمتلك البلاد ثروة حيوانية ضخمة تشمل المجترات الصغيرة والإبل والأبقار والخيول، وهي ثروة يمكن أن توفر اللحوم للسوق المغاربية الكبرى عندما يتم استغلالها فى إطار التكامل بين هذه البلدان، حيث تقدر هذه الثروة بما يقارب 13 مليون رأس من بينها 9.5 مليون للضأن والماعز ونحو مليونين من الأبقار وما يزيد عن مليون راس من الإبل.

وفوق هذا وذاك توفر مصائد الأطلسي ومصائد المياه العذبة كميات من الأسماك تتجاوز طاقة إنتاجها طلب سوق الوطن العربي، حيث يمكن أن يستغل منها سنويا ما يقارب مليون طن دون أن يؤثر ذلك على تجددها واستمرار إنتاجها حسب تقديرات كتلتها الحية .

*** وعلى مستوى المقومات الاقتصادية:** فإن الاقتصاد الموريتاني يعتمد على روافد متعددة، فقد كانت لبنته الأساس عند قيام الدولة هي القطاع الريفي الذى يمد السكان بحاجاتهم من الغذاء دون اللجوء للاسترداد من الأسواق الخارجية، ثم دخلت مناجم الحديد والنحاس على الخط ابتداء من 1963 فاتحة عهدا جديدا أصبح فيه القطاع العصري حاضرا فى مشهد اقتصاديات البلاد بشكل كبير سواء على مستوى التشغيل والتكوين أو المساهمة فى الناتج المحلي الإجمالي أو فى ميزانية الدولة.

وقد كانت بداية استغلال **الحديد** بإنتاج يصل إلى 1.5 مليون طن ليصبح فى الوقت الحالي مابين 11 و12 مليون طن سنويا، حيث يتم الاستغلال من أكبر منجم فى هذا النطاق وهو منجم "قلب الغين" مع ما يتوفر من احتياطات ضخمة فى مناطق "المهاودات" و"الكديه" و"القلابه" و"العوج" و"آسكاف".

وقد تولت الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم استغلال هذه الثروة بعد تأميم الشركة الفرنسية "ميفرما" سنة 1974. وتمتلك هذه الشركة قطارا منجميا يربط مناطق الإنتاج بميناء التصدير فى "نواذيبو" قد يصل طوله فى بعض الأحيان إلى 2.5 كلم، ويعبر مسافة 700 كلم بين هاتين النقطتين مشكلا حلقة ربط تنموية للمناطق التى يمر بها.

وبالموازاة مع دور المعادن كانت الثروة السمكية حاضرة فى ميناء نواذيبو فيما قبل الاستقلال مشكلة موردا نهبت منه الأساطيل الأجنبية قبل أن تضع الدولة نهاية لذلك الاستغلال الجائر وتتبنى سياسة صارمة لحمايته وضمان تجدده عن طريق رقابة الشواطئ وفرض استراحات بيولوجية.

وقد شكل هذا المورد دعامة قوية لاقتصاد البلاد تجلت من خلال الأعداد الضخمة من العمال وما يساهم به فى ميزانية الدولة، بالإضافة إلى كونه صاحب السبق فى مسار الصناعات الوطنية وفى مجال تكوين الكادر البشري الوطني من بحارة وصيادين.

أما الثروة الحيوانية التى أشرنا إلى أهميتها العددية فإنها تمثل رافعة اقتصادية ذات دور مزدوج، فهي اللبنة الأولى فى ميدان توفير الغذاء للفرد الموريتاني فى الأرياف والمدن وهي كذلك سلعة رائجة فى أسواق البلدان المجاورة التى يعتمد كثير منها على الثروة الحيوانية الموريتانية لسد حاجاته المتزايدة إلى هذه المادة خاصة فى مناسبات الأعياد الدينية وغيرها، وهي من هذا المنظور تمثل موردا هاما للعملة الصعبة بالنسبة لملاكها.

وعلى مستوى الموارد الزراعية فإن البلاد تتوفر على إمكانات هائلة فى هذا المجال، حيث تتوفر نطاقات شاسعة من الأراضى الخصبة ومن المياه سواء فى منطقة النهر أوفى مناطق السدود والبحيرات أوفى تلك المساحات الكبرى التى تتوفر فى مواسم هطول الأمطار.

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن البلاد أوشكت على تحقيق إنتاج حاجاتها من مادتي الأرز والخضراوات ولديها إنتاج وفير من التمور، كما شرعت فى إنتاج القمح بطرق حديثة يتوقع أن تساهم قريبا فى سد النقص المسجل فى هذا الخصوص. أما إنتاج الحبوب التقليدية من ذرة ودخن فإنه يؤمن الحاجة منها.

وإذا كانت الدعامات الاقتصادية السابقة تمثل العمود الفقري لأي اقتصاد من المنظور المتعارف عليه فإن هنالك رافعة أخرى للاقتصاد الموريتاني لا تقل أهمية عن سابقاتها ألا وهي **السياحة** التى يشكل ركناها الطبيعي والثقافي موردا اقتصاديا بالغ الأهمية حيث تتوفر البلاد على مقدرات غنية ومتنوعة فى هذا المجال.

وهنا تستوقفنا المحميات الطبيعية البكر فى "حوض آرغن" و"دياولنج" وغابات النهر ومنطقة "محموده" كما تطالعنا الجداول الرقراقة والشلالات الهادئة فى واحة " ترجيت" وفى مناطق "تكانت" و"لعصابه" و" الحوض" تؤازرها وتزيد من تنوعها الكثبان الرملية الذهبية على مستوى الشواطئ وفى النطاقات الصحراوية الشاسعة بالإضافة إلى بعض الظاهرات الجيولوجية الفريدة مثل " قلب الريشات".

وإذا كان المظهر السياحي الطبيعي جذابا فإن السياحة الثقافية أكثر جذبا وثراء، فقد أصبحت المدن التاريخية الأربع: " ولاته - تشيت – وادان – شنقيط " قبلة للمهتمين بتراث هذا البلد وتاريخه وفنه المعماري حيث المكتبات المليئة بالمخطوطات النادرة وحيث الفن والزخرفة المعماريان شاهدا عيان على ما وصلت إليه تلك الحواضر من رقي وازدهار جعلها تصنف " تراثا عالميا " من لدن اليونسكو.

ولا يقتصر الأمر على هذه المدن التى قاومت عاديات الزمن بل إن رقعة البلاد تؤوى بين حناياها مدنا اندثرت يعود بعضها إلى فترات موغلة فى القدم مثل المدن الأثرية التى ما زالت أطلالها ماثلة للعيان : " كومبى صالح – آوداغوست – آزوكى – آبير – تنيكى – قصر البركه ".

أما أبرز خصائص المجتمع الموريتاني فتتجلى من خلال بعدين هامين أولهما أنه مجتمع بدوي متعلم وهي سمة لا تتقاسمها معه المجتمعات العربية التى كانت البداوة عندها مرادفة للأمية والعزوف عن التعلم.

فقد ابتكر الموريتانيون لهذه الخاصية نظاما تعليميا ينسجم وحياة الظعن والترحال ألا وهو نظام : " المحظرة " الذى خرج أجيالا من فطاحلة العلماء فى مختلف فروع العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها وأنساب العرب، وظل علم هؤلاء معهم حيثما يمموا، وهو ما جعل سفراءهم الأقدمين والمحدثين فى الشرق العربي وفى مغربه يلقون الإعجاب والتقدير، والنماذج فى هذا الشأن معلومة مسجلة فى أدبيات رحلات " الشناقطة ".

أما البعد الثانى فمتعلق بالبنية الذهنية والسلوكية للفرد الموريتاني التى هيأته لأن يكون جاهزا لخدمة الضيف مهما كانت حالته المادية، ذلك أن هذا المجتمع قد يبيت أفراده على الطوى وقد يظلون لا لينالوا كريم المأكل ولكن ليوفروا لضيوفهم المأكل الكريم. فمن المعروف لديهم أن آخر ما يلزم أن يحافظ عليه هو " صرة العار" وتعنى الزاد المخصص للضيوف.

ورغم ما شهده المجتمع الموريتاني الحديث من تحولات وتأثيرات للواقع الحضري فإن هاتين الخاصيتين من الثوابت الراسخة فى منظومة قيمه متمثلين بالنموذج المتداول القائل: " نفس عصام سودت عصاما ".

القمة العربية استحضار أمين لمجد تليد...!!

بقلم: د/ تربة بنت عمار

المقدمة:

إن الحديث عن القيمة الحضارية لاستضافة بلادنا للقمة العربية سينطلق عبر قناة تثمين هذا الإنجاز الذي يدخل بكل فخر واعتزاز من باب استحضار عظمة الأمة وإحياء مجدها، إن النجاح الدبلوماسي الذي حققته بلادنا بقيادة صاحب الفخامة السيد محمد ولد عبد العزيز يعيش اليوم أزها حلله بجعل بلادنا عضوا فاعلا وقويا في المنظومة العربية التي كادت السياسات السابقة أن تفقدنا هيبتنا وقوة حضورنا، اليوم نستعيد بكل قوة مكانة عربية تليدة قد رسم الأباء لوحتها منذ دخل الإسلام لهذه الربوع وتولى الأباء عملية نشر الإسلام واللغة العربية عبر سياقات زمانية ومكانية حين كانت دبلوماسياتنا الثقافية خير دليل على قوتنا، وكانت القوافل التجارية العابرة للصحراء محملة بالدين الإسلامي السمح تجوب هذه الربوع ترويجا لحضارة عربية منبتها الصحراء وفضاؤها حدود بلادنا التي تستعيد اليوم ذلك المجد وتلك الحضارة العربية الضاربة في عمقنا الوجداني، إن عقد القمة العربية بإرادة سياسية استجابة لماضي هويتنا التي تشكلت عبر المكان فأنتجت ثقافة عربية إسلامية تجذرت في المنطقة محصنة إياها من المسخ والاستلاب، هاهي اليوم تحقق حلما وجدانيا أراد أن يستعيد ذاته فيستحضر مجده...

صاحب الفخامة السيد محمد ولد عبد العزيز كان أمينا لخصوصيتنا الحضارية التي نبتت تحت خيمة وبرية، فكانت رغم تنقلها قد أنتجت ثقافة عالمة شكلت استثناء من بين بوادي العالم، فعندما استحضر السيد الرئيس تلك الخيام بقوله:" ستعقد القمة ولوتحت الخيام" فكان هذا التوظيف موفقا مفعما بالاعتزاز بتلك الخصوصية الحضارية الفريدة من نوعها...

انطلاقا من هذه المقدمة ستجبرنا منهجية هذه الورقة على تقديم الموضوع في مبحث بعنوان: **"البعد الحضاري والثقافي لبلادنا"**

لقد كانت السياسية الرشيد التي انتهجها السيد الرئيس محمد ولد عبد العزيز قد أخذت منها الدبلوماسية والعلاقات الخارجية نصيبا هاما حيث كان عقد القمة العربية بنواكشوط تتويجا مرصعا بإكليل مجد تليد أراد له صاحب الفخامة أن يعود اليوم، عندما كانت شنقيط بقوة حضورها الثقافي تتولى دبلوماسية بين حضارتين: الحضارة العربية والإفريقية، وكانت البادية العالمة الوحيدة التي شكلت استثناء، والتي قال فيها العلامة المختار بن بونه:

ونحن ركب من الأشراف منتظم
أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة
بها نبين دين الله تبيانا

وقد كانت المحظرة الشنقيطية بمختلف مناهجها ومكوناتها المعرفية بما فيها الفقه والتصوف تتحرك عبر مسالك تجارية تجوب مجالات الصحراء نشرا للفقه تارة والتصوف

تارة أخرى، وكل ما له علاقة بالإسلام السني المعتدل والمتسامح...

وفي هذا المجال يقول مصطفى شفيق علام:

«يمكن النظر إلى مدارس التصوف في موريتانيا باعتبارها حلقة الوصل بين مدراس التصوف بكل من المغرب العربي وغرب إفريقيا، ومن ثم فإن التصوف الموريتاني يجمع سمات وخصائص التصوف بصبغتيه العربية والإفريقية في آن واحد»[1].

وقد لا نؤتي الشناقطة حقهم إذ اعتمدنا ما ذهب إليه شفيق من أنهم أي الشناقطة تولوا مهمة التوصيل فقط، وكانوا كالجسر لتوصيل المعارف والرؤى، وأنهم يحملون سمة مزودة بين الأفارقة والعرب، إن المتتبع معنا سيلاحظ دون كثير عناء أن الشناقطة أعطوا للتصوف صبغة خاصة في طرفي الرفض والقبول، وألفوا ودافعوا وانتقدوا كلها بمنطق فقهي وبأسلوب شعري جميل « لقد أدرك الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أن الشناقطة هم الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الإسلامية في نقائها وأصالتها، وأنهم سدنتها في قاصية ديار الإسلام، المرابطون في ثغورها، حفاظا عليها ونشرا وإشعاعا لها»[2].

فالدارس لتاريخنا الثقافي يلمس دورا فعالا، وبصمة بارزة للتيارات والأطر التي شَكَّلَتْ مشهد الحقل المعرفي عندنا، من فقهي فروعي إلى فقهي أصولي، إلى عقيدة أشعرية، وتصوف سني جنيدي، وتيارات أدبية شعرية تتأرجح بين النزعة الجاهلية استجابة لظروفنا البدوية، إلى نزعة ذات مشرب أندلسي بفعل الرافد المغربي، إضافة لتيار التجديد؛ نظرا لدواعي التجديد والإصلاح في الخطاب الشعري الشنقيطي إبان نهضة القرون 12-13-هـ.

فلا شك أن موقعنا الجغرافي يحتم علينا التأثر بالمؤثرات الخارجية وهذه صفة قد تكون – أحيانا- إيجابية إلا أننا لم نكن يوما نتولى الدور السلبي بها، فدور طرق القوافل كان ايجابيا في توصيل المادة الخام، إلا أن ذكاء الأجداد وقابليتهم غربلت الصالح من الطالح، ورفضت المذاهب والطوائف التي كانت تعج بها الحواضر الإسلامية، والمسالك الطرقية، إبان تلك الفترة من انتشار الإسلام، وتوسع دائرته، وانسيابية شبكة من التجار والدعاة عبر تلك الشرايين.

أما عن خطوط الطرق التي كانت تعبر البلاد الشنقيطية، فقد حددها الباحث عبد الله ولد بن حميده - في بحثه «نشأة الشعر...»- بثلاث: إحداها رابط بين أتوات وتنبكتومرورا بتغازة وتاودني وولاتة. والثاني رابط بين سجلماسة وأودغوست مرورا بوادان وشنقيط. وأما الثالث فساحلي يبدأ من ماسة ووادان وينتهي عند سانوسي بالسينغال، مرورا بمنازل كدالة.

فالتيارات الفقهية انصهرت في مكون المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، فلم يكن الاختلاف حول النوازل الفقهية خلافا، بقدر ما كان يعطي للساحة العلمية رونقا وحراكا يبعدها عن الجمود...

أما التيار الصوفي بهدوئه، وسنيته ومالكيته، فقد تناغم مع المكون الفقهي لترتسم لوحة ثقافية شنقيطية خالصة، مشكلة صيحة

1- مصطفى شفيق علام، موقع الصوفية.
2- خليل النحوي، بلاد شنقيط... ص12.

استثنائية في رتابة الصحراء، وأمية البداوة!!.مشاكسين بذلك القاعدة الخلدونية «العلم ربيب العمران».

وختاما لما سبق فإن ما قدمناه عن الحياة الدينية، لبلاد شنقيط، خلال قرنين من تاريخ ازدهار عطاء المحضرة، وإنجابها صفوة من رجال العلم والتصوف، لا يعتبر قد وفى الشناقطة حقهم، وقد لانبالغ إذا قلت أنه كان للانسجام بين الفقه والتصوف دور في تنقية هذا الأخير، من شوائب الانحراف، ومع ذلك فهذا لا يعني أن التصوف الشنقيطي كان منزها عن ما عرفه بعض الطرق الصوفية في العالم الاسلامي، من شطحات وخرجات على النسق الاسلامي المعتدل، لكن لما مثله كبار شيوخ الطرق في شنقيط، وما قاموا به من نشر للإسلام، إنها أشياء تجعل الباحث في هذا المجال يستخلص إلى نتيجة معززة بشيء من الثقة نظرا للمعطيات التاريخية، أن التصوف الشنقيطي نشأ في المحضرة، واستمد مرجعيته من القرآن الكريم، وذلك ما مثله شيوخ كبارأمثال: الكنتي الكبير، ومحمد فاضل، والشيخ سيديا، والولاتي، والتيشيتي وغيرهم كثير...

الخاتمة:

ونحن في الختام لا ندعي الإحاطة بدقائق الموضوع، فلم نستطع التوسع فيه نظرا لشموليته واتساع مجاله، لكن حسبنا أننا قدمنا إشارات ذات دلالة ومغزى نستحضرها ونحن نستقبل أخوتنا القادة العرب لنعانق مجدا تليدا بآخر معاصرا وضع لبنته السيد الرئيس محمد ولد عبد العزيز، حيث تطرقنا في عجالة لتاريخ بلادنا ومجدها العربي، ليتم العناق الحضاري معززا بوشائج القربى والتاريخ المشترك والنتاج الثقافي الموحد رغم خصوصيتنا التي نمت تحت خيمة عربية أصيلة، أستنطقها صاحب الفخامة السيد محمد ولد عبد العزيز وهويزف لشعبه بشارة عقد القمة العربية في نواكشوط...

علامات فارقة حول إسهام الشناقطة في بناء الصرح الثقافي العربي الإسلامي

د. محمد أحظانا
أستاذ جامعي حاصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب مرتين

ليس من السهل أن يحدد الباحث بسهولة مساهمة شعب من الشعوب في بناء حضارة ما، أحرى إذا كان هذا الشعب موجودا في طرف جغرافي ناء من هذه الحضارة. خاصة وأن تجارب الشعوب متداخلة تداخلا يؤدي إلا صعوبات منهجية جمة في تمييز العلامات الفارقة للتجارب الجزئية، لأنها تسبح في بحر جارف من التجارب التي صبت في رافد حضاري موحد فاختلطت واشتبكت.

ومع ذلك فإن انعزال التجربة الحضارية أحيانا ضمن حيز جغرافي معين يسهل قراءة الفروق والإسهامات التي قامت بها مكونة ثقافية من مكونات الأمة العربية الإسلامية كما هو الأمر بالنسبة لموضوعنا، المتصف بسكنى التجربة الحضارية ضمن إقليم عرف جغرافيا بإقليم الغرب الصحراوي، وعرف في أدبيات المؤرخين ببلاد الملثمين، أو أرض الرجال الزرق، أو بلاد المور.. أو أرض الرجال. ونلاحظ هنا ابتداء أن كل الأسماء والألقاب التاريخية التي خلدها المؤرخون والكتاب والرحالة الذين زاروا الأرض لسكانها كانت كلها أسماء وألقاب مشرفة، وهذا يدل على توارد الشهادات الإيجابية من أناس متميزين ينتمون إلى حضارات مختلفة وأزمنة متفاوتة، بأن الإنسان في هذه الأرض كان إنسانا متفوقا في عموم أدائه عبر تاريخه المدون.

وأنا هنا لن أتتبع بصورة تفصيلية ذلك البعد التمجيدي، ولكن سأحاول أن أجمع شتات الإسهامات الحديثة والمتوسطة للثقافة الشنقيطية في بناء الصرح الحضاري الثقافي العربي الإسلامي، دون إطالة ولا تفصيل، وكما جسدته آلية إدراك الشناقطة للقيم المعرفية، والأخلاقية والواقع شخصه الإنسان في نتائج شاخصة على الأرض، ضمن مجموعة من العلامات الفارقة، المميزة للمجموعة البشرية التي كانت تدعى بسكان بلاد شنقيط عربيا وإسلاميا، وأصبحت تدعى موريتانيا حديثا بعد الاستقلال؛ ويمكن أن ندعو هذه العلامات بمسهامات الشناقطة في إثراء التجربة الحضارية العربية.

سنلجأ هنا في هذه العجالة إلى تجميع مختلف التجارب في نواظم وحُزم، لأن التجربة الحياتية، ومظاهرها الثقافية بالغة التشتت الظاهري.

فماهي هذه الحزم المميزة لتجربة الناطقين بالحسانية في الغرب الصحراوي؟ أو ما هي الإضافات التي يمكن أن تحسب لهم بالدرجة الأولى؟

بغض النظر عن القيمة المعيارية لما سنستعرضه هنا، فإنه يبدو من خلال المدونة الحسانية، المتاحة، ومن خلال الروافد الأخرى الموثقة لاستقاء المعطيات والمعلومات؛ أن هذه المجموعة البشرية التي نتحدث عنها، خرجت من ممارسة تجربتها في التكيف مع واقعها بالعلامات الفارقة التالية:

العلامة الأولى: الانتقال من الحواضر إلى البادية

سجلت في إقليم الغرب الصحراوي حركة نزوح كبيرة من المدن القديمة إلى البوادي، خلال القرون: العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، للهجرة. أي من القرن السادس عشر الميلادي، إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي. ففي هذه الفترة مثلا حدثت هجرات أساسية من "وادان"، و"تينيغي" و"تكبه" و"شنقيط" و"أزوكي"، و"تشيت" و"وَلاته" و"أوجفت"، و"الرشيد" و"كصر البركه" وغيرها.. مما يعرف من المدن و"القصور" حينها.

وسأحاول هنا، أن أحدد بعض الأسباب المستنتجَة من القرائن، والحكايات، والمدونات المتاحة. دون أن أخوض في التفاصيل والملابسات المتعلقة بهذه الظاهرة الاستثنائية، حيث تتجه المجموعات البشرية عادة من حالة الرحيل إلى حالة التقري، ومن حالة التقري إلى تخطيط الأمصار والمدن. والحال أن العكس هو ما وقع في الغرب الصحراوي؛ تحدث هذه الحركة، المعاكسة لقواعد العمران حسب نظرية ابن خلدون في نشأة الدول من العصبيات؟

للإجابة على هذا السؤال سأستعرض هنا مجموعة من الأسباب المجملة، لكن أبدي هنا ملاحظة تأكيدية وهي أن فعل العقلية العامة في توجيه دفة العلاقة مع سنة العمران، كانت ذات وجهة خاصة. بمعنى أن الإنسان ابتدع مسارا يخصه من المدينة إلى البادية، كما ابتدع مسارات أخرى، لا تجد مسوغها إلا ضمن بنية العقل الناظم لآليات إنتاج المفاهيم وقواعد السلوك الخاصة بالمجموعة المدروسة. إن العلامات التي سنتحدث عنها تسير في هذا المنحى. والآن لنعدد أسباب ظاهرة الانتقال من حال التقري إلى حال البداوة وهي الحالة الاجتماعية اللافتة للانتباه:

السبب الأول: الاكتظاظ السكاني

شهدت المدن في المجال الشنقيطي ازدحاما بالساكنة، حتى أصبحت مصادر العيش والماء غير كافية فيها لثقل الكتلة السكانية.

ويتعلق الأمر بودان "الذي هاجر منه سكان أربع قرى، هي "تنلبه" و"تفرلّه" و"تامكُونه" و"تفتل"، ولم يبق إلا سكان مدينة ودان المؤلفة من "كولانه" و"مدينة الحجاج"، على قمة الجبل. كما هاجر سكان قرى أخرى في هذا الوادي الذي كان خصيبا، وكانت به حصون مسورة غالبا".[1] وقد اتجه سكان هذه القرى والأحواز في اتجاهين: اتجاه الجنوب الغربي، واتجاه الجنوب الشرقي. وأصبح السكان المهاجرون في هذا المثال بدوا مرتحلين في أغلبهم رغم تأسيس بعضهم لقرى ومداشر انزاحوا منها

1- سيدي محمد ولد عابدين سيدي. متخصص في تاريخ ودان وما حولها. مقابلات متتالية في نواكشوط وودان. خلال رحلة الشمال. مرجع مذكور.

كذلك بالنسبة لـ "تينغي" التي خربت كلية من سكانها من تجكانت غالبا ثم كنته، بسبب حروب أهلية، واتجه بعضهم، لتأسيس مدينة "تكبه" التي خربت هي الأخرى. لقد هاجر سكان هاتين المدينتين (وادان، وتينيكي) في ثلاث اتجاهات:

اتجاه الجنوب الغربي (القبلة- منطقة الركيز). واتجاه الجنوب الشرقي (تكانت، وآفطوط، والركيبه، والحوض). واتجاه الشمال الشرقي، لتأسيس مدينة "تيندوف". وباستثناء حالة واحدة من ثلاث حالات أصبح سكان المدينتين بدوا رحلا.

بالنسبة لشنقيط، انطلقت منها هجرات متعددة على دفعات، في اتجاه الجنوب الشرقي، لتؤسس المجموعة المهاجرة مدينة تجكجه (قبيلة إداو اعلي) كما هاجرت منها مجموعة أخرى تحولت إلى البادية، ومنه القسم الذي اتجه إلى الجنوب الغربي (القبلة)، وكانت ضمن هذه الهجرة عدة قبائل(الاغلال. إدواعلي إدو الحاج).[1]

بالنسبة ل، "أزُوغي" هاجرت منه مجموعات في اتجاهات مختلفة، أغلبها توزع في حيز آدرار. وكانت من بينها هجرة لإديشلي في اتجاه جنوب السلسلة الجبلية "تونكاد" و"أوجفت".. وقد تحول بعضهم إلى بدو رحل. أما المجموعات الأخرى من السكان فقد أقامت تجمعات وقرى في الواحات والأودية، وصارت تمتهن الرعي والانتجاع في بعض الفصول والتقري قرب الواحات في فصل "الكيطنة" (موسم التمور)، وهاجرت قبيلة "السماسيد" هجرات داخلية متعددة من تيارت وإليها، وإلى "ظهر آدرار" و"الباطن" في مناطق متعددة.

بالنسبة لـ "أوجفت"، وهو مدينة مرت بمراحل تاريخية متعددة، فقد هاجرت منها كتل بشرية إما إلى آدرار نفسه، وإما في اتجاه السهول المجاورة، وأصبحت رحلا.

بالنسبة لمدينة "تشيت"(تشّنُدْ: البقرية) فقد هاجرت منها مجموعات سكانية في اتجاه الحوض ولعصابة، وأزواد، من أبرزها الشرفاء وأولاد بله، وكنته، وإدوعيش أهل اسويد والجعافرة، وأولاد داود اعروق.. وأصبحت تلك المجموعات ضمن البدو الرحل.

بالنسبة لـ"ولاته" فقد هاجر منها عدد كبير من السكان كان من أبرزها هجرة أولاد داود اعروق: علوش ويونس، وشرفاء ولاته وغيرهم، وقد انقسموا إلى قسمين: نسبة قليلة من مهاجري ولاتة أسست مدينة النعمة في وادي بالنعمان، والقسم الأكثر من السكان هاجروا إلى منطقة ظهر النعمة وباطنها، وتحولوا كلية من الحضر إلى البداوة.

ومن لكصور في تكانت هدم الرشيد، وهاجر أهل كصر البركة وغيرهما نحو المناطق الشرقية والداخلية من تكانت، متحولين من المدنية إلى البداوة.[2]

إن حركة النزوح الكبرى لم تكن حركة عادية، بل هي ظاهرة مضطردة، لأن المهاجرين إن خرجوا من مدينة في العادة، أسسوا مدينة أخرى، ولم نجد إلا ثلاث مدن من بين عدد كبير من المدن التي تمت منها

1- المؤرخ الموريتاني الأبرز المختار ولد حامدن. مقابلة في مكتبه بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي. نواكشوط 1979م. وقد استقيت معظم المعلومات بشأن الهجرات السكانية من هذه المقابلة.

2- المؤرخ المختار ولد حامدن. مقابلة. مصدر سابق.

الهجرة (تيندوف. تجكجه. والنعمه)، مما يعني أن للظاهرة أسبابا عدة ولا يمكن ردها لسبب واحد.

لا نغفل هنا عن هجرة أخرى من المدن إلى البوادي، وقعت في "اوداغُستْ: أوذَ اغسِّهْ": (مدينة الجنوب بالصنهاجية)، وكمبي صالح.

السبب الثاني: الندرة

يبدو أن الندرة كانت سببا لهذه الهجرات التي اتجهت إلى الأماكن الخصبة في المجال الجغرافي. وهذه الندرة تعود إلى ثلاثة عوامل ملحوظة، وهي: تكاثر السكان حتى ضاقت بهم المدن. فكان الضغط شديدا على الموارد. موجات الجفاف المتتالية التي ضربت المنطقة. عدم توفر الأمن لطرق قوافل التموين والتجارة، وكثرة الغارات عليها من طرف بعض السكان البدو، والمهاجرين الجدد، وكثرة المكوس، والنزاعات على السلطة بين بني حسان، ودفعاتهم المتتالية القادمة من الشمال (أولاد حسان الكبار، والمغافرة). فأصبحت المدن محاصرة عمليا، أو مستباحة عندما تهاجمها المجموعات المسلحة. ومن الدلائل التي كانت قائمة إلى وقت قريب، بيت الخزين، في المنزل بهذه المدن وهو بيت لا باب له، وإنما يسد بالحجارة والطين، لأن النهبة إذا جاؤوا ينهبون كل شيء. كما كانت هناك عادة أكثر دلالة من هذه وهي سكب الزرع على أرض رملية، وخلطه بها، حتى إذا احتاجت الأسرة لاستخدامه غربلت منه ما يكفي حاجتها، لأنه إذا كان في وعاء نهب من فوره.

السبب الثالث: انعدام الأمن

يعتبر عدم الأمن خاصة في الأماكن الثابتة، سببا رئيسا من أسباب الهجرة عنها، حتى ولو كانت محصنة مثل ودان، إذ تمكن محاصرتها، والحيلولة بينها وبين مصادر رزقها، الذي يأتي عبر القوافل. كما أن النخيل والبساتين يوجدان خارج السور، وبالتالي فلا شيء يحميها، ولا تمكن الاستفادة منها في حال حصار المدينة. والحصار كان عادة معروفة في المنطقة، مثله في ذلك مثل التخندق تماما.[1]

أما المدن التي لا تحصينات لها فإنها عرضة لكل أنواع النهب والهدم، وغيره (هدم "تينيغي"، هدم "الرشيد" وقد وقع بعض الهدم حتى في سور وادان. وبالتالي فإن انعدام الأمن كان سببا أساسيا، ليس للهجرة من المدن فقط، بل لعدم الثبات في المكان بعد الهجرة، حتى لا يعرف مكان ثابت للحي، فتنهب دوابه، وأرزاقه.

إن انعدام الأمن بالذات كان محفزا أساسيا للسلوك الجماعي لسكان الأرض، وقد أذهل الإنسان حتى حفزه كي يفعل المستحيل من أجل امتصاصه بأفعال تعويضية عديدة. وقد وصف الفقهاء والمؤرخون هذه الفترة بفترة السيبة. وأفتوا بذلك وعملوا عليه في نوازلهم. ثم انتهت أزمة السيبة إلى كارثة تسويغ بعض الفقهاء في النهاية، لدخول الاستعمار الفرنسي، لا حبا له، وإنما بسبب مرارة النهب المستشري في الإقليم. نهب قد ينحسر

1- سجلت الحكايات المروية وجود خندقين احتمى بهما بعض المتقاتلين من بعض، وهما: خندق اهل احي بن عثمان في الحرب بين اهل اعلي موتاه، وأهل عثمان ولد لفظيل. في صراع على الإمارة، بين فصيلين من أولاد عمّن. والخندق الثاني: خندق دمان، الذي تحصن به أولاد دمان من اعلي الكوري أامير الترارزة، في حرب داخلية بين الطرفين.

في فترات ولكنه يعود بأشد مما كان عليه، لاحقا.

إن فقدان الأمن كان سببا للهجرة، ثم كان سببا للترحال، ثم كان من مسوغات دخول الاستعمار. فهو إذن فاعل حاسم في تشكيل التاريخ الجمعي لهذه الكتلة البشرية. ولذا كان له حيز كبير في مساحة بلاد شنقيط أو أرض "البيظان".

ومكمن التميز في الثقافة ضمن مجال الغرب الصحراوي أنه، رغم كل هذه الفوضى الأمنية، فقد وجدت ثقافة راسخة بوجهيها العالِم والشعبي، نافست الحواضر في انتاجها ونشرها للدعوة الإسلامية واللغة العربية عبر أدغال القارة الإفريقية على نحو يدعو للدهشة.[1] لقد ملأ الإنسان هامش الفراغ بين الواقع والحلم، وكان هامشا كبيرا جدا.

السبب الرابع: النزاعات والحروب الأهلية

للهجرة من المدن، سبب آخر موثق وهو النزاعات والحروب الداخلية، لأسباب موضوعية وأخرى تنافسية على المرجعية الدينية والسياسية. وهذه الحروب الأهلية معروفة بتواريخها وأسبابها وزعمائها.. في الذاكرة الحية.

السبب الخامس: دورات القحط

كانت دورات القحط شبه منتظمة فكان الرحيل طلبا للكلأ عادة سائرة عند السكان، حيث أن الناس في غالبهم كانوا يعتمدون على تنمية المواشي. وفي فترات الخصب تنمو الدواب نموا كبيرا، حتى تشكل ضغطا على الغطاء النباتي، فإذا دارت دورة القحط، هاجر المالكون بدوابهم إلى حيث المرعى والماء، وعادة يكون ذلك بعيدا عن المدن.

السبب السادس: تأسيس إمارات بدوية مرتحلة

كانت هذه الإمارات المرتحلة بمثابة العواصم السياسية لكل إمارة. وهذه العواصم يكون القرب منها مدعاة لدرء المخاطر، والحماية من سفهائها بخوفهم من الأمير والمعتدين الآخرين، فيلجأ سكان المدن إلى حيث يوجد الأمان، غير بعيد من حي الأمير، وحيث يستطيع أن ينجدهم إذا اعتدى عليهم ناهب من هنا أو هناك. زيادة على أن نمط حياة وسلوك الأمراء ميدان للمحاكاة من طرف الأفراد والمجموعات لأنه هو القدوة والمثال في الغالب.

هذه الأسباب الستة هي التي أدت منفردة أو متضافرة -حسبما يوحي بذلك استقراء مختلف أبعاد الظاهرة، وما ترتبت عنه من أسباب موضوعية- إلى موجة النزوح الهائلة بقياس الكتلة السكانية المنزاحة وتلك المتخلفة.

وثمة دليل واضح على أن الهجرات تمت في ظروف استعجالية، تدل على ذلك وثائق تملك العقار، التي يتركها المهاجرون خلفهم في صناديقهم ودورهم، ومكتباتهم أيضا، مما يعني أن هجرتهم في الأصل كانت غير نهائية. ولكن الظروف منعتهم من العودة، إيجابا أوسلبا. بمعنى أن المهاجر إذا كان ينوي الهجرة النهائية في الظروف العادية فإنه يبيع ممتلكاته العقارية ويذهب بممتلكاته

1- عبر الرحالة والمستعمرون الفرنسيون الأوائل عن دهشتهم من قدرة سكان الإقليم على التأثير المذهل في القارة السمراء، ونشر الإسلام واللغة العربية في أصقاع أفريقيا. بول مارتي. ريني كاييه. اكزافي كبولاني. ابلانشي. وغيرهم.

المنقولة، وهذا ما لم يتم في أحايين كثيرة، في حالة الأملاك الثابتة.. مما يعني أن الخروج من المدن كان إما بسبب ظرف طارئ، أو كانت الرحلة مؤقتة وتحولت إلى هجرة نهائية.

العلامة الثانية: نقل مهارات المدينة إلى البادية

تتمثل هذه العلامة –الدالة أكثر من غيرها على كفاءة العقل المبني- في أن المهارات الصناعية التي كانت تستدعي تقسيم الحرف، وتوزيعها على الطبقات الحرفية في المدينة، ومهارات هذه المجموعات.. قد نقلت من البادية إلى المدينة. لأنه في العادة لا يسود تقسيم العمل؛ بل يكون الرجل قادرا على أداء عدد من المهن، بحيث يستطيع تلبية أغلب حاجاته، بينما تكمل المرأة بقية الاحتياجات المتعلقة بها. وهذه الظاهرة موجودة، بالنسبة لبعض صناعات النساء كالخيام ونسج الحصائر. لكن بقية المهن موكولة إلى طبقات تعنى بها.

ومن المناسب أن ننبه هنا إلى أن الزخارف على الجلود والخشب تعكس تأثرا جليا بمهارة زخرفة البيوت، فكل السطوح والساحات القابلة للتوشية والزخرفة والنقش، تملأ بهذه المهارة، كعادة سكان المدن في توشية الأشياء. مما يعني أن هذه الحرف منقولة في الأصل من المدينة غالبا.

وإذا قارنا بين فخامة الرحل والسرج والهودج، والخيمة، وأثاث المنزل، في مجال الغرب الصحراوي، مع مثله حتى بدو الجزيرة العربية، فإننا نلاحظ فرقا واضحا، وتبذلا جليا، ينم عن حلم ضائع بالمنزل الثابت، المزخرف، والجدران الفخمة المزخرفة بالزخارف النباتية كما في "ولاتة" وغيرها.

إن الهامش الذي يلاحظ بين صناعة الآلات والمرافق البدوية في الغرب الصحراوي والمناطق البدوية الأخرى، حفرية ثقافية لتحديد مساحة الهامش بن الأصل والفرع الذي بني عليه.

العلامة الثالثة: نقل المعارف المدنية إلى البادية

ثمة ظاهرة غير دارجة في المجال البدوي عادة، وهي ظاهرة الكتابة، لأنها تتطلب وسطا مستقرا، وأفقا حاضنا، وحاجة للكتابة والتوثيق. أما في البادية فإنه حسب ما أتيح لي من وثائق ومعلومات عن الشعوب البدوية، فإن الكتابة ليست صناعة غالبة فيها إن لم تكن معدومة. فإن وجدت كانت استثناء لا قاعدة. وأغلب سكان المجال الصحراوي الشنقيطي هم الزوايا عدديا أيا كانت مشاربهم، وأغلبهم يكتب ويقرأ منذ قرون. والزوايا مفهوم ووظيفة واختصاص وليست عرقا، فالكتابة شملت عددا من قبائل حسان بالانتساب، زيادة على الزوايا من السكان الأصليين. كتابة البدو الرحل في مجال الغرب الصحراوي، قد تكون استثناء في البدو بصفة عامة، سواء ضمن المجال العربي أو الإسلامي أو العالمي. والسبب واضح، وهو أن العلاقات في البدو بسيطة، ولا تحتاج إلى الكتابة إذ تكفي الذاكرة لحفظ الحاجة من المعلومات والمعطيات. فما السبب في انتشار الكتابة بين البدو الناطقين بالحسانية؟

إنه فيما يبدو من خلال القرائن ناتج عن اكتساب عادة الكتابة في المدن، واحتفاظ

المتخيل المبني بملء خاناته بحشواتها في البادية كما كانت في المدينة، لقد رحل الناس عن المدن لكنهم رحلوا بثقافتهم، وأصروا بعد ذلك على عدم التخلي عنها في البداوة. ومما يمكن اعتقاده في هذا الصدد أن التعلم كان مميزا فئويا وظيفيا، لا يمكن التخلي عنه، وإلا ضم صاحبه للطبقات الأدنى في المجتمع. كما أن المنزع الديني المترسخ لدى المجموعات المرابطية، والعربية المهاجرة لاحقا، وحمل رسالة الدعوة، وإرث الفاتحين.. ومنظومة التقاليد المترتبة على ذلك.. كانت عوامل في المحافظة على مهارة التعلم المكتسبة من هذا الخليط.

لقد نقل السكان معارفهم معهم، لأنهم لا يريدون ترك هويتهم الدينية والحضارية، بتعبير المعاصرين.

ومن المفيد أن نذكر بأن وجود هذه المجموعات السكانية على تخوم حضارات أفريقية وثنية في بعض الأحيان، حتم هذا السلوك على أحفاد الفاتحين، الذين ورثوا مجموعة من التقاليد وحافظوا عليها عبر الأجيال أكثر من محافظتهم على ماء عيونهم. ولم يكن هذا ممكنا بدون حمل زاد معرفي عربي إسلامي معمق.

العلامة الرابعة: قوة الحافظة

لقد أدرك الجيل الحالي من الباحثين والمتعلمين عددا من الأشخاص يعدون بالعشرات، لديهم ذاكرة أسطورية، تحفظ القرآن، وتفسير الطبري، وتحفظ المدونة الكبرى والمؤطأ لمالك بن أنس، وصبح الأعشى للقلقشندي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروزبادي، والمعيار للونشريسي، ومختصر خليل بن إسحق وشروحه، وديوان الستة، وغيلان، وألفية بن مالك، وتكملة ابن بونا لها بطررها، ولامية الأفعال لابن مالك باحمرار الحسن ولد زين، وطررها.. و..و.. مما لا يمكن تصديقه في زماننا هذا لدى من لم يجربه ويختبره. هذه الحافظة الأسطورية فعلا بقياسها على الذاكرة العادية، تؤكد أن المنهج التربوي الذي كان معتمدا في المحاظر بالإقليم الناطق بالحسانية كان منهجا فعالا. ويصنف ابتداع المنهج ضمن فعل الوعي، لأنه لم يكن ثمة واقع يسند قيام معرفة ومؤسسات علمية، لولا المسافة بين الوعي والواقع القائم.

لماذا الحفظ؟

هنا نعود إلى ما ألمحنا إليه من تحمل الإنسان في الغرب الصحراوي للدعوة إلى الإسلام حيثما حل في أفريقيا. ولما لم يكن بمقدوره حمل المراجع والمصادر معه، فإن أفضل طريقة لاستحضارها عند الحاجة هي حفظها. ثم إن تنافسا حقيقيا نشب بين أهل المدن المتعلمين والبدو، فكان على البدو أن يثبتوا تكافأهم مع سكان الحضر.

زيادة على ذلك فإن الورق نادر، والمخاطر تهدد الكتب، حيث يمكن أن تبللها الأمطار التي تطوح بالخيم، ويمكن أن تعصف بها الرياح فجأة، ويمكن أن تتلف لأي سبب، أو تسرق صناديقها ظنا من السارق أن بها بعض المال، بل قد يبيعها لأن أثمان المخطوطات كانت مجزية..

لذلك فإن الكتاب الذي لا يبلى ولا تعصف به الزوابع هو الكتاب المكنون في الصدر. إلا أن ثمة مبدأ أساسيا، وهو أن استبقاء أمهات الكتب بمتناول الأيدي ضرورية للاحتكام إليها عندما تخون الذاكرة أحد العلماء، فتوقد

النار ليلا وتفتح الكتب لمعرفة الحق في المسألة. كما أن التقاضي أحيانا يكون سببا في الرجوع إلى الكتب عندما لا يوافق أحد المتخاصمين على حيثيات الحكم عليه.

لذا كانت ثمة صناديق تعرف بصناديق الكتب، ولها جملها أو ناقتها التي تحملها عند الرحيل (ناقة الكتب أو جمل الكتب). وقد كان سعر كتاب مثل ميارة مثلا بمبلغ عشرة آلاف دولار بالقيمة الحالية.(1) (عشرون بيصة خلال القرن التاسع عشر).

هذه العناية بالحفظ شكلت مصدرا لا ينضب لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية في أدغال إفريقيا وكانت النتيجة جلية، حيث انتشر الإسلام بسرعة كبيرة هناك.

ولقد أفاد حفظ الشيخ الشنقيطي مثلا وهو العلامة محمد محمود ولد التلاميد في تحقيق أمهات كتب اللغة العربية عندما حل بالقاهرة في نهاية القرن التاسع عشر، ودرّس في الأزهر، وأفادت تصحيحاته على المخطوطات في تصحيح كثير من أغلاط الخطاطين والوراقين. (تجد ذكرا لهذا الشيخ في حديث الأربعاء لعميد الأدب العربي للدكتور طه حسين وغيره من تلامذته).

العلامة الخامسة: المنهج المحظري

لقد كان في أرجاء البادية ضمن القطر الناطق بالحسانية محاظر، نشرت المعارف وعلمت الأجيال حسب منهج تربوي، يبدأ من تدريس القرآن والكتب المختصرة، لينتهي بالمكملات، وهو ما يمكن أن نسميه اليوم التعليم العالي. ويشمل علوم القرآن واللغة العربية، والطب والفلك وعلم الحساب، والتصوف. هذا المنهج شمل العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية، والمنطق والبيان (علوم الألة)، وقد قال العلامة محمذن فال ولد متالي (ت: 1278م) في ضرورة تقديم هذه العلوم (رجز):

تعلـــم اللغـــة شـــرعا فضـــل
علـــى التخلـــي لعبـــادة العلـــي

وقد وصف المختار بن بونا الجكني (1190 هـ 1230هـ) معلم العلماء، النحوي والمنطقي الذي كمل ألفية ابن مالك وشرح السلم في المنطق للأخضري. وكان كثير الترحال لأنه من ملاك الإبل في نونيته الطويلة (بسيط):

ونحـن ركـب مـن الأشـراف مرتحـل
أجـل ذا العصـر قـدرا، دون أدنانـا
قـد اتخـذنا ظهـور العـيس مدرسـة
بهـا نبـين ديـن الله تبيـــــانا

المختار هو أستاذ حرمة بن الجليل وسيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، وهو أستاذ لعدد كبير من علماء الغرب الصحراوي. ووصفه هذا صادق صدقا كاملا على طبيعة التعليم المحظري في البادية.

العلامة السادسة: نشأة فقه للبادية

من المعلوم أن تاريخ الفقه الإسلامي ارتبط بالحواضر: فقه أهل المدينة، فقه بغداد، فقه مصر، فقه القيروان، فقه القرويين، فقه الحواضر الأندلسية: قرطبة وغيرها.. إلا أنه لم يوجد فقه عن أحوال البادية وأحكامها إلا في الإقليم الناطق بالشنقيطي حسب علمنا. ما

1- ثمة وثيقة بحوزتي محررة في أواخر القرن التاسع عشر بها كتاب بيع بعشرين بيصة من القماش، نصفها جيد ونصفها عادي. وكان ثمن قطعة القماش بذلك الحجم حينها بناقة حلوب أو جمل. وهو ما يجعل الثمن الذي اشتري به الكتاب عشرة آلاف دولار حاليا.

السبب في ذلك؟ السبب بسيط وعملي وهو أن أهل البادية إذ أصبحوا متعلمين، فكان من اللازم أن يشرعوا سلوكهم البدوي ومعاملاتهم، فأفتوا في النوازل أولا، ليصلوا إلى مرحلة الاجتهاد في أحكامهم، حيث لم تكن مطروحة على فقهاء الأمصار. ومن الأمثلة على كونهم وصلوا شأوا بعيدا، تركهم لتدريس الحج في بعض الحالات لامتناعه أمنيا. حفظا للنفس بالمقصد الشرعي: حفظ النفس. ومن ذلك ترجيحهم لدفع الدية، مغلظة أو عادية، درءا لمفسدة الصراع والقتال بين أهل القاتل وأهل المقتول، بسبب القصاص.. وغير ذلك من الفتاوى الاجتهادية.

العلامة السابعة: إقامة مرفق القضاء في بلاد سائبة

إذا كانت "السيبه": التسيب، هي الوضع السائد في أغلب العصور التي مرت على المجال الشنقيطي، فثمة علامة فارقة، وهي قيام مرفق القضاء، واحترام أحكامه من طرف الجميع.. إلا في الاستثناءات التي تثبت القاعدة. ومما لا شك فيه أن نظام القضاء والتقاضي كان متبعا، وكان الأمراء أنفسهم يلجؤون إلى التقاضي عند تنازعهم مع بعض الرعية، أو مع أبناء عمومتهم، في بعض الأمور الثمينة مثل الخيل. بل ذهب بعضهم إلى اعتماد بعض القضاة وتنفيذ أحكامهم (محمد وأحمد ولدي هيبه وذريتهما- أمراء البراكنة، مع أسرة أهل حب الله ولد القاضي الإيجيجبيه، وهدي ولد أحمد بن دمان التروزي مع محم ولد اخطيره الحسني، وأولاد أعمر ولد اعلي- أولاد امبارك، مع الشيخ ولد أحمد عثمان التنواجيوي، ومحمد ولد محمد شين أمير إدوعيش مع سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي، ومحمد الحبيب ولد أعمر ولد المختار التروزي مع محنض بابه ولد اعبيد الديماني، وأحمد ولد امحمد ولد أحمد عيده، أمير آدرار، مع عبد الودود ولد محمد ولد عبد الودود الحاجي: ق 13هـ) هذا من أبرز الأمثلة.

العلامة الثامنة: نشوء حركة شعرية فصيحة إحيائية

نشأت في مجال الغرب الصحراوي منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري، حركة شعرية تخرج عن تقاليد الحركة الشعرية السائدة حينها في الفضاء العربي، وقد ازدهرت هذه الحركة خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر. والمهم في هذه الحركة أنها شكلت التفاتة فعلية للشعر العربي في أوج قوته، وترك شعر الانحطاط، فعادت القصيدة إلى معارضة الشعر الجاهلي، والشعر الأموي والشعر العباسي، وطرحت مشكلة الإبداع في الشعر، وكيف يمكن أن يجد الشعراء مسربا غير مسارب الشعراء الذين سبقوهم، وكيف يمكنهم أن يبدعوا ما لم يسبقوا إليه. قال الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي في أواسط القرن الثالث عشر الهجري (كامل):

يامعشر الشعراء هل من لوذعي
يهدي حجاه لمطلع لم يُبْدع
إني هممت بأن أقول قصيدة
بكرا فأعياني وجود المطلع..(1)

1- ديوان سيدنَ: سيدي محمد بن الشيخ سيدي بن المختار بن هيبه (ت: 1285هـ. شاعر كبير أسهم في تجسيد قوة الشعر العربي الفصيح، وكان سلس العبارة سهل المأخذ، طويل النفس، رقيق الشعر، صادق العاطفة.

العلامة التاسعة: نشوء نظرية متكاملة حول الفن الموسيقى

من الظواهر المتفردة في مجالنا الثقافي الشنقيطي، نشأة موسيقى متكاملة، تدمج بين المقامات السباعية والخماسية دمجا منظما، حسب نوبات موسيقية، ومقامات معروفة، منها الثقيل ومنها الخفيف، وتتألف من أربعة وعشرين مقاما. منها الرئيس ومنها الذيل، كما في نظام الموسيقى الأندلسية، التي تبلغ أربعة وعشرين مقاما. وقد لا تكون المقامات متطابقة أحيانا، ولكنها قد تتطابق أيضا. إلا أن من الملفت للانتباه أن المقامات الأندلسية المتداولة بالمغرب العربي حاليا تتراوح بين ثلاثة عشر وأحد عشر مقاما، بينما تبلغ في منطقتنا هذه 24 مقاما. وهذا يعني أنه في حالة ما لم تكن تلك المقامات في أساسها أندلسية، فإن ثمة مقايسة على تلك المقامات من خلال مؤشر العدد الإجمالي للمقامات، وإن تكن مقامات أندلسية مندثرة فقد حفظها السكان هنا وهذه علامة فارقة.

هذه الموسيقى تتعلم كنظرية وبنية معروفة. يتميز كل قسم منها عن الأقسام الأخرى.

العلامة العاشرة: نشوء نظرية للشعر الحساني

لقد نشأ في إقليم الغرب الصحراوي شعر حساني، محكم القواعد، محدد البحور، معروف العلل، مبين العيوب، واضح المعالم. به سمات إبداعية تسمى البدع، وبه سمات تعرفه كأدب، وبه سمات تعرفه كشعر. وعلى العموم ودون أن نخوض في التفاصيل فإن الملاحظة التي تظهر من دراسة هذا الشعر أنه من الناحية الشكلية حاول جسر الهوة بين أقصر وحدة صوتية في الحسانية وأطول وحدة. وارتكز أساسا من هذه الناحية على سد الثغرة بين البحور الخليلية وما دونها من اقتضاءات وزنية في موسيقى الشعر. أما من حيث المضامين فقد ضرب شعراء الحسانية مثلا في عمق المعاني، وشعرية التعبير خلال تجربتهم المطولة في نسج هذا الجنس الأدبي الذي لا يقل شأنا عن الشعر العربي، في المجال، إن لم يكن قد تجاوزه نتيجة التصاقه بالوجدان العام، وتخليه عن قيود التقليد، وتحرره من الصور النمطية، واستخدامه للصور والخصوصيات المحلية، والتعبير عنها تعبيرا موجزا دقيقا، صادق العاطفة، بعيدا عن التكلف. كما نقل هذا الشعر الحكمة الشعبية، وتجارب القوم، وحكاياتهم على نطاق شامل.

العلامة الحادية عشرة: الاحتفاظ للمرأة باحترامها الكامل

يرد في المثل الشعبي الحساني، أن "النساء عمائم الاجواد وانعَايِلْ الكلاب" (عمائم للأجواد، ونعال للكلاب)، وفحوى المثل أن الرجل يجب أن يرفع المرأة فوق رأسه إذا كان نبيلا جوادا، ويضعها تحت قدميه إذا كان وضيعا، فلا أدل على وضاعة الرجل ودناءته من احتقاره للمرأة.

وفي الأمثال كذلك "الباتتْ اعليهْ الظفيره تصبح اعْليهْ اللحية" (ما باتت عليه الضفيرة تصبح عليه اللحية) ومعنى المثل أن ما تقوله المرأة للرجل أيا كانت: أما أو أختا أو زوجة هو ما سيتبناه ويعمل على تنفيذه.

وفي المحصلة فإن المقام الذي تبوأته المرأة في الغرب الصحراوي من طرف الناطقين بالحسانية يدعو للإعجاب، خاصة في القرون الماضية حيث كان مقام المرأة في الفضاء العربي الإسلامي أقل شأنا في أحيان كثيرة. لقد كانت المرأة حاضرة في مجالس الرجال، تبدي رأيها

من خلف ستارة، إذا كان ثمة من هو أكبر منها سنا، ودونه إذا كان الرجال من أقران زوجها.. تبدي رأيها في كل شيء: في المباحث المعرفية، وفي الحرب، وفي الرأي على القبيلة والإمارة، وتخرج للحرب للتشجيع والقتال أحيانا، ولها حرية التصرف في مالها، وتتاجر، وتهب وتمنع من حر مالها. فهي ذات مقام سام في المجتمع، دون أن يمس ذلك من ورعها، ولا أدل على عفة المرأة من كثرة الغزل العذري عليها بالشعر الفصيح والشعر الشعبي. هذا أمر مضطرد تثبته الحكايات والوثائق والقرائن التي لا يزال بعضها قائما إلى اليوم. لقد كانت المرأة جزءا فاعلا في المجتمع بالغرب الصحراوي، عبر القرون الخمسة الماضية، وهذا ربما يكون علامة فارقة في سلوك هذه المجموعة البشرية حينها قياسا على المجموعات الحافة بها جغرافيا من أي اتجاه.

العلامة الثانية عشرة: وجود ثقافة شعبية ذات مضمون عالم

من خلال ما اطلعت عليه من الأمثلة والحكايات والأحاجي وشعر الحسانية، يمكن استنتاج أن الثقافة الناطقة بالحسانية عبرت عن المضامين المعرفية السائدة في عمومها، ومن بين ما عبرت عنه، على نطاق واسع، مضامين الثقافة العالمة، فقد استطاعت اللهجة الحسانية عبر وسائل تعبيرها التي ذكرناها أن تضمن السيرة النبوية في ملاحمها من خلال "المدح" وهو صنف من الغناء؛ واستطاعت أن تحول مقرأ القرآن إلى "كفان وطلع" (البان ولد انجكو). وتحول قواعد النحو إلى تيفلواتن من لبتيت. وتحول قواعد الفقه وأحكامه إلى أمثلة وأحاجي وأنظام حسانية. نفس الشيء بالنسبة لمختلف المعارف المتداولة في الوسط العلمي حينها.

هذه الوضعية الفارقة جعلت من الحسانية لهجة مثقفة بما تضمنته اللغة العربية. ولذا نلاحظ فيها استخداما لمعاني عميقة بعيدا عن التلقائية والسذاجة. مثال ذلك: القيم المعرفية في نظام الأنظمة المعرفية، المتداولة عند الخاصة من العلماء، ويستخدمها العامة في شعرهم الحساني.

العلامة الثالثة عشر: إعادة ترتيب الدعوة للدين الإسلامي ترتيبا منهجيا

أثناء الفتوح الإسلامية، كان أول شيء يطلب من الإنسان أن يتلفظ به هو الشهادة، ثم يقوم بشعائر الإسلام من عبادات بعدها، ثم يرتفع في مراقي المعرفة، من معرفة بظاهر النصوص، إلى برهان فعرفان. وقد لخص منظرو المسلمين هذه المراتب في مقامات ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ومع الاختلاف في تعريف مقام الإحسان، فإنهم يتفقون في تعريف الإسلام، على أنه: القيام بأركان الإسلام الخمسة وما يترتب عليها. وأقاموا لذلك ركنا من المعارف يسمى الفقه: أصولا وفروعا. وقد ميز القرآن الكريم بين الإسلام والإيمان في قوله: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم.) (الأية. قرآن كريم). وقد شاع في مجالنا المدروس، الفقه المالكي حسب رواية ابن القاسم في الغالب الأغلب.(1)

ثم الإيمان. وقد اجتهد المسلمون في تعريفه عن طريق علم متمحض به هو علم الكلام، وقد شاع منه في المغرب العربي الذي يوجد المجال الحساني ضمنه مذهب أبي الحسن الأشعري، صاحب نظرية "الكسب" (كسب العباد لأفعالهم بالتوفيق، ردا على قول المعتزلة بخلق الإنسان لأفعاله.) وكان أبو بكر محمد بن الحضرمي المرادي، دفين آزكي أول من أدخل علم الكلام للمنطقة.(2)

1- ابن القاسم المالكي.

2- د. محمد يحي ولد باباه. مجرى العادة عند الحضرمي المرادي. مذكرة تخرج. المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين 1987. ص: 66.

الإحسان: وهو في تعريفه الاتفاقي "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". هذا المقام اتفق أشياخ ومتصوفة وعرفانيو المجال الحساني، على اعتباره هو مقام الإحسان وهو مقام تصوفي عندهم. وقد ألفوا في ذلك ودبجوا. (الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبه في كتابه: الطي والنشر في الرد على المسائل العشر. الشيخ سيدي المختار في كتب عديدة، الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل في كتابه "نعت البدايات وتصحيح النهايات"، محمد ولد محمد الصغير في كتاب "الجيش".. وغيرهم).

وقد اتفق العلماء على أن لديهم منهجا إسلاميا يقوم على اتباع المذهب الأشعري في الكلام، والمذهب المالكي في الفقه، وطريقة الجنيد السالك في التصوف. ورغم بعض الخلافات التي نشأت بين الفقهاء والمتصوفة في القرن الحادي عشر والثاني عشر (خلاف الحاج عبد الله ولد بوالمختار الحسني والطالب أحمد ولد بلعمش العلوي، مع الإمام المجذوب الشمسدي وناصر الدين الشمشوي- ثم من بعده خلاف المختار ولد بونا الجكني والشيخ سيد المختار الكنتي: بين الأخذ بعلم الظاهر أو الباطن) فإن القرن الثالث عشر الهجري طلع بحل لهذا التوازي من خلال مجموعة من الأشياخ العلماء بالشريعة المتصوفين في نفس الوقت، مثل الشيخ محمد فاضل القلقمي، والشيخ سيدي الأبيري، والشيخ محمدُ ولد أغربظ الحسني، والشيخ القاضي الإجيجبي من الطريقة القادرية، وسيدي محمود الحاجي وابنه عبد الله، والشيخ محمد الاغظف البوصادي، في الطريقة القادرية الشاذلية، والشيخ محمد الحافظ، ومحمد ولد محمد الصغير التجانيان العلويان.)

بعد هذا الجيل من العلماء الأشياخ في التصوف، انكسر التوازي الذي كان قائما، وساعدت هذه الوضعية في تشكيل طيف الدعوة إلى الإسلام بالطريقة التي انتشر بها سريعا في أفريقيا الغربية والوسطى، وهذا هو محل ملاحظتنا.

لقد أعيد ترتيب الدعوة على النحو الآتي: كان أول ما يقدمه الدعاة هو التواجد الصوفي، والأذكار بأصوات جميلة، تجذب السامع أيا كان اعتقاده بغريزة حب الجمال. حتى إذا ما اطمأن المدعو إلى هذا الذكر، وأعجب بجماله، طلب منه أن يعرف بوجود إله واحد وراء كل هذه الأشجار، والغابات والأدغال والسماء والماء، والحيوانات، فإذا آمن بذلك، واستكان إليه، طلب منه أن يقيم شعائر الإسلام.

وهنا نلاحظ كيف انقلب الهرم الدعَوي من البداية بالإسلام، إلى الإيمان إلى الإحسان. فالتصوف الذي هو في قمة المستويات الثلاث كان بداية الجذب إلى الإسلام. وتلك هي العلامة الفارقة في مساهمة سكان الغرب الصحراوي في نشر الإسلام بتلك الطريقة السريعة جدا.

ختام

هذه العلامات الفارقة، سواء تعلقت بمأثرة أو بصفة هي أبرز الميزات التي ميزت سكان إقليم الغرب الصحراوي عموما أو ما عرف عربيا بإقليم شنقيط، ولا يعني وجود هذه السمات اختفاءها كلية في بقية بدو الدول العربية، ولكنه يعني تأكيدا أنها كانت تمثل هويته الحقيقية، وسماته البارزة. ومن هنا اعتبرناها علامات فارقة، إذ شكلت نسقا عاما، وموردا للسلوك، ومجرى عادة للناس في هذا الصقع. وهذا يعني أنها يمكن أن تعتبر في قسم كبير منها إسهاما في بناء الصرح الثقافي والعلمي والسلوكي للحضارة العربية الإسلامية في عمومها.

صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية

1800 -1934

الدكتور/ محمد المختار سيد محمد الهادي
أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة نواكشوط
مدير الوثائق الوطنية

السياق العـــام

لا تسعى هذه الدراسة إلى وضع رؤية متكاملة بشأن كتابة تاريخ المقاومة في موريتانيا، رغم وجاهة وإلحاح مسعى من هذا القبيل، وحسبها في هذا السياق أن تبرز جملة من الملاحظات المتعلقة بالموضوع، وتثير بعض الأسئلة التي يطرحها، مبحث المقاومة في بلاد يؤكد علماء الاجتماع على تصنيفها بأنها البادية العالمة الوحيدة على امتداد العالم الإسلامي، والمجتمع العربي الإفريقي البدوي الذي يصنف ضمن البيئات الانقسامية، ويتحرك عبر مجال صحراوي مفتوح بين بحر الظلمات غربا وبلاد المجابات الكبرى شرقا، في الركن القصي للوطن العربي وعلى الثغور الغربية للعالم الإسلامي، والذي ظل ينتظم في مشيخات وإمارات وقبائل تعيش على الأملاك المنقولة، في الغالب، وتسير قوافل الملح، وفيالق الفتح، وركبان الحج، وأفواج الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتربط الأرحام العربية والإفريقية عبر العصور، ويجمعها المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، ونمط عيش الصحراء، والولع بمباحث الأنساب والمناقب والسير كسلاح معنوي ضروري في تاريخ العصبيات القبلية1.

1- Abdel WedoudOuld Cheikh, Nomadisme Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme, Doctorat en sociologie, Université, Paris V, 1985.

- Arnaud (J. C), Le système Politique de La Mauritanie 1960-1980, Thèse de Doctorat d'Etat, Université De Paris 1, 1982.
- Balanse (J. L.), Le développement du pouvoir en Mauritanie, Volume 1, Thèse de Doctorat en (S. P.), Université' de Bordeaux, 1980
- Bonte (P), L'industrialisation et les populations Nomades du Nord de la Mauritanie, Nouadhibou, 1972.
- Bonte, P. ; Ould Cheikh, Abdoul Wedoud, Production Pastorale et Production Marchamde dans la société maure, Paris, 1981 .
- Bonte, P. Segmentarite et pouvoir chez les Eleveurs Nomades Sahariennes, In Production Pastorale et Société, Paris, 1979 .
- Ould Sidiya, Mohamed, de la Tribu a' L'Etat en Mauritanie, Thèse De doctorat, Tunise, 1987.

أحمد محفوظ مناه، ميراث السيبة، دراسة في الثقافة السياسية لبلاد شنقيط، نواكشوط؛ احمد بن سيد، ظاهرة الدولة في المجتمع الموريتاني 800-1380، رسالة دبلوم عالي، جامعة محمد الخامس، 1979

ولما كانت المقاومة في بعض تعريفاتها هي فعل نهوض اجتماعي وثقافي وسياسي وحضاري للدفاع عن موقف أو فكرة أوكيان، أو هي شكل من أشكال الاستجابة الطبيعية لأي تحد مهما كان مصدره، أوهي حماية لأرض أو صيانة لدين أو عرض، فهي في جميع الحالات تمثل جزء حيا من ذاكرة الشعوب، وركنا من أركان تاريخ المجتمعات، لهذا غدا من واجبنا اليوم، أن نسائل مالدينا من مصادر[1] سبيلا إلى الشروع في وضع تصور أولي لكتابة تاريخ المقاومة الموريتانية في سياق رؤية علمية متوازنة لا تسعى لتمجيد الذات واستجداء البطولة، ولكنها في المقابل لا تتجاهل الواقع ولا تتنكر للوقائع، ولا تحمل المرحلة المدروسة أكثر مما تتحمل، ولا تحاكمها بإسقاط وتوطين تجارب الآخرين[2] تعسفا.

وفي هذا السياق يمكننا أن نجمل أهم الصعوبات التي تعترض البحث في هذا المجال في مايلي:

الاختلاف بين الباحثين المعاصرين في تحديد مفهوم المقاومة ومدى انطباقه على التجربة الموريتانية في غياب سلطان موحد ومجال واضح ومحدد.

كون الوقائع التاريخية المتعلقة بالمقاومة الموريتانية لم تحصر لحد اليوم في الزمان ولا في المكان3.

غياب الوثيقة المحايدة بحكم العزلة وقسوة الظروف وطبيعة المعارك التي كانت تجرى في أعماق الصحراء وفي الجبال والوديان عبر البلاد4.

انقسام المرجعيات الصوفية في المجتمع الموريتاني بشأن الموقف من النازلة الاستعمارية وأثر ذلك في صياغة المواقف وتدوين الوقائع5.

يحظيه ولد الطالب علي، البنية القبلية ومفهوم السلطة في المجتمع البيظاني، رسالة متريز، كلية الآداب، جامعة نواكشوط، 1988

1Burdeau GeorgesLes Institutions de La 5e République, Paris, 1959 .

-Constant, Hames, L Evolution des Emirats Maures Sous L'influence du caputalisme marchand européen, In Pro diction Pastoral et Société, ComberdgeUniversity - Press, 1979 .

- Dechassey, F. Ethnies et impérialisme dans la genèse des Nations des classes et des Etats en Afrique (H. S) No. 545-546, Juillet-Decembere, Paris, 1977 .

- Mauritanie 1900-1975, L'Harmattan, Paris, 1984 ._ François Beslay, Les R'Guebats de la Paix Française au Front Polisario, L' Harmattan, Paris, 1984 .

- Gillier, L. La Pénétration en Mauritanie, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1926.

- Randeau, Robert Arnaud, Les explorateurs, Roman de la grand Brousse, Paris, 1909 .

- Général Edouard Berthomé Méhariste En Mauritanie 1907- 1913 SEHS Paris 1967.

3- يتعلق الأمر هنا بتجارب المقاومة في بلدان لها تقاليد راسخة في الحكم كما هو حال المقاومة في الريف المغربي والسوري وثورة العشرين في العراق.

4- لعدم وجود مؤسسات بحث متخصصة، وفي واقع يفترض فيه وجود شيعة وعدو طبقا للمزاج القبلي.

5- هناك صعوبة كبيرة في تغطية أحداث الصحراء، في ظل واقع الاحتلال والعزلة وقسوة الطبيعة

5 - يراجع: ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل، هداية من حار في أمر النصارى، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط ، (د. ت)؛ بابه ولد الشيخ سيديا، فتوى موجهة إلى المناطق الموريتانية بشأن الوجود

1) الاعتماد المفرط على الوثائق الفرنسية، غير المحايدة بالضرورة، التي اختفى منها الكثير، وتعذر الحصول على نسخها الأصلية في الغالب.

2) - الطبيعة الانتقائية للمعلومة التاريخية وتداولها بشكل مختلف بل ومتناقض في الفضاءات القبلية المتعددة بحثا عن الشهرة للأقربين وأهل الولاء، أوسعيا للتشهير بالخصوم والأعداء1.

3) ضعف الذاكرة الوطنية و تدني مستوى الوعي التاريخي بقيمة الرموز والثوابت المشتركة في العقود الأولى للاستقلال.

4) ضمور تاريخ المقاومة الوطنية في المقررات المنهجية في جميع مراحل التعليم النظامي، وتغييبه بشكل كامل في مدونات حركات التحرر العربية والإفريقية المعاصرة.

المقاومة الموريتانية خلال القرن التاسع عشر

شهدت الحدود الجنوبية الغربية للبلاد المصاقبة للديار السنغالية حروبا استباقية للوجود الفرنسي في المنطقة تحت لواء أميري الترارزة أعمر ولد المختار(1800-1829) وابنه محمد لحبيب (1829-1860)، وبني عمومتهم أمراء البراكنة، الذين حققوا انتصارات معروفة خلدتها المدونات المحلية والأوربية،وتمكنا من عرقلة الزحف الفرنسي في اتجاه موريتانيا قبل أن تبدأ الموازين الحربية في الميل لصالح الفرنسيين، الذين بدأوا يخططون لوضع اليد على الإقليم الموريتاني مما أثار مخاوف بعض النخب العالمة التي استشعرت خطر الغزو النصراني الجاثم على الثغور وطالبت بالتصدي له برص الصفوف والاستنفار والحرب الاقتصادية إن اقتضت الضرورة[2].

و شكلت حركة الحاج عمر الفوتي الجهادية، إحدى تجليات الإرادة الجماعية لسكان المنطقة الرافضة للاحتلال الأجنبي، والمتمسكة في المقابل بالثوابت الدينية، حيث دشن هذا المجاهد الكبير أولى المحاولات الرامية إلى حماية الثغور الإسلامية في منطقة فوته، مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال شن سلسلة هجمات، مهد لها بحملة لاكتتاب المجاهدين الذين وصل عددهم في بعض الأحيان إلى 30000 ألف مجاهد[9].

الفرنسي في البلاد، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1903 ؛ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل، النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، (د. ت)؛ حامد ولد محفوظ ولد ببكر سيري، القادرية في موريتانيا بين الرفض والقبول 1900-1984، رسالة متريز ، جامعة نواكشوط، 1985 ؛

فاطمة بنت الامام، المقاومة الدينية من خلال المحاظر، رسالة متريز، جامعة نواكشوط، 1989؛

بابه ولد الشيخ سيديا، امارتا ادوعيشومشظوف، تحقيق إزيدبيه ولد محمد محمود، نواكشوط، 1992 .

1التشيع للجهة والقبيلة واستحضار العداوات والحروب القبلية ومسلسل التحالفات والتناحرات.

2 تراجع نصوص أجدود ولد أكتوشني والشيخ سيد محمد ولد الشيخ سيديا وأبناء مايابا في الخليل التحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987.

ونظرا لتعاظم قوته في المنطقة، وانتشار التيار المناوئ للاستعمار، سعى الفرنسيون إلى تشييد المراكز العسكرية على طول الضفة اليمنى، لحماية المناطق الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، من هجمات مريدي هذا المجاهد[1].

وقد تزامن هذا الإجراء مع بناء قلعة مادينا من طرف الفرنسيين، في مسعى لإيجاد موطئ قدم على الضفة اليمنى للنهر، لكن ذلك لم يمنع الحاج عمر من المضي في تنفيذ خططه الجهادية، حيث هاجم محطة مدينة خوسو المحصنة سنة 1857، بجيش قوامه ستة آلاف رجل، لكن الفارق الكبير في ميزان القوى بين الحاج عمر والفرنسيين، خاصة في مجال التسليح أدى في النهاية إلى ميل هذا الميزان لصالح الجنرال فيديرب[2]، وهو ما أدى به إلى أن يفقد الكثير من الرجال في هذه المعركة غير المتكافئة[3].

وفي 14 ابريل هاجم سابوسري واتخذها مقرا لعملياته ضد الفرنسيين، وفي 20 أبريل سار إلى مادينا في جيش قوامه 15000 مقاتل وحاصرها، وكانت حاميتها يوم ذاك تضم 64 رجلا بقيادة بول هود الذي استطاع إرسال أحد رجاله ليخبر القيادة الفرنسية في باكل عن الوضع في مادينا، وحينها صدرت أوامر لسفينة حربية بالتحرك نحو مكان العمليات العسكرية، لكنها ما لبثت أن تحطمت على إحدى الصخور، ومنع الحاج رجالها من الوصول إلى القلعة المحاصرة.

وفي أوائل يونيو قرر فيدرب أن يقود بنفسه حملة لإنقاذ حامية مادينا، ووصل إلى حطام السفينة لكن جنودها كانوا ماتوا إثر إصابتهم بالحمى .

وفي 18 يوليو وصل مادينا واستطاع فك الحصار عنها. وكان ذالك النجاح سببا في توقف الحاج عمر عن الجهاد لمدة سنتين[4].

هاجم الحاج عمر الفوتي المركز الفرنسي في ماتم عام 1859، و كان يومها تحت قيادة بول هود، الذي أصاب قوات الحاج عمر بخسائر كبيرة قدرت بنصف جيشيه، وبعد هذه النكسة انسحب إلى جيومو التي تبعد 40 كلم عن باكل، ومن هناك بدأ يعرقل التجارة الفرنسية على

---

1 محمد سعيد ولد همدي ـ موريتانيا في مواجهة عبر القرون مع أوربا ـ مؤلف تحت الطبع.

2 هو الجنرال فيدرب 1818-1889)، يعتبر من أكثر الضباط الفرنسيين اهتماما بنشر الاستعمار الفرنسي في منطقة السينغامبيا وفي الصحراء الكبرى، بعد أن بدأ خدمته بالجزائر 1842-1847, 1849-1852)، حول إلى السينغال سنة 1952، ليعين حاكما فرنسيا على السينغال بين سنتي 1854-1861 للمرة الأولى، وبين سنتي -1865 1863 للمرة الثانية. وفي نطاق مساعيه لنشر السيطرة الفرنسية، اشرف هذا الوالي على العديد من البعثات الكشفية إلى المنطقة وتصارع مع السكان المحليين.

يراجع بهذا الخصوص: وثائق من التاريخ الموريتاني(نصوص غير منشورة)، مرجع سابق، ص107

3الحسين ولد محنض:تاريخ موريتانيا الحديث (من دولة الإمام ناصر الدين إلى مقدم الإستعمار) الجزء الثاني،دار الفكر،2010،ص 289

4عبد الله عبد الرزاق:مرجع سبق ذكره، ص ص92-93

طول نهر السنغال، لهذا قرر فيدرب الهجوم على الحاج عمر، وعهد بتدمير الحصن لبعثة استكشافية بقيادة الضابط فارون، الذي هاجم الحصن يوم 25 أكتوبر واستولى عليه، وكان الحاج عمر قد غادر الحصن المذكور قبل الهجوم بفترة وجيزة[1].

وآل الأمر بالمجاهد الكبير الذي أنهكه القتال ضد ماسينا والزاوية الكنتية، إلى توقيع معاهدة مع فرنسا سنة 1860 تنازل بمقتضاها للفرنسيين عن بعض المناطق مع الالتزام باحترام حرية التجارة[2].

وفي سنة 1881 انتزع بريير دي ليل (Brière de l'Isle) حاكم السنغال من الإمام سيري بابا لي الاعتراف بضم فوته بكاملها للضفة اليسرى لنهر السنغال[3].

ومثلت تجربة المجاهد ممادو لامين درامي صفحة مشرفة من تاريخ المقاومة في الضفة وأحواز فوتا، ولاشك أنه استلهم من التاريخ البطولي لسلفه الحاج عمر الذي التقى به أول مرة في بكل سنة 1849 ويومها لم يكن درامي قد تجاوز السابعة من عمره.

كان درامي عالما ورعا، تبنى فكرة الجهاد وقرر مواجهة الوثنيين والفرنسيين على حد سواء، فخاض في سبيل ذلك مسيرة جهادية لم تتجاوز السنتين، لكنها كانت حافلة، حيث بدأت بنصر كاسح على الفرنسيين في **معركة كونكل يوم 14 مارس سنة 1886**[4]، وقد أحيا هذا النصر الكاسح مجددا فكرة الجهاد والكفاح ضد الفرنسيين، فاجتمعت الآلاف على هذا المجاهد طلبا للشهادة.

وقد خاض درامي العديد من المعارك ضد الفرنسيين، كانت أشهرها وآخرها معركة **توبا كوتا** التي تمكنت القوات الفرنسية خلالها من إلحاق الهزيمة بقواته واستشهد في ميدان الشرف يوم 11 دجمبر 1887.

وقد ذكر بول مارتي أن التعبئة كانت على أشدها بين سكان منطقة كيدي ماغه، حيث شارك كل من يسمح له عمره بحمل السلاح في المعارك إلى جانب المجاهد درامي، ويقدرا لأستاذ الدكتور محمد المحجوب بن بيه استنادا إلى تقارير الجنرال فيدرب عدد القتلى جراء تلك المعارك بين الطرفين بثلاثة آلاف بين شهيد وقتيل.

وبعد مرور ثلاث سنوات على استشهاد المجاهد ممادولامين درامي، استطاع الفرنسيون تثبيت رأس جسر للعبور إلى الضفة اليمنى للنهر، من خلال بناء مركز كيهيدي العسكري سنة 1890 غير أن جذوة المقاومة في الضفة لم تخمد رغم ما تعرض له أهلها من قتل وتنكيل.

1المرجع نفسه، ص ص 91-94.
2 محمد سعيد ولد همدي ـ مرجع سابق
3 المرجع نفسه.
4 ـ د. محمد المحجوب ولد محمد المختار ولد بيه، مجلة "أخبار الجيش"، مرجع سابق

فقد قاد المجاهد عبدول ببكر كان المقاومة في كيهيدي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بدعم ومباركة من الأمير بكار،وظل يقارع الفرنسيين إلى أن سقط شهيدا في احسي التمات، وقد شهدت سيلبابي وأحوازها أشكالا من العمل العسكري المنظم قادها كل من المجاهدين إبراهيم جانكو وفودي جاكيلي، وقد عمدا في العشرية الأولى من القرن العشرين إلى تسميم الآبار التي يستخدمها جيش الاحتلال الفرنسي.

المقاومة الموريتانية خلال القرن العشرين

مع مطالع القرن العشرين، وفي ضوء متغيرات جديدة، احتدم الجدال الفقهي بين قادة الرأي من كبار العلماء والمتصوفة بشأن الموقف الشرعي من وجود الفرنسيين في البلاد، فرأى البعض أنه ضرورة لأمن البلاد وصون لدماء العباد ومصلحة عليا من مصالح المسلمين، وإلى ذلك ذهب الشيخان باب ولد الشيخ سيديا وسعد بوه بن الشيخ محمد فاضل وغيرهما من قادرية القبول[1].

وفي مواجهة هذا التيار برزت رؤية أخرى نظر لها وتزعمها الشيخ ماء العينين وأبناء مايابا والشيخ سيد المختار ولد أحمد الهادي والشيخ عبد الجليل ولد الشيخ القاضي وابن حبت وغيرهم ودعت إلى الجهاد أو الهجرة ومثلت المرجع الفكري للمقاومة، ثم تعززت لاحقا بتجربة الشيخ أحمد حماه الله وخطه الجهادي المعلن[2].

والواقع أن المقاومة العسكرية في مناطق الجنوب الغربي الموريتاني لا سيما في أراضي إمارتي الترارزة والبراكنة مطلع القرن العشرين ، لم تكن في مستوى الحدث الاستعماري وكانت إسهاماتها محدودة، ويرجع ذلك إلى جملة من العوامل الذاتية والموضوعية من أهمها التأثير الكبير لبعض شيوخ الطريقة القادرية الذين أعلنوا منذ البداية مساندتهم لفرنسا، والذين أفتوا بجواز بل بوجوب التعاون معها، بغية تحقيق الأمن، وضمان العدالة، على حد رأيهم، وكان طبيعيا أن تجد فتاويهم "المسالمة" صداها

ينظر الهامش السادس1

2Traoré Alione, Contribution a L'Etude de L'Islam, Le mouvement Tijani de Cheikh Hammahou-LLah, Thèse de 3e Cycle, Dakar, 1975 .

في تلك الربوع لاسيما أن معظم السكان واقعون تحت تأثير الطريقة القادرية ويدين أكثرهم بالولاء لهؤلاء الشيوخ.

والعامل الثاني هو تراجع قوة إمارتي الترارزة والبراكنة، اللتين كانتا تعيشان منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر أزمة داخلية متمثلة في الركود الاقتصادي والتفكك السياسي، والصراع على السلطة، وبحلول القرن العشرين كانتا قد بلغتا من الوهن وهشاشة النظام ما أفسح المجال أمام الفرنسيين للتدخل في شؤونهما الداخلية تمهيدا لاحتلالهما[1].

ولبلوغ ذلك الهدف سعوا إلى تشجيع المنافسة على كرسي الإمارة وعمليات الغدر والاغتيالات، وكانوا يناصرون القاتل والمقتول في الوقت نفسه، فعمت الفوضى، وشاع النهب والسلب في تينك الإمارتين، مما أضر بالسكان وساعد الفرنسيين على تمرير مخططهم الاستعماري "السلمي" كما كانوا يصفونه؟.

وإلى جانب هذين العاملين تضاف طبيعة تضاريس المنطقة المكشوفة مما يجعل المواجهة العسكرية فيها أمرا صعبا للغاية، ومحفوفا بالمخاطر، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تواضع الإمكانات العسكرية لدى السكان مقابل معسكر الفرنسيين الذي كان يتحرك وفق ضوابط عسكرية محكمة الدقة والتنظيم، والذي كان هدفه القضاء على أية مقاومة مفترضة.

والواقع أن كبولاني، على الرغم من نجاح تخميناته في العديد من المرات لم يتمكن من احتلال تكانت إلا بعد مجهود حربي كبير وخسارة مادية وبشرية موجعة، بل إنه راح ضحية سوء تقديراته، ففي تكانت ذات الجبال والمسالك الوعرة، ترابط قبائل إدوعيش المحاربة وحلفاؤها من قادة قبائل البراكنة والترارزة الرافضين للوجود الفرنسي، والقيادة السياسية هناك ممثلة في شخص الأمير بكار بن أسويد أحمد المعروف بعدائه الشديد للفرنسيين، هذا فضلا عن التأثير القوي للعلماء والمتصوفة الرافضين للوجود الفرنسي من أمثال أبناء مايابا[2]، وهذه العوامل مجتمعة وفرت الأسس الموضوعية لاندلاع مقاومة مسلحة قوية ارتبط نشاطها بحماس ديني كبير، وأثبتت كفاءتها في العديد من المواقع باعتراف الفرنسيين أنفسهم.

ويمكن أن نقسم تاريخ المقاومة المسلحة خلال الثلث الأول من القرن العشرين، إجرائيا، إلى ثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: من سنة 1903 إلى 1905 وكان مسرحها ببلاد الترارزة والبراكنة وتكانت وأرقيبة، **ومن أهم معاركها:**

1Gnokane Adema, La Politique française sur La Rive Droite du senegal, Le pays maure (1817-1903), Thèse Doctorat 3e Cycle, Sorbonne, 1987.

- Topet, Charles, Sédentarisation des Nomades en Mauritanie Sahélienne, Thèse de Doctorat d' Etat en lettre, Paris VII, Dakar, 1975

ويراجع عمل الدكتور محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقاتها مع الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط .2001

2 - الدكتور إزيدبيه ولد محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية ، 2001.

- ✓ معركة أخروفه في 07 يونيو 1903 بقيادة مشتركة
- ✓ معركة سهوت الماء في 22 يونيو 1903 بقيادة المختار أم ولد الحيدب
- ✓ معركة ألاك في 18 دجمبر 1903 بقيادة الأمير أحمدو ولد سيد علي
- ✓ معركة أكويبنات في 08 دجمبر 1903 بقيادة ا الأمير أحمدو ولد سيد علي
- ✓ معركة مال في 28 دجمبر 1903 بقيادة الأمير عثمان ولد بكار
- ✓ معركة ميت في 17 فبراير 1904بقيادة الأمير عثمان ولد بكار
- ✓ معركة كوصاص في 05 مارس 1904 بقيادة الأمير بكار ولد اسويد أحمد
- ✓ معركة التاكلالت في 12 مارس 1904 بقيادة أعلي ولد المراكشي
- ✓ معركة دركل في 25 فبراير1905بقيادة أحمد محمود ولد بكار
- ✓ معركة أمبود في 15 فبراير1905 بقيادةمحمد ولد عثمان ولد بكار
- ✓ معركة تنشيبه في 10 مارس1905بقيادة الأمير عثمان ولد بكار
- ✓ **معركة بوكادوم في 01 إبريل 1905 بقيادة الأمير بكار ولد اسويد أحمد**
- ✓ معركة تجكجة في 12 مايو 1905 بقيادة الشريف سيدي ولد مولاي الزين
- ✓ معركة جنوب تجكجة في 18 مايو 1905 بقيادة الأمير سيد أحمد ولد عيده
- ✓ معركة أشاريم في 03 يونيو 1905[1] بقيادة مشتركة

وقد جربت المقاومة في هذه المرحلة أسلوب الكمائن والغارات الخاطفة وأغلب أساليب حرب العصابات، وكانت معاركها متقطعة، وشارك فيها محاربون من خارج مجالهم، وكانت خسائرها نوعية حيث استشهد من القادة الأمير بكار ولد أسويد أحمد في غرة إبريل سنة 1905، والشريف سيدي ولد مولاي الزين في 12 مايو 1905، و قتل كبولاني[2] في تجكجة مساء الثاني عشر مايو 1905.

المصدر: الرائد س م ح

المرحلة الثانية: من سنة 1905 إلى 1912، وقد جرت أغلب عملياتها في تكانت وآدراروأكجوجت وكيدماغا ولبراكنة وآفله و تيرس ونواذيبو،وتميزت بتحفز القبائل للقتال بعد مقتل كبولاني و بتنامي العمل العسكري، ولا سيما بعد حصار تجكجة، وظهور قيادة جديدة ممثلة في الشريف مولاي إدريس، إضافة إلى طبيعة الميدان الملائم لحرب العصابات، وبعد المنطقة من دائرة التأثير المباشر لقادرية القبول.

1V A G Dufour , L'histoire des Opérations Militaire en Mauritanie, CEHS, Paris, 1997 ,
2Randeau, Robert Arnaud, Les explorateurs, Roman de la grand Brousse, Paris, 1909 ;
-_Frere jean , La Région des Idewich Essai Historique Sommaire, Paris, 1911

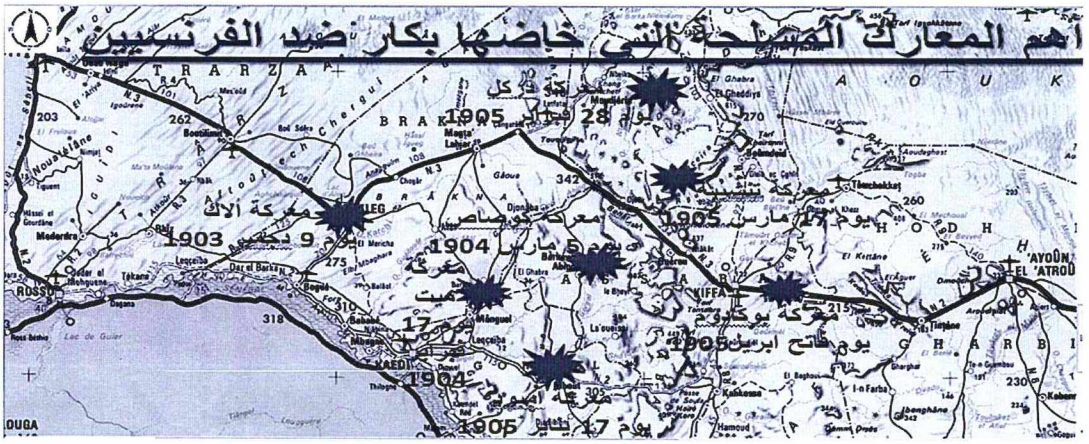

ومن أشهر معارك هذه المرحلة[1]:

- ✓ معركة النيملان في 25 أكتوبر 1906 بقيادة الشريف مولاي إدريس بن عبد الرحمن؛

1) معركة نوا ملين في 30 أكتوبر 1906 بقيادة قبلية مشتركة؛
2) معركة أعكيلة النعجة في 10 نفمبر 1906 بقيادة اجاه ولد الحزام ولد معيوف؛
3) حصار تجككجة من 6 إلى 30 نوفمبر 1906 بقيادة الشريف مولاي إدريس بن عبد الرحمن؛
4) معركة كيديماغا في 15 نفمبر 1906 بقيادة المجاهد فودي جاكيلي؛
5) معركة كندلك في 15 فبراير 1907 بقيادة الأمير سيد اعلى الملقب ولد عساس؛
6) معركة سرك في 26 فبراير 1907 بقيادة الأمير سيد أعلى الملقب ولد عساس؛
7) معركة اتويزكت في 01 إبريل 1907 بقيادة مشتركة؛
8) معركة أحواز بتلميت في 03 يوليو 1907 بقيادة الأمير أحمد ولد الديد؛
9) معركة أبيار بوكطاره في 04 يوليو 1907 بقيادة مشتركة؛
10) معركة أكنى أم لبحير في سبتمبر 1907 بقيادة مشتركة؛
11) معركة أم لعويتكات في 19 يناير 1908 بقيادة أجاه ولد المعيوف؛
12) معركة اللبة في 10 فبراير 1908 بقيادة مشتركة؛
13) معركة أكرارت لفرص في 01 مارس 1908بقيادة الشيخ حسنه ولد الشيخ ماء العينين؛
14) معركة أعكيلة الركبة في 16 مارس 1908بقيادة الشيخ حسنه ولد الشيخ ماء العينين ؛
15) معركة يغرف 20 مارس 1908 بقيادة الأمير سيد أحمد ولد عيده؛
16) معركة أبيار دمان في 17 إبريل 1908بقيادة الشيخ سيد محمد ولد حامني؛

---

1 - محمد المختار سيد محمد الهادي، النضال الوطني في موريتانيا 1903-1960، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1997 .
الشيخ الطالب أخبار ولد مامين، الشيخ ماء العينين أمراء وعلماء في مواجهة الاستعمار، مؤسسة أمربيه ربه لاحياء التراث، المغرب، 2001.

17) معركةالعزلات في 04 يونيو 1908بقياد الأمير أحمد ولد الديد؛
18) معركة المينان في 13 يونيو 1908 بقيادة الشيخ سيد محمد ولد حامني؛ والل مولاي الزين
19) معركة تالمست في 14 يونيو 1908 بقيادة مشتركة؛
20) معركة برجيمات في 24 يوليو 1908 بقيادة مشتركة؛
21) معركة الرشيد في 15 أغشت 1908 بقيادة محمد المختار ولد الحامد؛
22) معركة أتويزكت الثانية في 19 سبتمبر 1908 بقيادة مشتركة؛
23) معركة لتفتار في 15 أكتوبر 1908 بقيادة سيد محمد ولد حامني؛
24) معركة شكار في 24 أكتوبر 1908 بقيادة مشتركة؛
25) معركة لكويشيشي في 28 نفمبر 1908 بقيادة الأمير أحمد ولد الديد؛
26) معركة شمط في 25 دجمبر 1908 بقيادة يبه ولد زيدان ولد مولاي الزين؛
27) معركة تيفوجار في 26 دجمبر 1908 بقياد الأمير سيد أحمد ولد أحمد عيده؛
28) معركة آزويكة في 28 دجمبر 1908 بقياد الأمير سيد أحمد ولد أحمد عيده؛
29) معركة حمدون في 30 دجمبر 1908 بقيادة المجاهد الشيخ حسنه ولد الشيخ ماء العينين؛
30) معركة أماتيل 30 دجمبر 1908 بقيادة المجاهد الشيخ حسنه ولد الشيخ ماء العينين؛
31) معركة واد سكليل في 08 يناير 1909 بقيادة الامير المجاهد سيد أحمد ولد عيده؛
32) معركة البيظ في 11 مارس 1909 بقيادة سيدي ولد الغوث؛
33) معركة اللبة الثانية في 01 إبريل 1909 بقيادة مشتركة؛
34) معركة آغسرميت في 28 إبريل 1909 بقيادة الشيخ محمد المامون؛
35) معركة أعكيلت النعجة الثانية في 30 مايو 1909 بقيادة الشيخ حسنه ولد الشيح ماء العينين؛
36) معركة المجرية في 03 يونيو 1909 بقيادة أحمد ولد الشيخ؛
37) معركة أوجفت في 08 يوليو 1909 بقيادة مشتركة؛
38) معركة أكصير الطرشان في 28 يوليو 1909 بقيادة الشيخ الولي ولد الشيخ ماء العينين؛

39) معركة وادان في 31 يوليو 1909 بقيادة أعل ولد مياره؛
40) معركة آغماكو في 07 أغشت 1909 بقيادة سيد أحمد ولد تكدي؛
41) معركة تورين في 15 أغشت 1909 بقيادة الأمير سيد أحمد ولد عيده؛
42) معركة تيجريت في 01 مارس 1910 بقيادة مشتركة؛
43) معركة حاس العركوب في 13 يونيو 1910 بقيادة مشتركة؛
44) معركة أجار لعصابة في 02 مايو 1911 بقيادة سيد ولد الغوث؛
45) معركة اجحافية في 12 مايو 1911 بقيادة محمد محمود ولد سيد لكحل؛
46) معركة أفام لخذيرات في20 مايو 1911 بقيادة أحمد سالم ولد احجور؛
47) معركة تشيت في 13 يناير 1912 بقيادة الأمير سيد أحمد ولد أحمد عيده؛
48) معركة ولاتة في 27 يناير 1912 بقيادة محمد محمود ولد سيد لكحل؛
49) معركة أجار في 21 أكتوبر 1912 بقيادة مشتركة؛

مخطط معركة النيملان

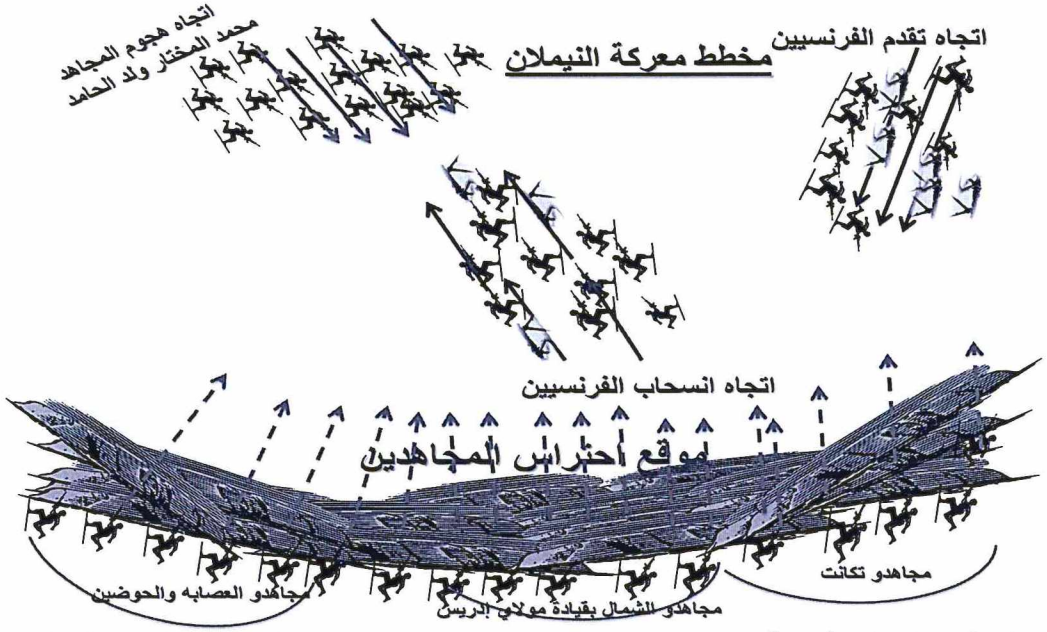

على أن مكاتبة الأمير أحمد ولد الديد في 18 دجمبر 1908، وقبول محمد ولد الخليل للحماية الفرنسية في 22 سبتمبر 1909 ووفاة الشيخ ماء العينين في 18 أكتوبر 1910، وأسر أمير آدرار في 13 يناير 1912.قد أثرت سلبا على أداء المقاومة[1]. نظرا للدور القيادي لهذه الشخصيات ومكانتها السامقة في التاريخ الاجتماعي و العسكري للمنطقة.

1Capitaine d OTTON LOYWSKI Rezzous Sur L'Adrar AOF Histoire Africaine

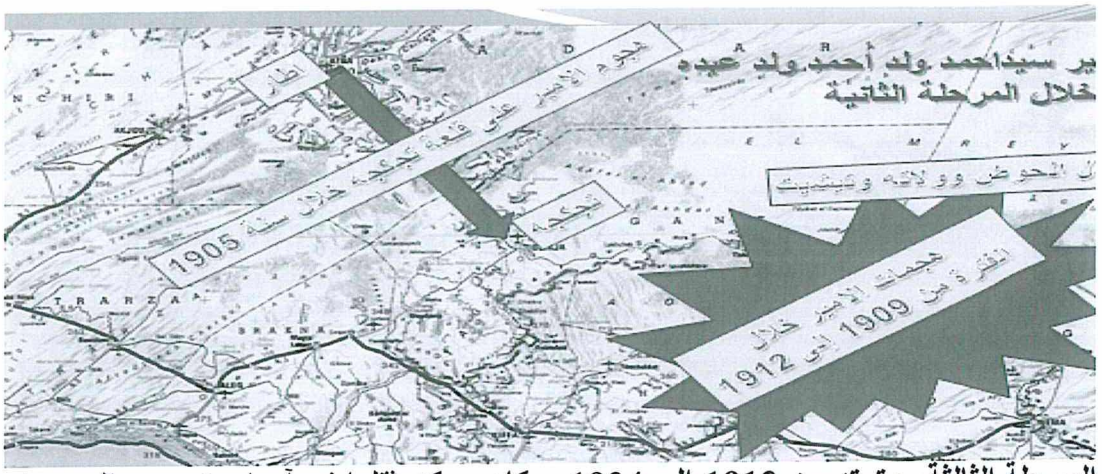

المرحلة الثالثة: وتمتد من 1913 إلى 1934، وكان مركز ثقلها في آدراروتيرس والصحراء الغربية وبعض أحواز الحوض، وكان لأبناء ومريدي الشيخ ماء العينين وأمير آدرار سيد أحمد ولد عيده ولأغلب قبائل آدرار والساحل الدور الأكبر فيها.غير أن بعض أحداث المرحلة قد أربك المقاومة وحد من فاعليتها في مراحل مختلفة من ذلك مثلا محاولة الشيخ الهيبة تنصيب نفسه سلطانا في المغرب في 06 مايو 1912 ومعاركه مع الفرنسيين في الشمال، إضافة إلى أزمة القيادة في إمارة آدرار، وإكراهات انتجاع القبائل، وظروف الحرب العالمية الأولى، وتشديد الرقابة على استيراد الأسلحة، وانتشار مرض الحمى الصفراء في العديد من المناطق الموريتانية.

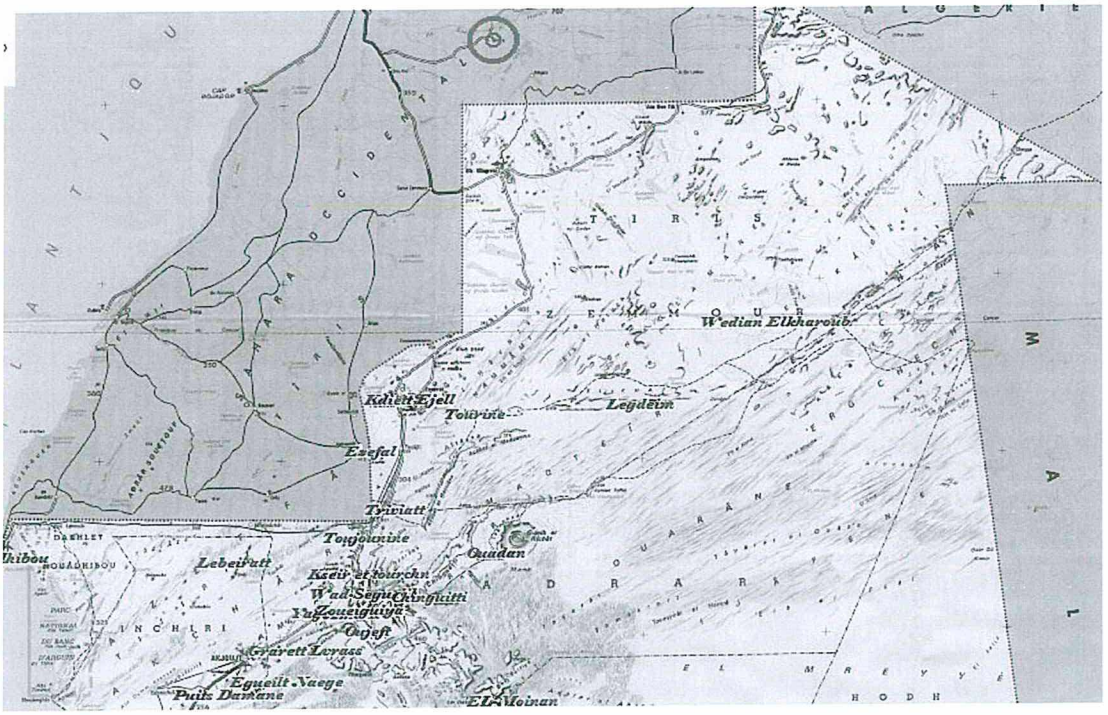

ومن أهم معارك هذه المرحلة[1]:

- ✓ معركة لبيرات في 10 يناير 1913 بقيادة محمد ولد الخليل ولد اعل ولد ادخيل؛
- ✓ معركة لكليب لخظر في 09 مارس 1913 بقيادة أحمد ولد حمادي؛
- ✓ معركة واد التكليات في 10 مارس 1913 بقيادة أحمد ولد حمادي؛
- ✓ معركة أعكيلةالنمادي في 30 يوليو 1913 بقيادة أعلي ولد مياره؛
- ✓ معركة بوتليس في 18 سبتمبر 1913 بقيادة أعلي ولد مياره؛
- ✓ معركة الكدية في 12 يناير 1916 بقيادة محمد ولد عبدوك؛
- ✓ معركة شلخت أصنادره في 20 فبراير 1917 بقيادة الشيخ ولد عبدوك؛
- ✓ معركة لخويبه في 10 مارس 1917 بقيادة الشيخ ولد عبدوك؛
- ✓ معركة لكويسي في 15 مارس 1917 بقيادة الشيخ ولد عبدوك؛
- ✓ معركة لمزرب في 23 دجمبر 1920 بقيادة مشتركة؛
- ✓ معركة آغوينيت في غرة يناير 1923 بقيادة مشتركة؛
- ✓ معركة انواذيبو الثانية في 03 مارس 1923 بقيادة وجاهه ولد اعل الشيخ؛
- ✓ معركة كدية الجل في05 إبريل 1923 بقيادة وجاهه ولد اعل الشيخ؛
- ✓ معركة أجريف في 20 إبريل 1923 بقيادة وجاهه ولد اعل الشيخ؛
- ✓ معركة بوكرن في 05 مايو 1924 بقيادة وجاهه ولد اعل الشيخ؛
- ✓ معركة لقديم في 12 مايو 1924 بقيادة ولد كركوب؛
- ✓ معركة شنقيط في 20 مايو 1925 بقيادة الشيخ ماميني ولد سيداتي وإسماعيل ولد الباردي؛
- ✓ معركة أطريفية في 25 يونيو 1925 بقيادة محمد عبدالله ولد عبد الوهاب؛
- ✓ معركة توجنين في 06 سبتمبر 1932 بقيادة الشيخ محمد المامون ولد اعل الشيخ؛
- ✓ معركة وديان الخروب في 19 مارس 1932 بقياد الأمير سيد أحمد ولد عيده؛
- ✓ معركة أم التونسي في 18 أغشت 1932 بقيادة إبراهيم السالم ولد أميشان،وسيد لعروسي؛
- ✓ معركة ميجيك في 31 يناير 1933 بقيادة اعلي ولد مياره؛

1V A G Dufour , L'histoire des Opérations Militaire en Mauritanie Op cit

ملاحظـــــات عامـــــة

واستنادا إلى العلامة الطالب اخيار ولد ماميا في موسوعته علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار،والدكتور محمد المختار ولد سيد محمد في كتابه الموسوم" النضال الوطني في موريتانيا،و مذكرات الجنرال غورو في آدرار، ومذكرات النقيب ديفور الموسومة: "تاريخ العمليات العسكرية في موريتانيا"، والرائد جيليي في كتابه عن" التوغل الفرنسي في موريتانيا"، والجنرال برتومي في كتابه: "جمالة في موريتانيا " وغيرهم من مصادر تلك المرحلة فإن هناك شبه تواتر على:

- ✓ الحضور القوي للخط الجهادي كعقيدة عسكرية في أغلب مراحل المقاومة في المجال الموريتاني وفي المناطق المحاذية له من بلاد فوته و أزواد والصحراء الغربية، حيث كان لدى المجاهدين الدافع المعنوي للاستمرار في خوض الحرب، المستمد من حقيقة أنهم يقاتلون فوق أرضهم، دفاعا عن دينهم وشرفهم وأعراضهم ومرابعهم ، بينما لا يوجد ما يؤلف بين قلوب أفراد الجيش الفرنسي، فهم في الغالب مجندون بالإكراه ، أو متعاونون بدافع الإغراء وهم من بلدان شتى لا تربطهم صلة من أي نوع، باستثناء خدمة مدفوعة الثمن ، ومحفوفة بالمخاطر؛
- ✓ الفارق الكبير في التسليح بين المقاومين وكتائب الجيش الفرنسي حيث أن فرق المقاومة تعتمد على بنادق تقليدية محلية الصنع من نوع "الكشام" (سبطانة واحدة) و"الطرش" (جعبتين) وفي أحسن الأحوال "أهل لفلك"،في حين كان أفراد الوحدات الفرنسية، سواء منهم المتعاونون أو الجنود النظاميون مزودين بالكامل، ببنادق سريعة الطلق، بالإضافة إلى سلاح الردع الفرنسي، الرشاش (**LaMitrailleuse**)، الذي ألحق خسائر كبيرة بالمقاومين لا سيما في الميادين المكشوفة؛
- ✓ شكل هذا الفارق النوعي الكبير في التسليح عاملا حاسما في المعارك بين الطرفين، رغم أن المجاهدين كانوا يعززون ترسانتهم من الأسلحة ذات الرمي السريع بعد كل معركة مع الفرنسيين، من خلال الاستيلاء على المزيد من هذه البنادق لاسيما في معارك تكانت وآدرار. وشكلت معرفة الميدان والحاضنات الشعبية ميزات نوعية للمجاهدين الذين أحسنوا توظيف الجغرافيا وشبكة الأمان التي أقامتها القبائل البدوية لتوفير التموين وتأمين المعلومات؛
- ✓ الوجود المكثف للعلماء والأمراء والقيادات العشائرية في مقدمة ركب المقاومة وفي أغلب معاركها في عموم التراب الموريتاني، غير أن ذلك لا يعني بالتأكيد غياب فئات المجتمع الأخرى التي ساهمت في هذا المجهود الوطني بحسب قابلياتها وطبيعة وظيفتها الاجتماعية من خلال التأطير الديني، وصناعة صنوف السلاح،ومن خلال تأمين الأقوات للمجاهدين، والمشاركة الميدانية في المعارك ومهام الاستطلاع والدلالة وسقاية المقاتلين ورعاية جمالهم وسياسة خيلهم، وقد شاركت النساء في المجهود الحربي من خلال تحريض المؤمنين على

القتال ونصب الخيام وإطعام الطعام وتضميد جروح المقاتلين؛

- ✓ الدور المحوري للشيخ ماء العينين وأبنائه ومريديه، والشريف سيد ولد مولاي الزين ورفاقه، وأمراء إدوعيش واشراتيت وأميرآدرار،و بعض أمراء التراوزة والبراكنة وبعض قبائل الرقيبه والحوض وتكانت وآدرار والساحل وسكان فوته، في قيادة وتأطير المجهود الحربي، وتأمين السلاح للمقاومين، وربط الصلات بين مجاميعهم وتوفير الملاذات الآمنة لهم في أوقات الحرب والسلم مما عزز من قدراتهم القتالية وساهم في رفع معنوياتهم وهم يخوضون معارك الكرامة دفاعا عن الأرض والعرض والمقدسات؛
- ✓ استمرت المقاومة الموريتانية عدة عقود ، وتعددت وتنوعت أساليبهاعلى امتداد المجال الموريتاني حيث اتخذت أشكالا مختلفة من الصولات المباغتة، والغارات الخاطفة، والكمائن المحكمة ،والالتحام المباشر، والحصار، وحرب الاستنزاف،والممانعة الاجتماعية، ورفض الخدمة العسكرية، والمقاطعة الثقافية، والحصار الاقتصادي، وتسميم الآبار، والهجرات الفردية والجماعية من البلاد التي غلب عليها النصارى؛
- ✓ المستوى النوعي لمعارك المقاومة الموريتانية التي تجاوزت المائة، واستشهد فيها نصف أمراء البلاد يومها، وأهم قادتها العشائريين والمئات من المجاهدين، غير أن خسائر الفرنسيين كانت كبيرة فقد قتل قائد جيش الاحتلال ومنظر المشروع الاستعماري كبولاني مع عشرات من قادته الميدانيين ومئات من جنوده كما حدث في ميت وبوكادوم وتجكجة والنيملان ولكويشيشي وتشيت ولبيرات والمينان وواد التكليات ووديان الخروب وأم التونسي وميجك وغيرها من أيام المقاومة التي أقر الفرنسيون على إثرها بخسارة أكثر من 700 جندي،وعدد ليوفيسكي واحدا وعشرين ضابطا فرنسيا قتلوا في مناطق آدرار والساحل وحدها في الفترة من 30 دجمبر 1908 إلى 14 مارس 1932 راجيا من الفرنسيين تخليدهم في سجل الأبطال[1].

وحتى لا تكون قراءتنا لتاريخ المقاومة منقحة ولا منتقاة لا بد من تأشير بعض مواطن الخلل في أداء القوم من قبيل:

- ✓ قلق الولاء حيث كان الانتقال من معسكر إلى آخر يتم بسهولة لافتة للنظر، في بعض الحالات، مما يسيئ إلى السمعة المشرفة للبعض[2]، وأحيانا يعيد الاعتبار للبعض من من كانوا في ركب الاحتلال[3]، وهذه الظاهرة الغريبة لم تكن إلا مظهرا من مظاهر الانتجاع في مجتمع مسكون بهاجس الرحيل، حتى في سياق المواقف المصيرية، ولعلها عيب خلقي مازال يلازمنا اليوم ويطوح بأغلبنا بين المولاة والمعارضة وبين اليسار واليمين بعد أكثر من خمسين سنة من الاستقلال.

1Capitaine d OTTON LOYWSKI OP CIT PP 107_ 108

2 - مثال ذلك ماحدث في معركة تيشيت وملابسات أسر الأمير سيد أحمد،وماجرى أثناء حملة العقيد موري واحتلاله لمدينة اصمارة.سنة 1916

3 مثال ذلك ماجرى في معركة النيملان سنة 1906

- ✓ ما تتضمنه الوثائق الفرنسية من إثباتات تتعلق بسعي بعض القيادات القبلية في المجتمع إلى القيام بدور المخبرين وحملة البريد غير المكتوب، لدرجة أحرجت بعض القادة الفرنسيين وحكام الدوائر، ولا سبيل إلى فصل الحديث عنها اليوم صونا لأعراض هؤلاء ، علما بأن مثل هذا السلوك يؤكد القاعدة التي تقول بأن الأوطان تسقط من الداخل قبل أن تستهدف من الخارج.
- ✓ ما يلاحظ من خلط مقصود بين فعل المقاومة المشرف، وبعض مظاهر النهب والسلب واستهداف بعض الخصوم التقليديين تحت طائلة التسويغ الديني لأطراف قطبي القبول والرفض وهي ظاهرة كثيرا ما لازمت الحروب على امتداد تاريخ البشرية ولسنا فيها بدعا من غيرنا.

وصفوة القول إن الموريتانيين على الرغم من ضعف الوسائل، وتواضع الإمكانات، وغياب قيادة موحدة وثابتة، ورغم قوة الخصم، وتأثير حلفائه المحليين، قد قاوموا الاحتلال الفرنسي بثبات وتفان، شهد به القادة العسكريون والكتاب الفرنسيون، فهذا الجنرال غورو يقول: "... **ليس باستطاعة من لم ير البيظان يقاتلون أن يدرك مدى بسالتهم... إنهم لا يملكون من السلاح إلا بنادقهم العتيقة، ورصاصها والخناجر، تراهم يختفون خلف أبسط حاجز يطلقون الرصاص، ويغيرون مواقعهم، تماما كما تفعل الوحوش**"[1]، ومن جانبه يقول دشاسي: "... **إنه إذا كانت فرنسا قد استطاعت إثبات حقوقها في هذه المنطقة (يعني موريتانيا) في مواجهة دول عظمى، خلال بضع سنوات، فإن فرض ذلك على هذا الشعب البدوي قد اقتضى ثلاثين سنة**"[2].

وعلى الجبهة الثقافية: مثلت مقاطعة المدرسة الاستعمارية، رغم ما انجر عنها من تبعات، سلاحا آخر من أسلحة المقاومة، ربما كان أصدق أنباء من السيف، فكانت المحظرة والزاوية والمسجد دروعا واقية وصمامات أمان للهوية العربية الإسلامية ولقيم المجتمع وموروثه الحضاري بكل مظاهره وتجلياته، ولعل مصداق هذا الحكم ما شهد به الحاكم الفرنسي العام في غرب إفريقيا في رسالة له إلى وزير المستعمرات يقول فيها" **لقد وجدنا أمامنا شعبا يملك ماضيا مليئا بالأمجاد والفتوح مازالت عالقة في أذهانه... ومن الخطإ أن نقارنه بالشعوب الأخرى ذات التقاليد الأضعف والشعور الوطني الخافت**"[3]وإلى ذلك أشار الإداري الفرنسي **Beyris** بيري في تقرير سري في 20 أغشت سنة 1937 حين قال في سياق لا يخلو من المبالغة: " **إنه لا يوجد مجتمع بدوي يبلغ مبلغ الموريتانيين في العلم بالعقيدة والأدب والفقه ... وإنهم ليتحدثون العربية الفصحى أحسن مما يتحدث بها سكان تونس والقاهرة... ولا تكاد تجد بينهم راعي إبل من أبسط الرعاة إلا ويترنم بالشعر الجاهلي**"[4].

وإلى ذلك ذهب الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لاحقا، حين وصف ساكنة هذه الربوع بعد عشرة عقود من

1Gaureaud Henry, Mauritanie Adrar, Souvenir D'un Africain, Paris, 1927

2 Dechassey, OP CIT P§

3 . A. N. M., Série E1, Dossier No. 8, Rapport Politique annuel sur la Mauritanie 1902.

4A. N. M., Série E1, Dossier No. 78 Rapport de Mr Beyris le 20 /08 1937 P5.

الاستعمار الثقافي ومحاولات المسخ الحضاري بقوله" **لقد كانت صورة الشناقطة وماتزال في البلاد العربية أنهم الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الإسلامية في نقائها وأصالتها، المدافعون عنها حفاظا عليها ونشرا لها وإشعاعا بها**"[1]

وختاما لهذا العرض الذي أردت له أن يكون إثارة للموضوع لا إثراءا له، فإنني أرى أنه من المناسب أن يتوجه تفكيرنا نحو:

- ✓ بناء ذاكرة وطنية تعتز بالرموز والثوابت الحضارية تعكسها المقررات المدرسية والجامعية، وتنال حيزا مهما في وسائل الإعلام الرسمية والحرة.
- ✓ العناية برجال المقاومة وتخليد مآثرهم ضمن رؤية وطنية تتجاوز المحابس القبلية والعرقية والجهوية ودروس المناقب، تأكيدا لمفهوم الدولة واحتراما لسيادتها، وترسيخا لقيم المواطنة والوعي المدني.
- ✓ - التفكير في إنشاء مؤسسة وطنية لتاريخ المقاومة يعهد إليها بجمع وتركيب ونقد هذا التاريخ، وتسند وصايتها لقطاع التعليم أوالثقافة، تناط بها مهمة بناء معرفة تاريخية جادة تنطلق من نقد ماتنتجه الذات عن نفسها وما ينتجه الآخر عنها.
- ✓ العناية بوثائق المقاومة باعتبارها ذاكرة أمة، وانتشالها من أيدي الإداريين، وإلحاقها بمؤسسات البحث العلمي، واسترجاع ماهو موجود منها في الأرشيفات الأجنبية.
- ✓ تعريب الكتب المصدرية المتعلقة بتاريخ الاستعمار والمقاومة، ونشر الأطروحات التي عالجت هذا الموضوع ليعم نفعها.
- ✓ تنسيق جهود المؤسسات المهتمة بحقل الدراسات التاريخية قسم التاريخ-مخبر الدراسات التاريخية- الجمعية التاريخية الموريتانية، جمعية التاريخ العسكري، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الوثائق الوطنية.
- ✓ تسهيل وصول الدارسين إلى مظان المصادر الوثائقية، واعتماد أساليب البحث الجماعي الذي تتضافر فيه جهود مختلف الاختصاصات المتجاورة والمترابطة.
- ✓ توسيع مدارك الأجيال الجديدة من الباحثين في ميدان التاريخ بتدريس اللغات وعلم التوثيق والآليات والضوابط العلمية الضرورية للكتابة التاريخية.
- ✓ تضمين هذه الحقبة الهامة من تاريخ موريتانيا في مدونات حركات التحرر العربية والإفريقية .

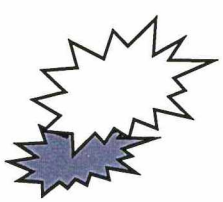

1 - محمد المختار سيد محمد الهادي، مرجع سبق ذكره، ص 215.

المقاربة الموريتانية في مواجهة التطرف

الأستاذ الدكتور: محمد إسحاق الكنتي

توطئة..

في البدء كان المال...

لعل أول خصام حصل بين المسلمين كان بسبب المال، ولم يكن بسبب الدين. ففي غزوة بدر اختلف الشيوخ والشباب حول حيازة الغنائم، فنزل القرآن لحل الإشكال.. "يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين" *(الأنفال:01)* وفي غزوة أحد ترك الرماة مواقعهم حين رأوا انكشاف المشركين وانشغال الناس بجمع الغنائم. فنزل القرآن معاتبا... "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة..."، فقال ابن مسعود ما كنت أظن أن فينا من يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية. وفي غزوة حنين تكلم بعض الأنصار في قسمة الغنائم واستئثار المؤلفة قلوبهم بالعطايا دون الأنصار حتى جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم واسترضاهم. ذاك بعض تعلق المؤمنين بالأموال طلبا لما عدوه حقوقا لهم دون أن يصل بهم الأمر حد الشقاق والشغب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل خضعوا لحكمه في تقسيم الغنائم، وطابت أنفسهم فاختاروا الله ورسوله على ما سواهما من متاع الدنيا. ويلاحظ أن تطلع المؤمنين إلى نصيبهم من المال العام قابله بذل سخي لأموالهم الخاصة في سبيل الله. فقد مدح الله الأنصار بالإيثار على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العسرة حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم."

لكن فئة أخرى من المنافقين كان المال محكا لكشف سرائرهم. فقد بخلوا بمالهم الخاص حين قالوا.. "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا". وسألوا الله المال وعاهدوه... "لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به..." وتاقت أنفسهم إلى الصدقات فرضوا وسخطوا حسب نصيبهم منها.. "ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون."، فكان أن قسم الله الصدقات في مصاريفها في محكم تنزيله.. "إنما الصدقات... "

لقد ظلت مواقف المنافقين من المال موارية تلمح إليه فتبخل به، وتتوق إليه. لكنها حين أرادت التصريح تجنبت ذكر المال فلبست مسوح الدين مظهرة الورع والتقوى بالاستئناف على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال قائلهم عند قسمة غنائم حنين:"هذه قسمة ما أريد بها وجه الله."، و"اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل."

هنا يظهر الفرق جليا بين المؤمنين والمنافقين في موقفهم من المال. فلم يطلب المؤمنون منه إلا نصيبا من المال العام، ورضوا سريعا بما قسم لهم منه قليلا أو كثيرا. بينما ظل اهتمام المنافقين منصبا على المال بخلا به، وطمعا في زيادته. لكن اللافت أنهم ظلوا يتحدثون

عنه تلميحا، حتى إذا صرحوا جعلوا حديثهم عن المال في قالب ديني يدعو ظاهره إلى العدل والتقوى، وهما دعامتا الدين؛ فالعدل هو الأساس الاجتماعي للدين إذ ينظم العلاقة بين الناس، والتقوى هي أساس العلاقة بين العبد وربه. وبذلك يظهر المنافق الطامع في المال مظهر الساعي إلى العدل المتصف بالتقوى!!!

كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا قبضه الله إليه كشف بعض المنافقين عن وجوههم فرفعوا شعار "نصلي ولا نزكي"، ليعود المال مرة أخرى مصدرا للشقاق بين المؤمنين الصادقين والذين يعبدون الله على حرف. فقد كانت حروب الردة بسبب منع حق الله في المال بدعوى أن الزكاة جباية خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، "فما بال دين أبي بكر؟" كما قال قائلهم... وحين اغتيل الخليفة الثاني رضي الله عنه كان المال محرك أبي لؤلؤة الذي نقم من الخليفة رفضه شكايته لإسقاط حق عليه. وقبل ذلك نقم بعض أهل الكوفة على أميرهم سعد بن أبي وقاص أمورا من بينها أنه "لا يقسم بالسوية"، لكنهم عززوا مطلب المال باتهام سعد في دينه، فقالوا "إنه لا يحسن يصلي"، وهو من هو في سابقته في الإسلام وفضل صحبته وورعه. لكن الطعن في دينه لدى خليفة مثل عمر أنجح للهدف من رفض قسمته للأموال التي يصح فيها الاجتهاد.

كانت تلك فترة الغلاة الذين استطاعت الدولة المركزية استيعابهم، بطرق شتى. وحين ضعف سلطان الخليفة أيام عثمان رضي الله عنه، وكثر الطعن عليه في أمور ذات صلة وثيقة بالمال العام وطرق توزيعه، اجتاز الغلاة مرحلة جديدة فعدوا على الخليفة وقتلوه، ونهبوا المدينة المنورة، مدشنين بذلك مرحلة البغاة الذين سيخرجون على الإمام علي رضي الله عنه، فيحملون السيف على عموم الأمة، ممن خالف اجتهادهم، ويكفرونها. واستمرارا لنهج الغلاة في تغليف المطالب الدنيوية بقناع ديني، سيرفع البغاة شعار "لا حكم إلا لله"، ليظهروا بمظهر المدافع عن الدين، الرافض لتحكيم الرجال في كتاب الله.

لقد أدى انتقال الغلاة إلى مرحلة البغاة إلى تغير جذري في المجتمع الإسلامي. فقد كان اعتراض الغلاة على أحكام السلطة دون الطعن في شرعيتها، وإنما كانوا يظهرون بمظهر الحريص على العدل والتقوى. كانوا، بلغتنا اليوم، يعارضون من داخل الشرعية في الظاهر على الأقل. فاكتفوا بالمزايدة والتشكيك. أما حين قتلوا الخليفة فقد قضوا على الشرعية، فسموا ثوارا. وحين بايعوا الخليفة الجديد، لم يكن ذلك منهم سوى مداهنة للمجتمع الذي ألف نظام الخلافة، ولم يكن مستعدا لإلغائه بشكل مفاجئ. لكن الثوار حرصوا على تكوين كتلة متماسكة تراقب سلوك الخليفة، وتحسب عليه أنفاسه، وحين شعرت أن التحكيم قد ينتهي إلى صلح على حسابها بادرت بالانشقاق على الخليفة الذي نصبته. وبذلك بدأت مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام بعد عصر النبوة...

من الخلافة إلى الملك...

لا يبدو التصور الموضوعي لعصر الخلافة واضحا في أذهان بعض المسلمين. فقد بدأت بمرحلة انتقالية وانتهت بها. جاءت بيعة أبي بكر في ظروف خاصة اتسمت بالخلاف بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج، وبين الهاشميين، وبقية قريش. ولم

تحظ بيعة أبي بكر بإجماع فوري وإنما حصل الإجماع على التراخي، وساهم في حصوله مسارعة القبائل حول المدينة إلى إعلان ردتها. فانصاع أهل المدينة ومكة والطائف لخلافة أبي بكر لدرء الخطر الخارجي. وكأن الطامحين إلى الخلافة أجلوا طموحاتهم إلى أن ينتهوا من المرتدين، وبدا لهم أن قتالهم باسم الدين سيكون أبلغ تحت راية صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستمد مكانته الرفيعة من الدين دون أن يكون له سند عصبي يستطيع الركون إليه للاستمرار في السلطة بعد الانتهاء من حروب الردة. بمعنى أن الجميع كانوا يعتقدون إمكانية استرجاع الحكم من الصديق بسهولة؛ إما بموته، فهو شيخ كبار، أو بعزله بعد انقضاء الفترة الانتقالية.

لكن الصديق، وعيا منه بهذه الرهانات، وحرصا منه على تماسك الدولة الإسلامية الناشئة، اختار الوصية لعمر بن الخطاب. وأمسك عمر السلطة بحزم وشدة، وتقاسم بعضها مع الطامحين إليها، وظل يراقبهم عن كثب، (حدد إقامة كبار الصحابة في المدينة) حتى إذا أصيب تركها شورى بينهم، مع تدابير تضمن سرعة الحسم في اختيار الخليفة. ثم انتهت إلى عثمان الذي آثر اللين على الشدة، فانتهى به إلى ضعف سلطانه، واستقلال ولاته، وبعض مقربيه بالأمر من دونه. ثم عادت الخلافة مع علي سيرتها الأولى؛ مرحلة مؤقتة يهدف الذين أسلموها إلى علي إلى استغلال اسمه ومكانته لتستقر أوضاع الناس ثم يتدبرون أمرهم.

لم يعد نظام الخلافة ممكنا بعد الثورة على عثمان. وإنما أصبح المجتمع في بنيته يسير حثيثا نحو نظام الملك السائد في المجتمعات التي انفتح عليها المجتمع الإسلامي الذي ما زال في طور التشكل. ولم تكن روح الملك بعيدة عن الخلافة أصلا في خلافتي عمر وعثمان وهما اللتان تمثلان استقرار نظام الخلافة بعد فترة الانتقال من النبوة إلى الخلافة، خلافة أبي بكر، وقبل فترة الانتقال من الخلافة إلى الملك؛ خلافة علي رضي الله عنه. فقد كانت هناك سلطة مركزية قوية تسير الأمور بطريقة المستبد العادل؛عمر في خلافته. وكانت هناك طبقة سياسية تحيط بالخليفة، وتعينه على تدبير شؤون الخلافة في حدود ما يفوضها من سلطاته الواسعة. أما عثمان فقد مال إلى اللامركزية، وتفويض المزيد من سلطاته إلى المحيطين به من الطبقة السياسية.

لقد اختلفت معايير "أهل الحل والعقد" في خلافة عثمان عنها في خلافة عمر. كانت المعايير العمرية معايير دينية صرفة، فكان كبار الصحابة أهل حله وعقده، وإن كان جل الحل والعقد في يده. ولم يكن بإمكان عمر اصطناع معيار آخر لمزاولة الحكم. فقد استلم الخلافة بعد حروب الردة ذات الطابع القبلي، التي تم إخمادها باسم الدين، ضدا على العصبية الجاهلية. ولم تكن لعمر عصبية قوية يستطيع الاعتماد عليها للاستبداد بالحكم دون بقية العصبيات.

أما في خلافة عثمان فقد استرجعت العصبيات بعض سطوتها، خاصة أن الصراع على الخلافة بين الهاشميين والأمويين اشتد أثناء مداولة أهل الشورى، لذلك بدت بيعة عثمان انتصارا للعصبية الأموية على العصبية الهاشمية. لهذا كان معيار الطبقة السياسية المحيطة بعثمان معيار عصبية. وبذلك انتقلت الخلافة من كونها

وظيفة يشغلها الأكثر تأهيلا من الناحية الدينية؛ خلافة أبي بكر وعمر، إلى سلطة تتنازعها العصبيات؛ خلافة عثمان وعلي.

ربما لم يكن انتقال الخلافة من حال إلى حال بعيدا عن تأثير الدول التي كانت قائمة حول جزيرة العرب، والتي كان للعرب، قبل الإسلام وبعده اتصال بها. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية دينية يتمتع فيها رجال الدين بسلطات واسعة. ولما لم يكن في الإسلام تسلسل هرمي لرجال الدين، وكانت دولته ذات طابع ديني كان لا بد للمكانة الدينية من أن تكون على رأس المؤهلات المطلوبة في الممارسين للشأن السياسي. لذلك كانت خلافة أبي بكر وعمر، الأقرب إلى فترة النبوة ألصق بالمعيار الديني في تعاطيها مع الشأن السياسي، خاصة أن الشيخين لم يكونا من عصبيتين قويتين، وقد حارب الإسلام العصبيات ليوحد العرب في كيان سياسي واحد.

أما في خلافة عثمان فلم تعد العصبيات تمثل تهديدا للإسلام، وإنما أسس عمر لشرعيتها حين سمح لمن عاد إلى حظيرة الإسلام من المرتدين بالاشتراك في الجهاد، بعد أن منعهم الصديق، واختط ولاته المدن على ضوئها، وثبتها هوفي ديوان العطاء، وعقدت القبائل ألويتها الخاصة في جيوش الفتح. عاد المجتمع العربي إذن إلى نظامه القبلي الذي تكيف مع الإسلام ليعود معيار العصبية إلى تحديد الطبقة السياسية التي تمارس السلطة. وهكذا أحاط بالخليفة عثمان أهل عصبيته، ليعود العرب إلى الاقتباس من الفرس بدل الروم، إذ الحكم في الفرس للعصبية.

تطورت الخلافة إذن إلى مرحلة الملك، ولم يمثل الملك قطيعة معها كما تحاول بعض القراءات السياسية المعاصرة أن توهمنا، بما تروجه من أن الملك بدأ مع بني أمية حين أصبح وراثة. والحقيقة أن الوراثة استخلاف، وقد استخلف الخليفة الأول. وحين أصيب عمر أشار عليه بعض من حضره باستخلاف ابنه عبد الله. فلم ير ذلك منكرا، ولا مخالفا لمقتضيات الخلافة الراشدة، وإنما قال: "يكفي آل الخطاب واحد." وأشرك ابنه في الشورى بصوت مرجح. فلو كان توريث الخلافة مخالفا للشرع ما تردد ابن الخطاب في بيان ذلك وقد واتته الفرصة مقبلا على الآخرة مدبرا عن الدنيا. وبخلاف ما يروج، لأغراض مذهبية، وأخرى سياسية، من أن معاوية أول من ورث الخلافة، لتنقلب بذلك ملكا، فإن شيعة علي رضي الله عنه هم أول من ورث الخلافة ببيعتهم الحسن بن علي. وقد استشاروا عليا في ذلك فقال: "لا آمركم ولا أنهاكم". ولو علم في ذلك انحرافا عن الخلافة الراشدة لما توقف فيه. والذي تزعم بيعة الحسن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري.

يعتمد أصحاب الفصل بين الخلافة والملك، وكأنهما نقيضين على الحديث المروي عن سفينة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنن، يحدد الفترة الزمنية للخلافة:" " الخلافة ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكا." ولفظ أبي داود:"خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء." وهذا صريح في تطور نظام الخلافة إلى الملك دون وصفه بصفة العضوض. ترد هذه الصفة في حديث آخر مروي عن حذيفة. فقد روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً في المسجد فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم في الأمراء، فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة.

فقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت."

لكننا نجد في الصحيحين حديثا يعتمده ابن تيمية دليلا على جواز إطلاق لقب الخليفة على الملوك، وهو ما يعني عدم تناقض الصفتين أو تنافرهما؛ يقول ابن تيمية: "ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكا، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، بدليل ما رواه البخاري ومسلم في "صحيحيهما " عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا ؟ قال:فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم." وبذلك تسقط دعوى من ينزعون الشرعية عن الملوك بدعوى أنه لم تتبع في توليتهم طريقة الشورى التي اختارها عمر، وإنما ورث كل واحد منهم الملك عن من سبقه دون استشارة الأمة. فقد صرح صلى الله عليه وسلم بصحة بيعتهم، فأمر بالوفاء بها، وإعطائهم حقهم على الرعية من السمع والطاعة، وسماهم خلفاء، وهو ما يعني أن شرعيتهم هي نفس شرعية الخلفاء الأربعة.

ويعزز الحديث ما نجده في القرآن حين الحديث عن داوود وسليمان. فقد آتى الله داوود الملك بدليل قوله تعالى:" فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"

(البقرة،251). ثم يصفه القرآن بالخلافة:" يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض..." (ص:26). ولو كان توريث الملك مما يطعن في شرعية الحاكم لما ورث داوود ملكه ابنه سليمان. قال تعالى:" ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين." ولو كان الملك في ذاته فاقدا للشرعية، لما ارتبط بالنبوة، ولما استوهبه سليمان من ربه:" قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ".

من كل ذلك يتضح أن الحملة على الدولة الأموية، واتهام الأمويين بما سماه بعض أهل الأهواء المعاصرين "الردة السياسية"، الغرض منه تشويه التاريخ الإسلامي والطعن في الصحابة، في عملية تأصيل متعسفة لرؤية سياسية معاصرة. فقد كانت الدولة الأموية دولة طوارئ، أثخنتها الحروب الداخلية التي شنها البغاة على دولة الإسلام، ولم يشغل الأمويين ذلك عن الفتوحات لإعلاء كلمة الله وتأمين حدود الدولة المهددة من الداخل والخارج. استمرار الدولة، والحفاظ على استقرارها هو الذي حدا بمعاوية رضي

الله عنه إلى اختيار اجتهاد أبي بكر في الاستخلاف، بدل تعيين مجلس شورى حسب اجتهاد عمر رضي الله عنه. فقد كانت الدولة الإسلامية أيام معاوية شبيهة بها أيام الصديق من حيث الاضطراب الداخلي والانشغال بالفتح. أضف إلى ذلك أن تجربة مجلس الشورى لم تكن مشجعة كثيرا لما حدث بين أعضائه من انقسام كاد يفضي إلى فتنة لولى صرامة التدابير التي اتخذها عمر. حدث ذلك في الجيل الأول من الصحابة فما بالك بالمسلمين أيام معاوية وقد خرجوا حديثا من حرب طاحنة حول الخلافة. فكان الأولى حسم الأمر درءا للفتنة.

لكن معايير الاستخلاف اختلفت أيام معاوية عنها أيام الصديق. فقد استقر سلطان العصبية الذي أشار إليه الصديق في محاورته للأنصار، فقال:"...لن تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش."، فإذا كان معاوية قد اختار ابنه يزيد فإن دافعه إلى ذلك هوأن العصبية الأموية هي المسيطرة، وهي القادرة على الدفاع عن كيان الدولة وحفظ بيضة الإسلام. وقد كان المتشوفون للخلافة شباب من قريش من جيل يزيد، ولوترك الأمر شورى بينهم لم تؤمن الفتنة. والدليل على ذلك أن من ثار منهم على يزيد دعا إلى نفسه، ولم يطالب بالشورى العمرية. فقد خرج الحسين رضي الله عنه داعيا إلى نفسه، ووثب ابن الزبير على الحجاز، والمختار الثقفي على العراق قبل أن يقتله مصعب بن الزبير ويلحق العراق بملك أخيه في الحجاز.

من كل ذلك نستخلص أن مصدر الغلوهوالطمع في المال العام، والبخل بأداء الصدقات. ويظل الغلوقولا منفردا يزايد في الدين ليكسب الأنصار، ولا يظهر المال في "قول الغلو" بشكل صريح، وإنما يظهر الغلاة الزهد والورع الشديد، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم...". ثم ينتقل مرضى القلوب من حالة الغلو، إلى مرحلة "البغي" التي تتجاوز "الدعوة إلى العدل والتقوى" إلى الطعن في شرعية الحكم؛ "لا حكم إلا لله". في هذه المرحلة يفارق البغاة المجتمع من أجل الاستيلاء على الغنيمة كاملة. فقد كان الغلاة "يطالبون" بما يعدونه حصتهم من "الغنيمة" مع الاعتراف بشرعية السلطة التي يطالبونها بالعدل، ويحثونها على التقوى. أما البغاة فلا يكتفون بالمطالبة بحصة، وإنما يحاولون توسيع مفهوم الغنيمة ليشمل المجتمع كله، وتصبح هذه الغنيمة من حق البغاة وحدهم.

يبدأ البغي بنزع الشرعية عن الحكام وتكفيرهم ليستتبع ذلك تكفير المجتمع الخاضع لسلطتهم. وعن طريق التكفير تستحل الدماء والأموال... ذاك هوتاريخ الغلووالبغي الذي يتخذ اليوم أشكالا مختلفة، وإن ظل المال والسلطة محركه الرئيس. لقد اختلفت استجابات المجتمعات الإسلامية لهذه الظاهرة باختلاف مقارباتها لها. ولعل المقاربة الموريتانية تمتاز بالأصالة من حيث التصور وآليات التنفيذ...

أهم ملامح المقاربة الموريتانية لمكافحة التطرف...

عانت البلاد من الأعمال الإرهابية التي استهدفت القوات المسلحة في ثكناتها، والمدنيين في الشوارع. ولم تفعل السلطات السياسية حينها سوى إحصاء الضحايا؛ فلم يكن الجيش، ولا قوات الأمن مجهزين لمواجهة عصابات جيدة التسليح، عالية

التدريب. لكن هذه الظروف تغيرت جذريا مع حركة التصحيح سنة 2008 التي جعلت على رأس أولوياتها مكافحة الإرهاب دون المساس بالحريات، بل تعزيزها ضمانة لحقوق المواطنين وقطعا للطريق على الدعاوى المغرضة. ركزت السلطات الجديدة على تحديث تسليح الجيش وقوات الأمن ورفع معنوياتهم من خلال تحسين ظروف عملهم وتدريبهم، فانعكس ذلك سريعا بنقل المعركة إلى معاقل المتطرفين، وتحصين التراب الوطني. ورغم أهمية الإجراءات الأمنية في المقاربة الموريتانية إلا أن المقام لا يناسب التوسع فيها، لذلك سنركز على الجوانب الفكرية والاجتماعية لهذه المقاربة.

لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف...

واكبت الإجراءات الأمنية الصارمة تدابير فكرية واجتماعية تفتح خط الرجعة لمن اكتشف، بعد التورط، أنه يتبع السبل وبنيات الطريق، ويحاول التوبة والإنابة إلى الله. فانتهجت الدولة سياسة تقوم على تعزيز الحريات؛ حرية التعبير بإلغاء عقوبة الحبس في قضايا النشر، وحرية العمل السياسي والنقابي والجمعوي بالترخيص للأحزاب، والنقابات، وهيئات المجتمع المدني، وتسهيل عملها، وتقديم العون المادي لها ضمن مسطرة شفافة شارك الجميع في وضع آلياتها، وحرية الدعوة بدعم المؤسسات الدينية من محاظر، ومساجد، ومعاهد، وتم استحداث جامعة للعلوم الإسلامية، وإطلاق إذاعة للقرآن، وقناة فضائية دينية، والتوسع في بناء المساجد. ثم دعت الدولة العلماء إلى مناظرة الشباب المتطرف الذي قبض عليه لتستبين سبيل المجرمين. ووافق الشباب على مناظرة العلماء، وتكلل الحوار العلمي برجوع 80%من الشباب عن الأفكار المتطرفة فاستحدثت الدولة لهم برنامج دمج اجتماعي مكنهم من إطلاق مشاريع اقتصادية أمنت لهم دخولا فاندمجوا في المجتمع وعادوا مواطنين صالحين ينهضون بدور دعوي من خلال تحسيسهم لغيرهم من الشباب حول خطورة التطرف والغلو. ولم يقتصر هذا البرنامج على الشباب المتورطين مع الجماعات المتطرفة وإنما شمل شريحة الشباب والفئات الهشة من خلال مؤسسات ذات نشاط اجتماعي واقتصادي ترعاها الدولة، مثل: وكالة التنمية المستديمة، الصناديق الوطنية للادخار والقرض، صندوق بيت المال، وبنك النساء. قدمت هذه المؤسسات قروضا دون فوائد، ميسرة التسديد في دفعات صغيرة، فمكنت العديد من الشباب والنساء معيلات الأسر من إطلاق مشاريع صغيرة أمنت لهم دخولا، وأخرجتهم من دوامة البطالة. كما أطلقت الدولة سنة 2012 "برنامج أمل" لدعم المواد الأولية دعما للقوة الشرائية لذوي الدخل المحدود. وشجعت الشباب على الانخراط في العمل السياسي من خلال أحزاب شبابية تؤطرهم ليساهموا بفعالية في بناء الوطن. توج كل ذلك ب "لقاء الشباب، أنتم الأمل" الذي جمع نخبة الشباب من كافة الشرائح، وولايات الوطن، وحرص فخامة رئيس الجمهورية السيد محمد ولد عبد العزيز على حضور انطلاقه، واختتام أعمال ورشاته التي قدمت مقترحات وجه فخامة الرئيس كافة القطاعات في اجتماع مجلس الوزراء بالاستفادة منها، كل في مجاله. كما نصب مجلس أعلى للشباب ليكون هيئة استشارية، تقدم النصح في القضايا المتعلقة بالشباب.

إن ما يميز المقاربة الموريتانية لمعالجة ظاهرة التطرف هوإدراك القائمين عليها أن التدين ليس مصدر التطرف، بدليل أن الموريتانيين مجتمع عرف عبر التاريخ بتدينه، ولم تظهر فيه دعوات متطرفة، وإنما جاء التطرف من مصادر خارجية تقترح أنماط تدين لم تكن معروفة لدى الناس. فركزت الدولة على تعزيز مظاهر التدين التي ألفها الناس متمثلة في: عقيدة الأشعري، وفقه مالك، وطريقة الجنيد السالك، التي تمثل في المخيال الاجتماعي مراتب ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان. فصحة العقيدة شرط للتفقه في الدين، والتفقه في الدين زاد السالكين طريق الإحسان. أضف إلى ذلك إدراك القائمين على المقاربة الموريتانية لمعالجة ظاهرة التطرف أن البعد الدنيوي يمثل المسكوت عنه في أيديولوجيا المتطرفين وإن ظهر بشكل جلي في نشاطاتهم، فبادرت إلى إطلاق الحريات العامة، وإعادة توزيع الثروة ليشترك كل الموريتانيين في ثمارها، مع تمييز إيجابي لصالح الفئات الهشة، وإعطاء دور أكبر، في إدارة الشأن العام، والوظائف العليا في الدولة، للشباب والنساء.

أثمرت كل هذه الإجراءات الرشيدة سلما اجتماعيا قائما على قاعدة صلبة من الاطمئنان إلى العدل، والشعور بالمساواة في الحقوق والواجبات. فلم يعد الشباب الموريتاني في حاجة إلى المغامرة بحياته في الصحراء ليعيش تصوره للعقيدة، ويسطوعلى ما يعده نصيبه من الغنيمة. فبإمكانه اليوم أن يمارس شكل التدين الذي يختاره، وأن يدعوإليه بين أهله وذويه، وفي مجتمعه، بحرية تامة دون ملاحقة من أجهزة الأمن ما لم يتخذ العنف سبيلا، والتطرف منهجا. أما ما يعده "نصيبه من الغنيمة" فيمكنه الحصول عليه دون المخاطرة بحياته، وإنما اعتمادا على جهده وبلائه. بذلك تم تجفيف منابع تجنيد المتطرفين في صفوف شبابنا، وغدت بلادنا واحة سلم وأمن في منطقة مضطربة. كما أصبحت التجربة الموريتانية في معالجة التطرف والغلومثالا يحتذى. ومن الجدير بالذكر أن هيئات المجتمع المدني، وعلماء الدين، وقادة الفكر، وصناع الرأي العام شاركوا بفعالية في تصور هذه المقاربة، وفي تنفيذها في تعاون وثيق مع السلطة السياسية التي أطلقت المبادرة ورعتها... لكن السؤال عن مصادر التطرف المعاصر يظل قائما...

الأشباه والنظائر... لينين والبنا

بعد تأصيلنا لظاهرة الغلووالبغي في المجتمع الإسلامي قديما، واستعراضنا لمثال معاصر نجح في معالجتها، يجدر بنا التصدي لمحاولة فهم مصادر الغلو والبغي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة. بخلاف ما يذهب إليه كثير من الباحثين المهتمين بالجماعات المتطرفة اليوم، فإننا نرى أن الغلو والبغي الذي يهدد مجتمعاتنا اليوم لا يعود في أصوله إلى تصور للدين يعود إلى حقب ماضية من التاريخ الإسلامي، بل يعود في مجمله إلى تيارات فكرية غربية بنت دينا جديدا باتخاذ موقف عدائي من الممارسة الدينية الكاثوليكية التقليدية التي تقلص نفوذها بالإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، وعصر الأنوار في القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية سنة 1789. هنا أيضا نجد أن المال كان الدافع الرئيس إلى رفع شعار ديني؛ فقد ثار لوثر ضد صكوك الغفران التي كان المسيحيون يشترون بها خطاياهم،

ورفض التبرع للكنيسة طريقا للتكفير عن الخطايا. هذه البداية الدنيوية جدا ستقود لوثر إلى رفض سلطة البابا، وإنكار حقه في تفسير الكتاب المقدس، ليلخص آراءه في 95 قضية ناقض فيها الاعتقاد الكاثوليكي الرسمي. ولم يكن الإصلاح البروتستانتي سوى ليبرالية دينية تحرر العقيدة من إكراهات الكنيسة كما حررت السوق من تدخل الدولة. (راجع كتاب ماكس فيبر: البروتستانتية والرأسمالية) وأصبح الدين خاضعا لضمير الفرد، مثلما الاقتصاد يدار بالمبادرة الفردية. مثل الإصلاح البروتستانتي زعزعة للإيمان الرسمي القائم على مؤسسة صارمة تحدد قواعده، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب. لكن لوثر اضطر في النهاية إلى إنشاء كنيسة تبنت اللامركزية عكس الكنيسة الكاثوليكية، وقررت حرية التفكير حول القضايا اللاهوتية التي لم تعد الكنيسة تحتكر القول فيها، وهوما سيشجع حرية التفكير عموما وانحلال الالتزام الديني الصارم بعد أن أصبح شأنا فرديا يديره المرء كما يدير بقية شؤونه. ثم جاء عصر الأنوار ليتجاوز الإصلاح الديني في خطوة مترتبة عليه؛ فإذا كان الإصلاح قد حرر الفرد من سلطة الكنيسة بصفتها وسيطا بينه وبين إلهه، فإن عصر الأنوار سيميل إلى تحرير الإنسان من سلطة الإله ذاته، مستبدلا العقل بالوحي. فالعقل يستطيع أن يدرك كل أشكال المعرفة، ومن ثم فلا حاجة إلى الوحي، والميتافيزيقا ليست سوى وهم، وما ينبغي للعقل أن ينشغل به هو الفلسفة التجريبية التي تحاول الإحاطة بالعالم الطبيعي الواقعي، وهو وحده العالم الموجود حقا.

وبذلك تم تأسيس ديانة العقل ضدا على ديانة الوحي.

لقد كانت الثورة الفرنسية نتاجا لعصر الأنوار، وما طرح فيه من أفكار حول الدين والسلطة، فقد كان شعارها: "شنق آخر الملوك بأمعاء آخر قسيس"، ليستولي الإنسان على ما كان لقيصر، وما كان لله، في نفس الوقت، لتصبح "الإنسانية" ديانة بديلة للبشر. يقول أرنست رينان: "إني على قناعة راسخة بأن الإنسانية النقية ستكون دين المستقبل، فهي عبادة كل ما يتعلق بالإنسان..."

في هذه الأجواء المشحونة بالتمرد على الممارسات الدينية التقليدية، والعقائد الرسمية ستظهر فلسفة هيغل (1831/1770) المتأثر باسبينوزا الذي شكك في الصدق التاريخي للعهد القديم، في كتابه:"رسالة في اللاهوت والسياسة."، وكانط؛ رائد الديانة العقلية، كما تأثر هيغل بفلاسفة الأنوار، والثورة الفرنسية، لينتظم بذلك في سلسلة المرتابين في العقائد، والشعائر الدينية التقليدية. من هيغل سينحدر توجهان؛ اليمين، واليسار. وإذا كان اليمين الهيغلي حافظ على الشكل التقليدي لفلسفة هيغل الذي يعطي أسبقية للروح على المادة، فإن اليسار الهيغلي (فيورباخ، وماركس) سيميل إلى تأويل فلسفة هيغل في الاتجاه المادي اللاديني الملائم للمناخ السائد أيامهما. وهكذا سيقول ماركس إنه وجد هيغل يمشي على رأسه (العقل)، فأقامه على قدميه (المادة). وبذلك بدأ الفكر الماركسي انتشاره الواسع باعتباره ثورة تقوم على "البراكسيس" بدل التأمل، وتهدف إلى

تحقيق الحياة السعيدة لكل الناس في هذا العالم الأرضي بدل انتظارها في عالم آخر "لا وجود له" إلا في خيال النصابين والمغفلين.

ورغم رفض فيورباخ، وماركس وإنجلز للديانات باعتبارها وهما تجاوزته البشرية حسب قانون الحالات الثلاث الذي وضعه أوغست كونت، إلا أنهم، خاصة ماركس، وضعوا تصورا لحياة الناس يحصرها في الجانب المادي باعتباره الحقيقة الوحيدة. ومرة أخرى يشاد تقليد ديني جديد، (أنظر: ريجيس دوبريه: نقد العقل السياسي) ضدا على التقليد الذي كان سائدا، ويتمحور عكسه حول المال، والحياة الدنيا.

سيموت ماركس، بعد حياة بائسة في لندن، دون أن يرى أفكاره تتحقق في بريطانيا التي توقع لها النجاح فيها. لكن لينين سيتكفل بوضع أفكار ماركس موضع التنفيذ في الاتحاد السوفييتي، لتنهار بعد سبعين سنة غالب الأنظمة السياسية التي تدعي الانتساب للمادية التاريخية.

لم يكن العالم الإسلامي بعيدا عن هذه التطورات الفكرية التي عرفتها أوربا. فقد تعرف العرب على الفكر الغربي الحديث مع حملة نابوليون على مصر 1798، ومن خلال البعوث التي أرسلها محمد علي إلى الغرب 1813، لجلب العلوم والتقنيات الحديثة، إضافة إلى الإرساليات التبشيرية البروتستانتية التي انتشرت في البلدان التي كانت تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. (أنظر تفسير الطاهر بن عاشور للقرآن بعنوان: "التنوير والتحرير"، في استدعاء واضح لمفردات عصر الأنوار). ويرجع بعض مؤرخي الأفكار بداية النهضة العربية إلى حملة نابليون على مصر. انقسمت النهضة إلى تيارين متصارعين؛ دعا أحدهما إلى تقليد الغرب في كل شيء، والتنكر للموروث العربي الإسلامي لتستطيع الأمة النهوض كما نهضت أوربا. (لن نهتم بهذا التيار لخروجه عن سياقنا)، بينما دعا الآخر إلى تحيين التراث ليلائم مقتضيات العصر الأوربي الزاحف.

مثّلت هذا التيار شخصيتا الأفغاني ومحمد عبده، فاقتبسا من الفكر الغربي ما حسباه لا يتعارض مع جوهر التراث الإسلامي. فدعا الأفغاني إلى إعادة فتح باب الاجتهاد (قارن دعوة لوثر إلى حرية تفسير الكتاب المقدس)، وألف محمد عبده "رسالة التوحيد" مستعيدا عقلانية المعتزلة ضدا على "نصية الأشاعرة" (قارن الدعوات في الغرب إلى الديانة العقلية)، وتواطأ الشيخ والتلميذ على نقد مظاهر التدين التقليدي، والسخرية بالمؤسسات الدينية الرسمية ("وساخة الأزهر" حسب محمد عبده)، (قارن الحملة على الكنيسة الكاثوليكية). كان الأفغاني فقيرا، سائحا في البلاد الإسلامية، انتقل وتلميذه إلى فرنسا حيث أسسا جريدة العروة الوثقى لنشر أفكارهما السياسية الدينية (قارن تشرد ماركس، لقاؤه مع إنجلز في باريس، واشتغالهما بالصحافة لبث أفكارهما السياسية المعادية للدين).

كان ماركس وإنجلز ينشطان في وسط تنتشر فيه الأفكار المعادية للتدين التقليدي فذهبا بتلك الأفكار والمشاعر إلى غاياتها القصوى لتتحول إلى معاداة سافرة للدين. بينما كان الأفغاني ومحمد عبده في بيئة

يتعرض دينها لهجوم خارجي فضّلا التصدي له (رسالة الأفغاني ضد النيتشريين، ورد محمد عبده على هانوتو)، ليكتسبا بذلك شرعية النقد من الداخل. وإذا كان لينين قد وظف أفكار ماركس وإنجلز لصياغة الأيديولوجيا الماركسية اللينينة، فإن حسن البنا سيستفيد كثيرا من أفكار الأفغاني وعبده في الدعوة إلى "نهضة الشعوب الإسلامية". وسيمثل ابن تيمية، في سياق الفكر الإسلامي المعاصر ما مثله هيغل في الفكر الغربي. إذ نجد تيارين في الفكر الإسلامي ينتميان إلى ابن تيمية يمكن عد أولهما؛ التيار السلفي يمينا، وحركة الإخوان المسلمين يسارا. (لعل آراء صاحب "الخلافات السياسية بين الصحابة" التي يؤصل من خلالها فكر الإخوان السياسي بتوسط ابن تيمية، ضمن صراع الحركة مع السلفيين على تراثه، تستعيد مع الاحتفاظ بالفروق، تنظير هربرت ماركيوز في "العقل والثورة" لثورية هيغل ضدا على اليمين الهيغلي البرجوازي، وهوالكتاب الذي سيرد عليه جاك أتالي في مؤلفه "كارل ماركس، أوفكر العالم"، حيث يظهر ماركس، المفكر البرجوازي، وهي نفس أطروحات آلتوسير عن كتابات الشباب لماركس).

ويستمر التشابه بين الفكر الإسلامي المعاصر، والفكر الغربي الذي أخذ عنه في حركة الإخوان التي تكاد تستنسخ تاريخ الفكر الماركسي(راجع: الكنتي: الماركسيون والإسلاميون وحدة مسار)، فقد خرجت من عباءتها كل الحركات المتطرفة المعاصرة منتسبة إلى أحد أبرز مفكريها؛ سيد قطب، كما انتسبت الحركات اليسارية الفوضوية العنيفة إلى أحد أشهر منظري الفكر الماركسي؛ تروتسكي، وليس ابن لادن سوى استعادة لتشي جيفارا الذي قتلته المخابرات الأمريكية في أدغال بوليفيا، كما قتلت ابن لادن في باكستان بعد مطاردة طويلة في كهوف أفغانستان. وأقام الإخوان تنظيما دوليا على غرار الاشتراكية الدولية، واعتمدوا للمشاركة في الحكم على التحالف مع أحزاب سياسية تناقضهم فكريا لكنهم لم يروا بأسا من التسلق عليها سياسيا كما فعلت الأحزاب الماركسية في الاتحاد السوفييتي (البلشفيك، والمنشفيك)، وغيره من البلدان الشيوعية، مثل يوغسلافيا وبولندا. فقد تحالف الإخوان في مصر، أيام حكم مبارك مع ليبراليي الوفد، ثم مع اليساريين، وأثناء فتنة الربيع تفاوضوا مع الجيش، ثم تحالفوا مع الخارجين على السلطة، على اختلاف مشاربهم، وفعلوا نفس الشيء في تونس، وفي ليبيا. ومثلما غيرت الأحزاب الشيوعية عقيدتها الثورية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وانهيار جدار برلين، فتخلت عن دكتاتورية البروليتاريا، والاقتصاد الموجه، والحزب الطليعي، تخلت حركة الإخوان المسلمين، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، عن الدولة الإسلامية لصالح الدولة المدنية (= العلمانية)، وعن الشريعة لصالح الشرعية التوافقية على دستور يبيح الكفر ويجرم التكفير، وأبدلت بشعار الإسلام شعارات التنمية والعدالة، والعدالة والتنمية، والإصلاح والتنمية، وأقرت أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ليس من وظائف الدولة، وفتحت الخمارة إلى جانب

الجامع، وصوت منتخبوها على تخفيض أسعار الخمور، ثم رفعوا الجلسة لأداء الصلاة...

لقد كان التطرف والعنف في أصل تأسيس حركة الإخوان على يد حسن البنا رحمه الله الذي بايعه أعضاء الجماعة على المسدس في غرفة مظلمة، وأنشأ الجهاز الخاص لجمع المعلومات وتنفيذ الاغتيالات.

كما كان جمع المال من أولويات الحركة، وكان أول متبرع لها شركة قناة السويس الفرنسية، ونص ميثاق الإخوان على ضرورة التبرع للدعوة، والوقف لها، بل قرروا لها نصيبا في الزكاة حسب ما ورد في ميثاقهم. ففي النظام الأساسي للإخوان المسلمين الصادر في 02 من شوال 1364هـ، الموافق 08 من سبتمبر 1945، المقر بعد التعديل من قبل الهيئة بالإجماع في 12 من رجب 1367، الموافق 21 من مايو1948، تقول المادة السادسة:" على كل عضو أن يقرر على نفسه اشتراكا ماليا شهريا أو سنويا يقوم بتسديده بانتظام، ولا يمنع ذلك من المساهمة في نفقات الدعوة بالتبرع أو الوصية أو الوقوف أوكلها معا، كما أن للدعوة حقا في زكاة أموال الأعضاء القادرين على ذلك..." (نص النظام).

ومنذ التأسيس أقام الإخوان مؤسسات مالية يجنون منها الأرباح وتؤمن لهم مصادر مالية ينفقونها على نشاطهم السياسي، وهي غالبا مؤسسات تسجل تحت غطاء العمل الخيري مما يعفيها من الضرائب ويسمح لها بتلقي التبرعات من مصادر مجهولة، وتساهم في إعادة تدوير الأموال ذات المصادر المشبوهة.

إن المواجهة الناجعة للتطرف تكمن في تجفيف مصادر تمويله إذ غالب ما يجمع المتطرفين هو مصالح دنيوية تكتسي لبوس الدين، ومن ثم لا ينبغي تضييع الوقت مع منظريه في مماحكات عقدية تهتم بالأفكار، وتهمل الأموال؛ العصب الحقيقي لنشاطات المتطرفين السياسية...

شنقيط بلاد الشعر والشعراء..!!

د.أحمد ولد حبيب الله
أستاذ الأدب الموريتاني بجامعة انواكشوط

المقدمة

إن الشعر العربي دوحة كبيرة تمتد جذورها وغصونها وفروعها وتتسع ظلالها الوارفة، لتظلل كل شبر من الأرض التي وصلها الإنسان أواللسان العربي. ولذلك كان هذا الشعر ومازال يتمدد ويتمعدد في الزمان.

والمكان عبر الزمان، فهورفيق الإنسان العربي البدوي والحضري شأنه في ذلك شأن الإبل مع الحنين، والحمام مع الهديل، والخيل مع الصهيل، والموريتاني مع الرحيل واللحم الأحمر والشاي الأخضر والمذق بالسكر، والسهر والشعر والوبر، ولئن ترك العرب الشعر الأصيل، فلن يترك الشعرُ العربَ وخاصة الموريتانيين الذين هم والشعر توأما وجود كما يقول أمير الشعراء الشباب محمد ولد الطالب (ولد 1968م وما زال حيا).

إن تترك العرب الشعر الأصيل سدى
فالشعر يا هذي لن يترك العربا

وكما يقول الأديب اللبناني متى خليل متى عام 1965م: إن "شاعرية الموريتاني لا تتوقف على العلم، وإنما هي طبع متأصل بالدم والروح، يجعل الموريتاني يشعر قبل أن يقرأ ويخادن نغم القافية قبل أن يداعب حرفا أويمتشق قلما؛ فالشعر خبر جوهري للأبناء شنقيط يأكلون منه، ولا يشبعون وينهلون من نبعه ولا يرتوون، فهم والشاعرية توأما وجود، تحدرت معهم من أصلاب جدودهم وعايشتهم في طفولتهم وشبابهم ورجولتهم واكتهالهم، فأني لهم أن يتقبلوا الحياة دون قافية تدَنْدِنُ؟ وكيف لهم أن يحيوا دون هَوْدَج يسلب القلب وغرعبة تغزل الحب؟

تحت كل خيمة موريتانية ديوان شعري

"الشعر هوكيمياء السعادة لدى كل فرد موريتاني وفاعل المعجزات في نفسه، فلقوافيه تنفرج أساريره، ولنغماته تهتز أعطافه وبمعانيه ينتشي فؤاده وتتوافر كلمات: "أسك" التي لا يتلفظ بها إلا إذا لامس ذروة انفعاله، هويرقص مع الشعر الراقص، ويهزج مع الشعر الهازج، ويثور مع الشعر الثائر، انشده شعرا تخرجه عن طوره، إنه بالشعر يهيم وللشعر يحيا. وكما أنك بالشعر تبعث عارم الشعور في صدر الموريتاني، كذلك، فإنك بالفعال الكرام والأحداث العظام تطلق شاعريته من عقالها، فإذا به، وهوالمعجب، ينثر الأبيات انتثار الدر من عقد نظيم، يكرُرها كر النغم في حنجرة شحرور نشوان في خميلة أرز دهرية،

شاعرية ثرة دفاقة العطاء وعاطفة موّارة، جياشة الإحساس وزخم شعري غريب تعجز القراطيس عن استيعابه وتنضب الأقلام في تبويبه. تحت كل خيمة من خيام شنقيط ديوان شعري، ولكل شبر من أرضها قصة ولادة قصيدة وحكاية وحي تجمع في ظلال شيح، أوقيصوم. وكأني بأرض شنقيط: أرض مسحورة، ترقص الرؤى وتلهم الخيال، وبالشاعر الشنقيطي متعبد ساجد في محرابها يتغنى بشيحها وقيصومها ونخيلها وكثبانها وعيسها وغزلانها، فأدبه هوأدب الولوع بالأرض الأم، وتهافت على هذه الأرض وتقبيل للتراب وما ضم، هوأدب العفوية والطبيعة والسليقة يستوحي معانيه من صميم الطبيعة التي فيها يعيش، فلا خيال كذاب ولا تصور مصطنع، بل حديث عضوي من القلب للقلب يزينه إخلاص في النبرة وعاطفة موّارة في الفكرة"[1] العربية الإسلامية الأفريقية الخالصة، ذلك أن هذه البلاد "بلد عربي صادق العروبة منذ دخله الإسلام (بل قبله بقرون)، فاتخذه أهله دينا لهم، كما أصبحت لغته هي اللغة السائدة بينهم، يصطنعونها في حياتهم اليومية، وفي وجوه نشاطهم الأدبي والفكري، واندمجوا به في الأمة العربية التي انتشرت وانبثت عروقها ما بين حدود الهند وشواطئ المحيط الأطلسي وشاركوا في مشاعرها وفي تاريخها وفي صور نشاطها، وأصبحوا لا يعرفون غير الجنس العربي جنسا ينتمون إليه، حريصين عليه، فخورين به، حتى قيل: إن قبائل البربر التي كانت تمثل أهل البلاد الأصليين الذين طرأ العرب عليهم حريصة على ألا ينتزعها وصف البربر من العروبة، بل إنها لتغلوفي الانتماء إليها، حتى لتذهب إلى أنها أعرق عروبة من العرب الآخرين؛ إذ ترجع بعروبتها هذه إلى عرب اليمن القحطانيين وهم العرب العاربة، أما العدنانيون، فهم عرب مستعربة[2]، ولذا، فإن إحساس الشعب الموريتاني "بعروبته إحساس عميق، ضارب في أغواره البعيدة، وربما كان إحساسه بالعزلة التي فرضتها الطبيعة عليه، والصحاري المترامية التي أحاطت به، مما زاده تشبثا بهذه العروبة وحرصا عليها، وعلى استبقاء العلاقة الباطنية التي تصله بالعالم العربي الذي يرى نفسه جزءًا منه، قوية وثيقة، متجددة..."[3].

وإذا كان عرب اليمن الحميريون القحطانيون الذين هاجروا إلى هذه الصحراء بعد انهيار سد مأرب ينتمي إليهم أبرز شعراء الجاهلية الثانية (540-622م) مثل أمريء القيس الكندي،[4] فلا بد أن الشعر هاجر مع هذه القبائل التي ظلت تقرض الشعر؛ لأن "العرب لا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين والخيل الصهيل". فأين شعر هذه القبائل؟ وما حكاية ما جرى له؟ ذلك ما تسعى المقاربة إلى ذكره ولكن قبل ذلك نروم أن نستنطق العنوان الرئيس: "هذه الصحراء: بلاد الشعر والشعراء" الذي سوف نسمك خيمته على الركائز السبع الآتية:

1 تقديم كتاب تطور الأدب في موريتانيا، مطبعة جيكا، انواكشوط، 1965م، ص7-8.

2 د. محمد طه الحاجري: شنقيط أوموريتانيا حلقة مجهولة في تاريخ الأدب العربي، مجلة العربي العدد 107، اكتوبر 1967، الكويت، ص29.

3 المرجع السابق والعدد. ص30.

4 النابغة مثلا، توفي 604هـ.

الركيزة الأولى: استنطاق العنوان الرئيس: منطلق للمقاربة وتأسيس

في هذه الركيزة نتكلم – بإيجاز – عن قضيتين أولاهما تحاور العنوان وتستنطق كلماته القاموسية والثانية تعتني بتأصيل المقاربة ووصلها بسياقها.

أولا: العنوان: محاورة وتفسير

إن متلقي عنوان هذه المقاربة المتواضعة: "هذه الصحراء: بلاد الشعر والشعراء" سوف يفهم جيدا أنه يعتمد تركيبين نحويين: هوهذه الصحراء وهومركب من مضاف "هذه" ومضاف إليه، الصحراء، بلاد الشعر والشعراء" وبلاد مضافة إلى الشعر والشعراء، والعنوان الرئيس كله مؤلف من خمس كلمات تحتاج إلى تبين وبيان لإيضاح العنوان، وأولاها: كلمة: هذه وهواسم إشارة للمفردة وثانيتها: بلاد جمع بلد وبلدة اسم لمكان محدد تستوطنه جماعة من الناس، يستعمل للقطر كله أولمدنه وقراه وثالثتها: الصحراء وهي منطقة قاحلة، حيث المطر قليل جدا، ومن ثم ظروف الطقس قاسية وهي عبارة عن مجتمعات حياتية جافة يكون فيها معدل سقوط الأمطار أقل من 250 ملم سنويا، وهي فضاء واسع ممتد لا ماء فيه قليل الأمطار والنبات وذوجوجاف[1] ونعني بها الحيز الجغرافي والثقافي والبشري القديم لما صار يسمى موريتانيا اليوم!.

ورابعة الكلمات هي: الشعر الذي يعرفه النقد العربي القديم بأنه "كلام موزون مقفى دال على معنى" أوهوالكلام الذي قصد وزنه وتقفيته بالبنية، والكلام الذي لا ينوي به الشعر ليس بشعر، ولوكان موزونا مقفى"[2] وقد يكون مفهوم الشعر لدى ابن خلدون (ت.808هـ) هوالأقرب إلى الوضوح، فهوعنده كلام مفصل قطعا، قطعا متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة من هذه القطعات، عندهم يسمى بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي يتفق رويا وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة، وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده مستقل عن ما قبله وما بعده..."[3].

وأما الشاعر، فهوفي اللغة ناظم الشعر وقائله، فهوالذي يشعر ويحس ويتكلم كلاما نابعا من قلبه، وفي الاصطلاح، هو: الشخص الذي يستطيع أن ينظم أبياتا وقصائد شعرية وهوالذي يقول الشعر وفق قواعده ومعانيه المقبولة أدبيا!

والهدف من هذا العنوان هوالوقوف قليلا مع قصة الشعر العربي في هذا البلد العربي الأفريقي الذي هاجر إليه الإنسان العربي منذ القرون الخمسة الميلادية الأولى قادما من اليمن، وتمثله قبائل عربية حميرية صنهاجية ثلاث هي لمتونة ومسوفة وجدالة التي لا بد أنه كانت تقرض الشعر في مهجرها[4] في هذه

1 ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

2 ابن منظور: لسان العرب، تقديم العلامة عبد الله العلايلي، دارس لسان العرب، بيروت د.ت. مادة شعر.

3 المقدمة، مكتبة الشعب، القاهرة، د.ت، ص425.

4 يقول الشيخ سيدي المصطفى الملقب الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل القلقمي (ت1328هـ/1910م) "إن ركوب الإبل والفيافي مُغريانِ على الشعر وإن طارئ الشعر كطارئ النور" (راجع الشيخ محمد الغيث النعمة: الفواكه في كل حين من كلام شيخنا الشيخ ماء العينين، تحيق

الصحراء الشاسعة، كما كانت تقرضه في موطنها الأصلي اليمن السعيد الذي هاجرت منه أغلب القبائل العربية القديمة!

وسوف نسعى في هذه المقاربة إلى رصد ما وضعنا عليه من قصة ما جرى للشعر العربي في هذه البلاد من خلال التثبت من بعض النصوص الشعرية التي قالها شعراء عبروا عن شعورهم وعواطفهم تجاه الحياة والكون وقراءة شعرهم قراءة تستنطق ما بين السطور وذلك ما تحيلنا إليه كلمتا "الشعر والشعراء" في العنوان!

ثانيا: المقاربة: تأويل وتأصيل

وفي هذا المحور نذكر بأن الشعر يعد عند الموريتاني لحمة الأدب العربي وسداه، بل هوعند كبار السن: هوالأدب، لذلك اعتمدوه قديما وحديثا وعولوا عليه في تعليم اللغة في المحضرة وفي تفسير علوم الشرع، بل اعتبروه دليلا وجعلوه أداة لضبط القاعدة والأحكام، فيقولون: قال الشاعر ولا يقولون: قال الناثر. ومع ذلك يفرق الفقيه والأصولي سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت1233هـ/1818م) بين الشعر والأدب ويقول "والأدب اليوم عند أهل المغرب (موريتانيا) الشعر وما يتعلق به..."[1]. وأما الأديب ابن أمبوجه العلوي التشيتي، فيقول: "اعلم، وفقك الله، أن الأدب في العرف عبارة عن ما يكسبه المرء بالحفظ والتذكار والنظر والتفكر والاستبصار كاللغة والأشعار والنحوورائق الأخبار، وقد يراد به الشعر فقط وهوالغالب... ولا خفاء أن الشعر أعلى مراتب الأدب... والناس إليه اليوم أحوج منهم في الزمن الأول..."[2].

ويرى الناقد الفقيه سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي أن معرفة الشعر تساعد على العزوف عن اللحن في القول وتساعد على الإصابة في العلم، ويرى أن له وظيفة نفسية تتمثل في إمتاع الطباع وتشنيف الأسماع ويقول يندب.. ترويح القلب بذكر الطرف من الحكايات والنوادر وإنشاء الشعر..."[3].

وفي هذه الصحراء الشاسعة نبت الشعر نباتا حسنا وتقبله الناس قبولا حسنا وتعاطوه حفظا ونظما حتى قيل عن بلاد شنقيط إنها "بلاد المليون شاعر"[4]. وهذه المقولة أطلقتها مجلة العربي[5] لأول مرة على هذه البلاد عام 1967 في استطلاعها: "انواكشوط: أحدث عاصمة في أقصى منطقة من وطننا الكبير" الذي تقول فيه واصفة حياة الموريتانيين ".. كانوا يجلسون على الأرض يرتلون القرآن ويحفظون الأدب، ويتفنون بقصائد الشعراء العرب، ويحفظون سيرهم عن الكتب الأثرية

مريم بنت العباس ولد بوننه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط (مرقون)، ص57، 2003.

1 الفتاوى (مخطوط) ص72، نسخة للدكتور التجاني ولد عبد الحميد بخط أحمد ولد ممون.

2 سيدي عبد الله بن امبوجه العلوي التشيتي: ضالة الأديب تحقيق ودراسة د. أحمد بن الحسن، ط1/ الايسيسكو، الرباط، 1996، ص81.

3هدى الأبرار على طلعة الأنوار (مخطوط) ص97.

4 الخليل النحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1987، ص251.

5 العدد 21/101 ذى الحجة 1386هـ، إبريل (نيسان) 1967، ص70.

التي يتوارثها العلماء أبا عن جد. وعندما يظهر الشاعر الموهوب المبدع بينهم يسمونه "الشاعر المفلق" ويحيطونه بكل مظاهر الرعاية والحنان... إلى حد يخافون معه عليه من البرد والحر على السواء. وسألناهم كم عدد سكان موريتانيا؟ فأجابونا: مليون شاعر!.. نعم. فكل أهالي موريتانيا شعراء... واسمعوا هذه القصة: "كنا نزور إحدى مدارس البادية، عندما التف حولنا الصبية الصغار يتطلعوننا بلهفة وينظرون إلى هؤلاء القادمين إليهم من الشرق... ثم ظلوا يسألوننا عن أشياء لا يمكن أن تخطر على بال... قالوا: حدثونا عن أمريء القيس... والفرزدق... كيف كانا يعيشان؟.. قولوا لنا... عن رأيكم في شعر جرير، وطرفة بن العبد، والنابغة الذبياني... وكان الشاعر والناثر والناقد الأدبي المختار ولد حامد الديماني (1314-1414هـ) يقول: "في كل أوجل الزوايا (الفئة القيمة على الدين والثقافة) من الموريتانيين شعراء منهم: الشاعر بطبعه وقريحته والشاعر بعلمه وهمته والشاعر بعروضه ولغته..."[1]، فهل كانت هذه البلاد شاعرة بالطبع ولا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين؟ ذلك ما تجيب عنه الركيزة الثانية الآتية:

الركيزة الثانية: بلاد شاعرة بالطبع، محيية للشعر العربي بالبدع

هذه الصحراء بلاد شاعرة بالطبع بالرغم من "أنك لتحس أن صراعا حادا بين رياح الصحراء اللاهبة وهي تحمل معها الرمال الصاعدة، وبين النسائم الباردة التي تحمل معها ندى المحيط وطراوته. أما في النهار، فيظهر أن الغلبة لرياح الصحراء، فالرياح معها الرمال لا تستأذن في الدخول، فهي تدخل في كل مكان وبشدة وقسوة في غالب الأحيان، وهي عالية سافية تكاد تقتلع أعمدة الخيام..."[2] ومع ذلك، فإن سكانها سعداء في بادية هذه الصحراء القاحلة، بعيدا عن التلوث البيئي والأخلاقي. والموريتاني البدوي فرح بما قاله عالم الآثار الفرنسي تيودور مونو: "كلما اقتربنا من المدينة نزداد تلوثا واتساخا؛... ففي الصحراء لا يمكن للإنسان أن يتسخ لأن الرياح تنظفه باستمرار..."[3]

وهذه الصحراء مصدر إلهام وبوح بالشعر بالنسبة للإنسان الموريتاني القديم والمعاصر حتى صار عشقه للشعر حكاية وقصة فماذا جرى؟

هذه قصة الشعر الموريتاني في رحلته وترحاله وصعوده وانحداره ونهضته، نقص بعضها، وهي ليست من أنباء الغيب ولكنها من أنباء المغيب أوالمنسي، وهي قصة نتمنى أن نعرف، ولوقليلا منها: رواية أودراية، لأن حلقاتها الأولى لم تفض بمكنوناتها ولا بأسرارها منذ وصول القبائل الحميرية الصنهاجية إلى هذه الصحراء في القرون الميلادية الخمسة الأولى إلى فترات متقطعة إلى القرن العاشر الهجري تقريبا.

إن هذه القصة تمتد على مدى خمسة عشر قرنا وخمسة وستين عاما هي كل القرون والأعوام التي وصل خلالها الشعر إلى هذه

1حياة موريتانيا، الجزء الثاني: الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس 1990، ص115.

2 محمد محمود الصواف: رحلاتي إلى الديار الإسلامية، القسم الأول، أفريقيا المسلمة، دار القرآن الكريم، دمشق، ط1/1395هـ/1975م، ص60.

3 مجلة ثقافية

البلاد وأثمر وازدهر فيها وظل نبراسا وهاجا وسراجا منيرا وهاديا للضالين، وموقظا للنائمين أوالغارقين في سبات الأمية أوالجهل أوالتخلف أوالعزلة الجغرافية والثقافية أوالغافلين في بلهنية أوسطوة أوسيبة أو"فترة" من الأحكام المركزية أومن الاحتلال الفرنسي.

ولقد استطاع سكان هذه الصحراء أن يسلموا من عار الأمية وشنار الجهل، حيث قامت فيهم صحوات عظيمة زاهية وأن يقدموا أوراق اعتمادهم إلى الوطن العربي والعالم كله، محررة بالشعر الرصين، الجزل، القوي الذي أعاد إلى الشعر العربي صورة نقائه ورصانته في الوقت الذي كان يعيش فيه لحظات جموده وضعفه وانحطاطه في المشرق العربي كما شهد بذلك شاهد من أهله هوالناقد المصري محمد طه الحاجري (ت1988م) الأستاذ السابق بجامعة الاسكندرية والجامعة الليبية الذي يقول: "... على أن الصورة الأدبية التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط (موريتانيا) في هذين القرنين (12،13هـ / 18،19م) جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخوالأدب العربي على إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة، فهوعنهم، وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم، أدب يمثل الضعف والركاكة والفسولة، في صياغته وصوره ومعانيه؛ إذ كانت هذه الصورة تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء، فهو– في جملته – أدب جزل بعيد عن التهافت والفسولة.

وهذه الجزالة الواضحة في الشعر الشنقيطي (الصحراوي الموريتاني) الذي بين أيدينا عامة، ترجع – فيما نحسب – إلى الحرص على التراث الأدبي القديم الذي يمثل العروبة في أنقى صورها وأدقها، وذلك – كما قلنا – وجه من وجوه الحرص على العروبة نفسها، فهذا الحرص هوالذي جعل الأديب الشنقيطي، وثيق الصلة بهذا التراث، فكون له عالمه الباطني الخاص الذي يوجه شاعريته، والذي يمده بالمادة اللفظية والصورة؛ وإلى جانب ذلك كان عالمه الخارجي الذي يعيش فيه عالما شديد الشبه بالعالم الذي صدر عنه الشعر الجاهلي الذي فرض مثله على الأدب العربي القديم!!

وإلى جانب هذا ظلت شنقيط معزولة تقريبا عن سائر العالم العربي،وعن المشرق خاصة، بعيدة عن التأثر بالعوامل التي أضعفت الأدب فيه، بقدر ما كانت وثيقة الصلة بالمثل الفنية التي يمثلها الشعر القديم، فهي تكاد تكون مقصورة عليها، فلا جرم كان هذا الشعر الذي يعرضه صاحب "الوسيط" (أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت1913م في القاهرة)، يختلف اختلافا غير قليل عن الشعر في المشرق هذه الفترة!!

وهذا الشبه القريب بين طبيعة الحياة في شنقيط (موريتانيا) وطبيعة الحياة في الجزيرة العربية، كان مما أتاح لشعراء شنقيط أن يعارضوا شعراء العرب الأولين، معارضة أصيلة، تبدوللقارئ وكأن لا تكلف فيها ولا تصنع، وإنما يمضي الشاعر فيها على سجيته، ويمتح من طبيعته؛ إذ كان يصدر فيها عن عالمه الباطني الخاص إلي أشرنا إليه والعالم الخارجي جميعا[1].

1 شنقيط أوموريتانيا حلقة مجهولة في تاريخ الأدب العربي، مجلة العربي، العدد 107 (مرجع سابق)، ص32.

وهذا الناقد الأستاذ السفير والوزير السابق سيدي أحمد ولد الدي (مازال حيا) يزكي شهادة الناقد المصري محمد طه الحاجري[1]

ويقول: "لم يكد يستهل القرن التاسع عشر (الميلادي) إلا وفي موريتانيا نهضة شعرية ناضجة عمرها يناهز قرنا كاملا. ولذلك، فإنني أقول: عن إدراك كامل، إن ما يدعوه مؤرخوالأدب العربي بحركة الانبعاث الشعري قد بدأ في موريتانيا في أواخر القرن السابع عشر واستمر ينموويتكامل حتى بلغ أوجه في بداية القرن التاسع عشر، فموريتانيا، إذن، قد سبقت الشرق في هذا المجال بما يناهز قرنين. ناهيك أن مولد البارودي "باعث الشعر من مرقده" الطويل ولد سنة 1838م أي بعد وفاة ابن رازقة بمائة وأربع سنين. وقد أصاب الأستاذ طه الحاجري حيث وصف الأدب الموريتاني بأنه "حلقة مفقودة" من تاريخ الأدب العربي (انظر مجلة العربي، عدد اكتوبر 1967م) (كما رأينا آنفا). فالحقيقة أنه لوكان مقسموعصور الأدب الكبرى قد عثروا على كنوز الشعر التي كانت تزخر بها الصحراء الموريتانية، لغيروا رأيهم في تقسيمهم وتحديدهم لمهد حركة البعث الشعري؛ إذ أن شعراءها وخاصة شعراء القرن التاسع عادوا بالشعر العربي إلى أصالة معانيه وجزالة أساليبه وخلوه من سقم الخيال وإسفاف التعابير والإغراق في الألعاب اللفظية الزائفة. ويعتبر محمد بن الطلبة المتوفى سنة 1272هـ / 1859م رأس شعراء هذا القرن، وقد عاد إلى منابع الشعر الأصلية يستلهمنا، فتنقاد إليه القوافي ذات المعاني القوية الضخمة والأسلوب الجزل الغريب، أحيانا، بدون تعقيد المعاني أوالجري وراء الزخرف اللفظي. وقد كان شديد الوثوق بفنه وبمقدرته على مجاراة الأقدمين وبالتالي على منوال المثل الأعلى، فعارض شعراء الجاهلية بقصائد لا تقل عنها روعة. وكان يتمنى أن يتناشد الأشعار في ناد من أهل الجنة مع حميد بن ثور الهلالي والشماخ بن ضرار الغطفاني، فيحكمون بينه وبينهما أيهما أشعر؟

لقد عارض أمحمد بن الطلبة بقصيدته التي مطلعها:

تطـــاول ليـــل النـــازح المتهـــيج
أمـــا لضـــياء الصـــبح مـــن متـــبلج؟

قصيدة الشماخ وأولها:

ألا ناديـــا أظمـــان ليلـــى تعـــرج
فقـــد هجـــن شـــوقًا ليتـــه لـــم يهـــيج

وبقصـــــيدته التـــــي مطلعهـــــا:

تأوبـــــه طيـــــف الخيـــــال بمريمـــــا
فبـــــات مُعنًّـــــى مســـــتجنًا متيمـــــا

قصيدة حميد بن ثور:

ألا هيمـــــا ممـــــا لقيـــــت وهيمـــــا
وويحًـــا لمـــن لـــم يلـــق مـــنهن ويحمـــا

وبقصيدته التي مطلعها:

صـاحِ قـف واستلح علـى صـحن جـال
سـبخة النـيش هـل تـرى مـن جمـال؟

قصيدة الأعشى الأكبر:

مـــا بكـــاء الكبيـــر فـــي الأطـــلال
وســـؤالي ومـــا تـــرد ســـؤالي

1 الشعر العربي بموريتانيا فيما قبل القرن العشرين، نشرة الوحدة، إدارة الشؤون الثقافية الموريتانية، بمناسبة مهرجان الشباب الأفريقي الأول عام 1969م، ص8-11.

وليست أستبعد أن تكون هذه المعارضات التي نشرت، لأول مرة، بالقاهرة سنة 1911م ضمن كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" لم تؤثر إلى حد ما في أمير الشعراء أحمد شوقي (ت1932م)، فنظم على غرارها معارضاته المشهورة التي تعتبر من عيون الشعر العربي ويعتبرها شوقي مثله الأعلى كقصيدته في المنفى بأسبانيا بين 1915 و1919م، التي عارض فيها البحتري في قصيدته التي وصف فيها إيوان كسرى وابن زيدون في قصيدته: (أضحى التنائي بديلا من تدانينا) المشهورة، كما عارض أيضا بائية أبى تمام في مدح المعتصم إثر فتح عمورية، وبردة البوصيري إلى غير ذلك من روائع الأدب العربي. ويعاصر امحمد بن الطلبة عشرات من الشعراء نذكر منهم، على سبيل المثال، محمد بن محمدي المتوفى سنة، 1272هـ، 1859م وسيدي محمد بن الشيخ سيديا المتوفى سنة 1285هـ والأحول الحسني المتوفي 1250هـ.

ولم تقبل طلائع القرن العشرين إلا وقد كان الشعراء منتشرين في جميع أنحاء البلاد يسيرون على هدي سابقيهم، ويغترفون مباشرة من مناهل الأدب الصافية. ومن خصائص شعراء هذه الفترة أن الشاعر يجمع إلى غريزة الفنان الكامنة فيه سعة في الاطلاع على الآثار الأدبية: شعرا ونثرا ورسوخ قدم في علوم اللغة والفقه والعقائد والتاريخ. وربما نجد منهم من له معرفة بالطب والحساب والفلك. فالشاعر – إذن – فنان بطبعه وغريزته، موسوعي باجتهاده ومجهوده وهو، في الغالب، فقيه القبيلة ومتكلمها وهولسان الدفاع عنها وتخليد مآثرها. وكثيرا ما يتباهى الشاعر بسعة معرفته، كما يتباهى بكرمه وشجاعته أوعفته"... (كما شأن فتى الفتيان في ذلك الزمان كما نعرف لاحقا).

ويقول الناقد ولد الدَّيْ أيضا "... وإذا وضعنا الشعر الموريتاني في إطاره العام في ذلك العهد، وعرفنا أنه لم يخضع لأي مؤثر أجنبي غير عربي، فهمنا لماذا لم تختلف موضوعاته عن الموضوعات المألوفة لدى الشعراء منذ جاهليتهم حتى الفترة التي نتحدث عنها!! فالغزل لا يخرج عن وصف محاسن المرأة وصفا ماديا،يتجه إلى مقارنتها بمظاهر الطبيعة الحية والجامدة ومقاييس الجمال في المرأة هي نفس المقاييس التي نجدها عند شعراء الجاهلية وصدر الإسلام. وكذلك النسيب، فهولا يعدوالتحسر على الفراق والتلهف إلى اللقاء والتوجع من أجل الجفاء، وإظهار اللوعة، واستعطاف المحبوب وزجر العذال والوشاة!!

"وتحتل الناقة ومعالم الصحراء المكانة البارزة في الوصف، وأغلب القيم التي تغنى بها المادحون في ممدوحيهم هي القيم البدوية المألوفة من كرم وشجاعة وحلم وعفة.

غير أن دوافع المدح هي التي تختلف، فالشاعر القديم كثيرا ما يكون مدفوعا إلى المدح بعامل التكسب!!

أما الشاعر الموريتاني، فدافعه حب الممدوح أوالإعجاب به أومجاملته،، إذ غالبا ما يكون معلما أووليا أوعالما شهيرا!

والفخر والرثاء وغيرهما من الأغراض الشعرية لا تخرج عن نطاق المواضيع التقليدية المتعارفة إلا في جزئيات ضئيلة لا تستحق الوقوف عندها طويلا. وبعد فهل يعني هذا أن الشعراء الموريتانيين مقلدون تقليدا أعمى لا وجود لبيئتهم ولا شخصياتهم في شعرهم؟!

وهننا أبادر بالجواب، فأقول: لا، ذلك، لأن الشعراء الموريتانيين عاشوا ومازال فريق منهم إلى الآن يعيش في نفس البيئة البدوية التي عاش فيها شعراء الجاهلية وصدر الإسلام،

فدوافع الشعر لا تختلف. ولذلك لم تختلف مظاهره، إذ هي رهينة بعناصر البيئة ومقومات الحياة الاجتماعية التي ينشأ عنها تكيف نفسي معين ومنزع وجداني خاص!".

ثم إنه بالإضافة إلى نفس العوامل، فإن الشاعر ينشأ، كما ذكرنا، نشأة ثقافية تحتل فيها دراسة الشعر القديم مكانة مرموقة، فينطبع هذا الشعر بمعانيه وصوره وأخيلته في ذهن الشاعر فيكون عناصر عقله وعاطفته، فيعيش الشاعر هذه العناصر بخياله وعبر عنه بطريقته الخاصة وبعبارة أخرى، فإن الشعر يعبر عن شعوره من خلال ثقافته، فمجال الحياة والعلاقات البشرية الرابطة بين الشاعر ومجتمعه وعناصر الثقافة تؤلف كلا متماسكا يفضي بالشاعر إلى أن يقول شعرا هوشعره كما هوشعر الأقدمين من حيث مجمل معانيه وهوشعره الخاص من حيث أسلوبه وموسيقاه ومعانيه الجزئية.

*** الشعر الموريتاني: شعر تقليدي وتجديدي**

وإلى جانب هذا ألح على مسألة المثل الفني الأعلى، فالشعر، وإن كان ملكا لطبقة (الخاصة)، فإن منتجه فنان يتجه إلى جمهور (حتى ولوكان جمهورا محدودا) له ذوق خاص ومثل فني أعلى. وهذا المثل وعصارة المكونات الفكرية والثقافية للجمهور ولهذا، فالشاعر أحد هذا الجمهور ينتج لهم ما يستحسنون والحقيقة أن الشعر الموريتاني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شعر تقليدي تجديدي في نفس الوقت، تقليدي، لأن أكثر معانيه وصوره مألوفة، وتجدي، لأنه بعث للشعر القديم من نوم خيم عليه عدة قرون!

وطريقة هذا البعث هي: العودة إلى روح الشعر القديم وهي سنة أدبية تكاد تكون عالمية. هذا، وأسلوب هذا الشعر جزل قوي، أحيانا، يعتمد على الموسيقى الصوتية اعتمادا كبيرا من حيث تناغم الحروف وتوازنها طبقا لصفاتها وخصائصها النوعية!

وأكثر البحور التي يقرضون عليها الشعر هي: البحور الطويلة التامة كالطويل والبسيط والكامل والوافر والخفيف. أما البحور القصيرة أوالمجزوءة، فنادرا ما ينظمون فيها،وقد يخرج بعضهم من البحور التقليدية في جوازتها كما فعل محمذ اليدالي المتوفى سنة 1166هـ، 1756م في قصيدة له يمدح النبي (صلى الله عليه وسلم):

صـــلاة ربـــي مـــع الســـلام
علـى حبيبـي خيـر الأنـام (إلـخ.)

و"يصل أحيانا، هذا الشعر بعذوبة موسيقاه ورقة معانيه إلى ما يسميه النقاد بالشعر الصافي" كما نجد في هذه الأبيات لأمحمد بن أحمد يوره المتوفى سنة 1340هـ في وصف مشهد فراق:

أَتُمْسِـكُ دَمْـعَ العَـيْنِ وَهْـوذَرُوفُ
تَكَلَّـمَ مِنَّـا الـبَعْضُ وَالـبَعْضُ سَـاكِتٌ
وَآلَـتْ بِنـا الأَحْـوالُ آخِـرَ وِقْفَـةٍ
حَلَفْـتُ يَمِينـا لَسْـتُ فيهـا بِحانِـثٍ
لَـئِنْ وَقَـفَ الـدَّمْعُ الَّـذي كـانَ جارِيًـا
وَتَـأْمَنُ مَكْـرَ البَـيْنِ وَهْومَخُـوفُ؟
غَـداةَ افْتَرَقْنـا وَالـوَداعُ صُـنوفُ
إِلَـى كَلِمـاتٍ مـا لَهُـنَّ حُـروفُ
لِأَنِّـي بِعُقْبـي الحـانِثِينَ عَـروفُ
لَـثَمَّ أُمـورٌ مـا لَهُـنَّ وُقـوفُ

والخلاصة: أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا نهضة شعرية جديرة بالدرس. وقد كانت هذه النهضة تبشيرا بالنهضة الأدبية

الكبرى في الشرق العربي الشقيق"[1]. وإذا كانت هذه الصحراء، وكما حفر في ذاكرة التاريخ العربي المعاصر بلاد الشعر والشعراء فإنها تفخر وتزهوبأنها فردوس الشعر ومعدنه وعرصة داره وبأن شعرها تذم له حبات الذهب اللماع، وبأنها تفطم الطفل فصيحا، خطيبا، كما يقول الشاعر محمد فال ولد عينينا الحسني الأعمري (ت1356هـ/1936م)؛ (البسيط)[2].

فانظر إلى ما لنا من كل قافية
فالطفل نفطمه قسًّ بن ساعدة
ولم نزل مورق القيصوم نمضغه
لها تذم شذور الزبرج القُشُبُ
منقحا دررا أصدافها ذهب
وليس يمضغ فينا اللوز والعنب
وأما محمد ولد ابن ولد أحميدا الشقروي (ت1362هـ/1943م، فيقول (الطويل)[3]:

أتحسب لي في الشعر شبها ألم تكن
فكيف أجاري فيه وهو سجيّتي
ومعدنه فينا وعرصة داره
فشعريَّ في أقصى المغارب شائع
فمن كان مسطاع السباق فذا المدى
نظرت إلى مرويّه في المهارق؟
وآخذه من بين جيبي وعاتقي
مجرٌّ عوالينا ومجرى السوابق
وجاوز منه الصيت أقصى المشارق
وها أنا ذا فليأتني بالمسابق

الركيزة الثالثة: مقومات الشعر الموريتاني

ويلخص الفتى الكامل والناقد والأديب الشامل الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي (ت1285هـ) مقومات الشعر الموريتاني أوجهازه المعرفي في قوله:[4]

وَكُنتُ إِذَا عَزَمْتُ عَلَى ارْعِوَاءٍ
وَكَمْ سَامَرْتُ سُمَّارًا فُتُوًّا
حَوَوْا أَدَبًا عَلَى حَسَبٍ فَدَاسُوا
أُذَاكِرُ جَمْعَهُمْ وَيُذَاكِرُونِي
كَخُلْفِ اللَّيْثِ وَالنُّعْمَانِ طَوْرًا
وَأَوْرَادِ الْجُنَيْدِ وَفِرْقَتَيْهِ
وَأَقْوَالِ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ
نُوَضِّحُ حَيْثُ تَلْتَبِسُ الْمَعَانِي
وَأَطْوَارًا نَمِيلُ لِذِكْرِ دَارَا
وَنَحْوالسِّتَّةِ الشُّعَرَاءِ نَنْحُو
وَشِعْرَ الْأَعْمَيَيْنِ إِذَا أَرَدْنَا
وَنَذْهَبُ تَارَةً لِأَبِي نُوَاسٍ
وَجَدتُّ عَزِيمَتِي إِسْرَاءَ قَيْنِ
إِلَى الْمَجْدِ انتَمَوْا مِن مَّحْتِدَيْنِ
أَدِيمَ الْفَرْقَدَيْنِ بِأَخْمَصَيْنِ
بِكُلِّ تَخَالُفٍ فِي مَذْهَبَيْنِ
وَخُلْفِ الْأَشْعَرِيِّ مَعَ الْجُوَيْنِي
إِذَا وَرَدُوا شَرَابَ الْمَشْرَبَيْنِ
وَأَهْلَيْ كُوفَةٍ وَالْأَخْفَشَيْنِ
دَقِيقَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ

1 الشعر العربي بموريتانيا فيما قبل القرن العشرين، نشرة الوحدة، العدد الأول (مصدر سابق) ص10-11.
2 ديوانه تحقيق عبد الله ولد بوبوه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط، (مطبوع) 2007.
3 ديوان جمع وتحقيق ودراسة أحمد ولد حبيب الله، جامعة القاهرة 1989، (مرقون)، ص699.
4 ديوانه جمع وتحقيق عبد الله ولد سيديا والناجي افال، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، انواكشوط 1981-1982 (مرقون)، ص81-92.

وَكِسْـــرَى الْفَارِسِـــيِّ وَذِي رُعَـــيْنِ
وَنَحْومُهَلْهِـــــلٍ وَمُرَقِّشَـــــيْنِ
وَإِن شِـــئْنَا فَشِـــعْرَ الْأَعْشَـــيَيْنِ
وَنَـــذْهَبُ تَـــارَةً لِابْـــنِ الْحُسَـــيْنِ

الركيزة الرابعة: الشعر الموريتاني والهوية والأمة العربية[1]

وهذا الشاعر إسماعيل ولد محمد يحظيه (ولد 1944م ومازال حيا) يدعوالشعب الموريتاني إلى الحفاظ على هويته وانتمائه لأمته في قصيدته المشهورة التي قالها عام 1976م:

يـا «مورتـانُ» لـكِ الكِـلاءةُ والظفـرْ
فيهـا لشعبـكِ قبـلُ عـزٌّ شامـخٌ
شـعبٌ يحـنّ إلـى الجميـل ويكتسـي
فـابقي إلـى جنـب العروبـةِ لا مفـرْ
نِعْـم المقـامُ بـه ونعـم المستقـر
حُلـلَ السماحةِ لا يُبـالي مـن هجـر

ويصف الشعب الموريتاني، منوها بمناقبه العلمية والأخلاقية والأدبية ويقول:

شعـبٌ يغـار لدينـه ولعِرضـهِ
شعبٌ دعتْـه مـن المحيط إلـى الخَلِيـ
شـعبٌ بـه تجـد الـدواةُ قوامَهـا
كـم فتيـةٍ عكفـتْ علـى كاساتهـا
تسقيهـمُ بغنائهـا فنّانـةٌ
فتميـل مـن فـوق الـرؤوسِ عمائـمٌ
هـذا يُعالـج وصـفَ ناقتـه وذا
ويخـوض ذوالتـاريخِ فيـه وربّمـا
يتسـابقون إلـى الهـدى مهمـا بـدا
تدعوهـم للبدوأعـرقُ نزعـةٍ
كـم عـاينوا خطـرَ الصحارى رُحَّـلاً
والشـربُ شـاةٌ والكراسـي أَرْحـلٌ
يـا سـاكني بطـنِ الجزيـرةِ ساكنـي
حيّاكـم شعـبٌ نـأى لكنّـهُ
تلك الأصالة لا نُريد لنـا بهـا بـدلاً،
الضـادُ يشـهد وَهْوأعـدلُ شاهـدٍ
بحماسـةٍ تنفـي الهـوانَ فـلا تـذر
ـجِ أواصـرُ القُربـى فلبّـى واعتمـر
تحت الخيـامِ وتحـت أكـواخِ الشجـر
سَـحَراً تَعلّـلُ مـن أحاديـث السمـر
كـأسَ التـأوّهِ تِلوكاسـاتٍ أُخَـر
خضـرٌ فتنتثـر البلاغـةُ كالـدُّرر
مُتغـزِّلٌ يشكوالصَّبابـةَ والسهـر
جنحـوا إلـى «الفـرّاء» فاتّضح الخبر
وإذا يُنـادي الجهـلُ كـلا لا وَزَر
فيـرون للبدوالعـدولَ عـن الحضـر
يرتـاد رائدُهـم مقاييـسَ المطـر
فـوق الهجـائنِ والمصـابيحُ القمـر
مهـدِ الحضـارةِ والديانـة والعِبَـر
يـدنوويقرب فـي المآسـي والبُشَـر
ولا ترضـى سـوانا فـي البَشَـر
والخلـقُ يشـهد والعوائـد والسِّيَـر

الركيزة الخامسة: الشعر الموريتاني والدعوة إلى الإبداع والإمتاع

والحق أن الشعر الموريتاني كان دائما برا بالشعر العربي القديم الجاهلي والإسلامي والعباسي والأندلسي، فهذا الشاعر محمذن بن السالم المجلسي نجارا الحسني دارا

1 مجلة البرهان، العدد الأول، 1975، وزارة الشؤون الإسلامية، انواكشوط – ص15-16.

(ت1310هـ/1892م) يقول لشيخه الشيخ سيدي من قصيدة يمدحه فيها:[1]

غـــوث البريـــة إن هـــذي مدحـــة
منـــوال حســـان المؤيـــد أوعلـــى
فـــي زعـــم قائلهـــا فمـــا لـــم يســـتقم
صـــيغت علـــى منـــوال شـــعر الأول
منـــوال عنتـــرة بـــن شـــداد العلـــي
منهـــا إلـــى مـــا يســـتقيم مُحـــولِ

"ولكن هذا البر بالآباء لم يمنع أحد شعرائنا أن يضيف، بحضورهم الخانق، ذرعا، ويعلن أنهم قد استنفدوا الإمكانات المتاحة في إنشاء الشعر، فلم يدعوا لقائل مقالا وأنهم بإجادتهم وإكثارهم قد أوقعوه ومعاصريه في أزمة لا يجدون منها مخرجا، ذلك موقف ابن الشيخ سيدي (سيدي محمد (ت1285هـ) المتميز في قصيدة (له...) وهي تتضمن وقفة نقدية لا نجد لها مثيلا في المدونة كلها، بل لا نعرف شاعرا عربيا آخر تناول أزمة التعامل مع التراث في قصيدة كاملة وأرسل لنفسه فيها العنان. والقصيدة كلها، كما ذكرنا، تشكومحنة الشاعر يطلب الإبداع، فيحاصره ما أبدعه السابقون، فهي تبدأ بهذه الاستغاثة (الكامل):

يـــا معشـــر البلغـــاء هـــل مـــن لـــوذعي
إنـــي هممـــت بـــأن أقـــول قصـــيدة
يهـــدى حجـــاه لمقصـــد لـــم يبـــدع
بكـــرا فأعيـــاني وجـــود المطلـــع

"ولم يخف على الشاعر أن البلغاء سيفزعون إلى الموروث الشعري يستمدون منه طلبتهم، ففيه عشرات النماذج من المطالع الممكنة المفضية إلى مثيلاتها من القصائد الممكنة.

ولكن ابن الشيخ سيدي يبادر منذرا أن هذا الحل السهل لا يفي بمراده؛ لأن كل هذه المطالع والقصائد لم يترك فيها القدماء موطئ قدم بل ولا موضع إصبع، وهويعد أغراض الشعر العربي ومعانيه عد خبير مطلع:

وحـذار مـن خلـع العـذار علـى الـديا
وإفاضـــة العبـــرات فـــي عرصـــاتها
ودعـــوا الســـوانح والبـــوارح واتركـــوا
وبكـــاء أصـــحاب الهـــوى يـــوم النـــوى
وتجنبـــوا حبـــل الوصـــال وغـــادِروا
وسُـــرَى الخيـــال علـــى الكـــلال لراكـــب لشْـــ
ودعـــوا الصـــحارى والمهـــارى تغتلـــي
وتواعـــد الأحبـــاب أحقـــاف اللـــوى
وتهـــادي النســـوان بالأصـــلان فـــي الـــ
والخيـــل تمـــزع بالأعنـــة شـــزبا
والزهـــرَ والـــروضَ النضـــير وعَرْفَـــه
والقينـــةَ الشَّـــنْبا تجـــاذب مِزهـــرا
وتحـــادث الســـمار بالأخبـــار مـــن
وتناشـــد الأشـــعار بالأســـحار فـــي
وتـــداعيَ الأبطـــال فـــي رهـــج القتـــا
وتطـــارد الفرســـان بالقضـــبان والـــ
وتـــذاكر الخطبـــاء والشـــعراء للـــ
ومناقـــب الكرمـــاء والعلمـــاء والـــ
فجميـــعُ هـــذا قـــد تداولـــه الـــورى
ر ووقفـــة الـــزُّوَّار بـــين الأربُـــع
وتـــردد الزفـــرات بـــين الأضـــلع
ذكـــر الحمامـــة والغـــراب الأبقـــع
والقـــوم بـــين مـــودع ومشـــيع
نعـــت الغـــزال أخـــي الـــدلال الأتلـــع
شِـــمْلال بـــين النـــازلين الهجـــع
فيهـــا فتـــذرعها بفتـــل الأذرع

1 ديوانه تحقيق محمذن بن عبد الله، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، انواكشوط 1982 (مرقون)، ص92.

لـــيلا وتشـــقيف الـــردا والبرقـــع
ـــكثبان مـــن بـــين النقـــى والأجـــرع
كيمـــا تفـــزع ربربـــا فـــي بلقـــع
والبـــرقَ فـــي غـــر الغمـــام الهمـــع
والقهـــوة الصـــهبا بكـــأس متـــرع
أعصـــار دولـــة قيصـــر أوتبـــع
الأقمـــار ليلـــة عشـــرها والأربـــع
ل إلـــى النـــزال بكـــل لـــدن مشـــرع
ـــخرصان بـــين مجـــرد ومقنـــع
ـــأنساب والأحســـاب يـــوم المجمـــع
ـــصلحاء أربـــاب القلـــوب الخشـــع
حتـــى غـــدا مـــا فيـــه موضـــع إصـــبع

"بل إن قدماء الشعراء أنفسهم قد ابتلوا بهذه المحنة، فعنترة هوالقائل: "هل غادر الشعراء من متردم"؟ وكان زهير ينقح القصيدة سنة، فيخرجها حولية محككة، فما ظنك بأهل القرن الثالث عشر الهجري في بلاد شنقيط..؟[1]

هل غادرت "هل غادر الشعراء" في
والحـــول يمكثُـــهُ زُهيْـــرٌ حجـــة
بحـــر القـــريض لـــوارد مـــن مشـــرع
أن القـــوافي لســـن طـــوع الإمَّـــع

الركيزة السادسة: قصة الأدب الموريتاني مع قصة الأدب العربي الحديث

ونترك الأديب والناقد اللبناني متى خليل متى يقص قصة الأدب الموريتاني مع قصة الأدب العربي الحديث حيث يقول:[2] إنها: "هي قصة أهل الكهف الذين شاءت لهم إرادة قادرة أن يناموا طوال ثلاثة قرون، ليستفيقوا بعد ذلك من نومهم الطويل، وليجدوا أن كل شيء حولهم قد تغير... ورغم أن العادات قد أصبحت غير عاداتهم، والأحكام غير أحكامهم، إلا أنهم أصروا على الحفاظ على أفكارهم وآرائهم، لأنها جوهر وجودهم، وفضلوا الموت على خيانة ذواتهم. وكذا هوالأمر بالنسبة لشعراء موريتانيا الذين شاءت لهم الأيام أن ينسخلوا من جسم الروحية العربية ردحا طويلا من الزمن، فانقطعت سبل اتصالهم بإخوانهم عرب المشرق، وكتب عليهم أن يعيشوا منفردين منعزلين ليس لهم من منهل وحي سوى نتف شعرية من العصرين: الجاهلي والأموي، وشاعرية سمحاء وطبيعة صحراوية يستمدون من لوحاتها أروع الصور! وماذا يضيرهم إذا كانوا كذلك؟ أليس معيار الأدب الخالد أن يكون منبثقا من روح الأمة، معبرا عن مطامحها، مفصحا عن خلجاتها ونوازعها؟ أليس الشاعر هوالإنسان القلق المستنير الذي يغوص في نفسية قومه يفهمها، ويتشبع بها ويطلقها حية، موّارة في شعره؟!

"وأخيرا، أليس فرض مقياس واحد للشعر لدى جميع الأمم، وفي مختلف العصور، ضربا من المسخ للطاقات المبدعة، ونوعا من تجاهل جوهرية الإنسان ومغالطة صريحة لمنطق التاريخ؟ المادة الإنسانية لا تعرف الإطلاق في الأحكام. والإنسان في جماليته وشعوره وأحاسيسه زئبقي السمة يتغير بتغير المكان والزمان والدين والعرف والحضارة، فكيف يجوز الانصياع لمثل هذا المقياس الأخرق؟!

"إن عبور الصراط بالنسبة للشعر في أمة، أن يظل موّارا بالشعور فياضا بالعاطفة يقرؤه القارئ، فينتشي لمعانيه، ويستجيب لحوافزه. والشعر الموريتاني ما يزال حائزا على هذه الثقة يحرك أشجانا، ويكظم غيظا، ويرقص

1 د. أحمد ولد الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1/1995، ص391-393.

2 تقديم كتاب تطور الأدب في موريتانيا (مصدر سابق)، ص9-11.

قلبا، وكفاه بذلك مبررا للبقاء.

أما عالية الشعر وذيوعه في الآفاق، فليست أبدا تقليد الشعر الرائج وإتباع أسلوبيات الشعراء الناجحين. إن في ذلك العي الأكبر، عالمية الشعر وخلوده أن يغوص في أعماق الإنسان، وأن يكون مشحونا بقيم وأفكار إنسانية خالدة. حينذاك، وحين يلامس مشارف الإنسانية، يحق له الخلود، لأن الإنسانية هي الرابط والجامع وهي الإطار الأدبي الذي لا يزول!!

"يبقى، بعد هذا، أن الأدب هوالإنسان، وأن كل تطور يطرأ على نفسية هذا الإنسان وثقافته، يستتبع بالضرورة، تطورا في وسائله التعبيرية التي يعمدها للإفصاح عن مكنونات وجدانه. وهذه الظاهرة تتجسد اليوم في نطاق الأدب الموريتاني الحديث الذي انفعل بالبيئة الموريتانية الجديدة، فنهض بشعره ونثره للتعبير عنها؛ "لقد جمع الله الشيئين" بعدما توهم كل الوهم أن لا تلاقيا"، وعادت الروابط الأخوية بين موريتانيا والدول العربية الشقيقة تتوطد..." وتتجدد وتقوى في هذه الصحراء: بلاد الشعر والشعراء، فإذا سألت عن خصائص هذه الصحراء، فدع أحد شعرائها وأبنائها البررة البارزين يقص عليك تاريخها الثقافي والأدبي وخصائصها ألا وهوالشاعر والروائي الرائد أحمدُ ولد عبد القادر في رائعته: "سلني عن الصحراء" في الركيزة السابعة من ركائز هذه الخيمة الموريتانية الكبيرة، وإن كانت العادة أن ركائز الخيمة العادية اثنتان. ولكنها كلما كبرت احتاجت إلى كثير من الأوتاد والحبال والركائز والستائر و"الأخراب".

الركزية السابعة: "سلني عن الصحراء" وأدبها وجامعاتها البدوية الراحلة

لعل الشاعر والناقد والروائي أحمدُ ولد عبد القادر (ولد 1941 ومازال حيا) هوخير من يحدثنا عن هذه الصحراء: بلاد العشر والشعراء". فشعره حافل بملاحم الوطنية والقومية والإنسانية وصراع الإنسان الموريتاني من أجل البقاء في هذه الطبيعة القاسية، وعن الثورة العربية في مصر والعراق والجزائر والجهد في فلسطين والنضال في فيتنام، فهوإنسان لا يعرف من الحياة سوى جانبها الجاد الصارم، فقد نزع قلبه ورماه وسيلة حب وهون وأبى أن يعبث ويتغزل والأمة في نفير جهاد ورفض أن ينصاع لنداء العاطفة والمرحلة عقل يخطط وزند يبنى. وقصيدة... يغمرها الحماس ويجليها الوضوح ومعان مستجدة مستقاة من روح المجتمع الجديد، وألفاظ رقيقة ناعمة مقدودة من مقالع رخام لا خشونة فيها ولا جفاء وقلب صادح بالعزم ولسان لاهج بطرح القديم واستقبال الجديد، وراية مرتفعة إلى العلاء تأبى التنكيس وتجهل الخضوع...[1]، فهوابن الصحراء المريتانية الخريت الماهر في مناكبها وفي تاريخها وثقافتها وأدبها وفي "الأسماء المتغيرة" فيها وفي "الأصول أوالقبر المجهول" أو"العيون الشاخصة" وفي "كوابيس" و"أصداء الرمال" والجبال، فها هويطلب السؤال عن هذه الصحراء وجامعاتها" في رائعته "سلني عن الصحراء" التي ألقاها بمناسبة فوزه بجائزة شنقيط للآداب والفنون عام 2001 عن ديوانه "كوابيس" فقال له الوزير والسفير السابق أحمدوولد أغناه الله هذه القصيدة هي الفائزة وهذا نصها.[2]

1 متى خليل متى: تقديم كتاب تطوير الأدب في موريتانيا (مصدر سابق)، ص12.
2 الشعب الموريتانية الدولية، العدد الأول يوم 1 يناير 2005، ص16-17.

إقـــرأ كتابـــك فالحيـــاة ســـراب مـــالم يقـــدها فـــي الـــدروب كتـــاب
يـــا حبـــذا الوطـــن العزيـــز وحبـــذا قمـــر المعـــارف مـــا عليـــه حجـــاب
ولحبـــذا تلـــك الينابيـــع التـــي غمـــر العوالـــم فيضهـــا التسكـــاب
ســـلني عـــن الصحـــراء إن بحـــارها للنـــاظرين طلاســـم وعجـــاب
ســـلني عـــن الصـــحراء فهـــي حقيقتـــي فأنـــا الجـــواب ومـــا علـــي عتـــاب
روحـــي عواصـــفها ولفـــح هجيرهـــا وأنـــا المســـاء نسيمهـــا الخـــلاب
وهـــج الأصـــيل علـــى أديـــم تلالهـــا الـــ ـــبيضا نضـــار بـــاللجين مـــذاب
مـــا الحســـن لـــولا فجرهـــا ورمالهـــا يتخاطبـــان فتســـحر الألبـــاب
مـــا الشعـــر إن لـــم ينبجـــس مـــن قلبهـــا شـــلاله المتـــدفق الغـــلاب
آه علـــى عهـــد المحاظـــر والهـــوى غـــض الأزاهـــر والزمـــان شبـــاب
ولكـــل واد ظلـــه ومروجـــه ولكـــل عطـــر فـــي نـــداه هبـــاب
لا تجهـــل الأرض المحـــب ولا الـــذي فـــي أي حـــب غيرهـــا يرتـــاب
كـــم هدهـــدتني للوهـــاد وهادهـــا ولكـــم رمتنـــي للنجـــاد هضـــاب
وكـــم افترشـــت ترابهـــا مـــن ســـندس وســـكينة مـــن وحيهـــا الجلبـــاب
يتـــنفس التاريـــخ ملـــئ جوانحـــي والذكريـــات خمائـــل ورحـــاب
فـــي فتيـــة هجـــروا المرابـــع وانتضـــو ألـــواحهم وبـــرَى النفـــوس طِـــلاب
السامرون علـى الـدروس وقـد سجى الـ ـليـــل الوديـــع وأســـدل الهـــداب
ويهومـــــون فتســـــريح دفـــــاتر فـــوق الصـــدور مهادهـــا الأصـــحاب
والبحـــر يصـــغي للنجـــوم إذا صـــفت وتدنـــدن الأمـــواج وهـــي عبـــاب
وإذا دنـــا الصـــباح وانعتـــق الشـــذا يتنـــاهض الأحبـــاب والأحـــباب
وتـــلاوة القـــرآن تصعـــد للسمـــا وجلالهـــا بجمالهـــا منســـاب
فكأنمـــا فـــوق العـــرائش رفرفـــت وعلـــى الوجـــود غمامـــة وربـــاب
يـــتمحض النـــور المعتـــق فـــي المحـــا برطـــا فجـــا ويحوطـــه الأنجـــاب
فكأنمـــا الألـــواح ظمـــأى للضحـــى وكأنمـــا أقلامهـــا الأنخـــاب
والأصبحـــي مرابـــط ومبجـــل فـــي هالـــة يزهوبهـــا الترحـــاب
لا يرتجـــي نقـــدا ولا عونـــا ولا تنتابـــه الراحـــات والأتعـــاب
وتثـــار ألـــف قصيـــدة وحكايـــة للأصـــمعي ومـــا انتقـــى الأعـــراب
كـــم زارنـــا غيـــلان ميـــة منشـــدا وركابـــه بـــين العتـــاق عـــراب
والشـــاطبي محـــاور مـــن حولـــه يتشاكـــس الضليـــل والحطـــاب
يـــا دار عـــزة هـــل نســـيت ظعائنـــا يلهوبهـــا التصريـــف والإعـــراب
وظهـــور عـــيس بالمـــدارس تغتـــدي جوابـــة يحتثهـــا جـــواب؟
أم هـــل نســـيت مشـــائخا أنـــوارهم بصـــفائها يتواجـــد المحـــراب؟
مـــاذا عســـى الـــدنيا تقـــول لواختفـــى منـــا الســـلاح وحفنـــا الأغـــراب
حاشـــاك أن تبقـــى الدفاتـــر ضمـــرا أوأن يغيـــب عـــن الســـطور ذبـــاب
أوأن يكـــون مـــن القديـــم تملـــص أوأن يكـــون عـــن الجديـــد غيـــاب

عصر تولى والكؤوس مجرة ... ومناهل الدواوين عذاب
لم يبق إلا طيف بعض صبابة ... سمحاء تكنز عرفها الأكواب
لا عندليب الطلح يمرح صادحا ... وحمائم الغدران والأتراب
أين الأباطح أين أين الأخضر الـ ... ـفواح في عبق الهنا ينجاب؟
مات البشام ولم تعد نفحاته ... سحرا تغازلها الربا فتذاب
كانت لخيطان النعام ملاعب ... ومراقص وهي الغداة يباب
رقها الصرمة أين سار به النوى ... وعيونه النجلاء والأهداب؟
واليوم نستبقي الحنين مدلها ... يقفوطرائد ما لهن إياب
ويظلنا العصر الجديد مخالبا ... غجري وعولمة لها أنياب
فيكاد ضوء الشمس يخطف دوننا ... وتكاد توصد بيننا الأبواب
شنقيط أم العاشقين لأرضهم ... لا شل عزمك في الطريق ضباب
ماذا عسى الدنيا تقول لواختفى ... منا السلاح وحفنا الأغراب
حاشاك أن تبقى الدفاتر ضمرا ... أوأن يحيد عن السطور لباب
أوأن يكون من القديم تماص ... أوأن يكون عن الجديد غياب
أوأن نعيش تمترسا بين العصا ... فير المضامة والزمان عقاب
بالعلم عز الدارسون وما دروا ... طعم المذلة والعزيز يهاب
شنقيط مجدك في الكتاب وإنه ... غدك الجميل ووجهك المخضاب
فهو الرقي لمن أراد تقدما ... وهوالصواب إذا يكون صواب
ومشاعل العرفان أفضل بلسم ... لتهابك الأوجاع والأوصاب

إقرأ كتابك...!!

الخاتمة

ذلك من أنباء الشعر في "هذه الصحراء: بلاد الشعر والشعراء" قصصناها على من لا يعرف شيئا عنها، لأن هذا الشعر عانى من العزلة الجغرافية والثقافية التي كانت تعيشها هذه البلاد قبل استقلالها؛ حتى إن بعض الأخوة العرب يتعثر في نطق اسمها ويستغرب وجود الشعر والفصاحة والخطابة في هذه الصحراء النائية في البوابة الجنوبية الغربية للأمة العربية التي نسيت أوتناست ردحا من الزمان، أن لها في هذه البوابة الغربية الجنوبية أبناء "ذكت فروعهم وصفت عروبتهم ونهضت هممهم بمطامح آمالهم..." وفاتها "أن العروبة الصافية الأديم ما زالت جائشة المرجل في صدور أبناء موريتانيا حتى اليوم التي مازال الشعر فيها خبزا جوهريا (لأبنائها) يأكلون منه ولا يشبعون وينهلون من نبعه ولا يرتوون... وبه يعتزون ويباهون به الأمة التي كان ديوانها الأول وفنها المفضل الذي توجد ملايين من دواوينه المخطوطة والمطبوعة في هذه الصحراء منذ 15 قرنا و65 عاما خلت، ينبغي لأبناء الصحراء هذه التعريف به ويجب على الأمة العربية التعرف عليه. ودعم التنقيب عنه معنويا وماديا!

مصادر المقاربة ومراجعها

الكتب المطبوعة:

- ابن منظور: لسان العرب المحيط تقديم العلامة عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.
- ابن خلدون: المقدمة، مكتبة الشعب، القاهرة، د.ت.
- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، تقديم الدكتور محمد المختار ولد أباه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ومؤسسة منير بموريتانيا ط1989/4م؛
- الخليل النحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية (المحاضر)، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، تونس 1987؛
- سيدي عبد الله بن امبوجه العلوي التشيتي: ضالة الأديب. تحقيق ودراسة الدكتور أحمد بن الحسن ط1/ الإسيسكو، الرباط، 1996؛
- سيدي أحمد ولد الدي: الشعر العربي بموريتانيا قبل القرن العشرين، نشرة الوحدة إدارة الشؤون الثقافية الموريتنية 1969م؛
- الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي: ديوانه تحقيق عبد الله ولد سيدي والناجي فال المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، (مرقون) 1981-1982؛
- المختار بن حامد: حياة موريتانيا، الجزء الثاني: الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990؛
- محمد ولد ابن ولد أحميدا: (1943-1897م): ديوانه جمع وتحقيق ودراسة أحمد ولد حبيب الله. جامعة القاهرة، 1989م؛
- محمذن بن السالم: ديوانه تحقيق محمذن بن عبد الله، المدرسة العليا لتكوين الأساتة والمفتشين – انواكشوط، 1982،1983 ؛
- محمد فال ولد عينينا، ديوانه. تحقيق ودراسة عبد الله ولد بوبوه كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط، 2009.
- محمد طه الحاجري (دكتور): شنقيط أوموريتانيا، حلقة مجهولة في تاريخ الأدب العربي. مجلة العربي، العدد 107، أكتوبر 1967، الكويت؛
- الشيخ محمد الغيث النعمة: الفواكه في كل حين من كلام شيخنا الشيخ ماء العينين، تحقيق مريم بنت العباس ولد بوننه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط، 2003؛
- محمد محمود الصواف: رحلاتي إلى الديار الإسلامية، القسم الأول؛ أفريقيا المسلمة، دار القرآن الكريم، دمشق، ط1/1395هـ/1975م؛
- متى خليل متى: تديم كتاب تطور الأدب في موريتانيا، تأليف أحمد ولد أحميد (ت1989م)، مطبعة جيكا، انواكشوط، 1965م.

المجلات:

- مجلة الشعب الدولية الموريتانية، العدد الأول، يوم 1 يناير 2005؛
- مجلة العربي، العدد 101 ذي الحجة 1986، إبريل (نيسان) 1967 (استطلاع عن موريتانيا)؛
- مجلة ثقافة الصحراء، العدد الأول، خريف 2013، جمعية أصدقاء متحف الطنطان (المغرب).

المواقع الألكترونية:

- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

المخطوطات:

- سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي:
- هدي الأبرار على طلعة الأنوار
- الفتاوى، نسخة الدكتور التجاني ولد عبد الحميد بخط أحمد ولد ممون.

صورة الشنقيطي في الأدب العربي الحديث

د. محمد بن تتا

1. توطئة:

قبل الوقوف عند لمحات من صورة الشنقيطي في بعض نصوص الأدب العربي الحديث يجدر بنا الإلماح إلى موضوعة من أبرز تيمات الشعر الشنقيطي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هي الشوق المبرح إلى الحرمين لأداء فريضة الحج وزيارة الروضة الشريفة.

ولم يكن بعد الشقة وحده ما يقوم حاجزا دون هذا المطمح بل كانت ثمة موانع أخرى ليس أقلها شأنا الأوبئة وانعدام الأمن في مقاطع عديدة من طريق الحاج. والرجوع إلى رحلات الحج وإلى سير الحجاج يبين أن أكثر هؤلاء كانوا قد سلوا الأهل والوطن والمكانة الاجتماعية واستعاضوا من ذلك كله تلبية الداعي آتين من كل فج عميق. ومثل هذا الخيار يتطلب غالبا من أصحابه مستوى رفيعا من العلم والزهد في الدنيا. من أجل ذلك ترسخت على امتداد طريق الحاج صورة للشناقطة هي ما سنحاول تلمس بعض ملامحها في الأدب العربي الحديث. ثمة ملامح أخرى يمكن استجلاؤها من حقول معرفية مختلفة أسهم الشناقطة فيها كما أسهم بعض أعلامهم وعلمائهم في الشأن السياسي بالأقطار التي استقروا بها على امتداد العالم العربي.

2. صورة العالم المعلم المحقق

من أجل ما سبق لم يكن مفاجئا أن نجد الكثرة الكاثرة من هؤلاء الحجيج الزهاد أهل تضلع في العلم والمعرفة: في علوم الشرع وفي علوم اللغة العربية وآدابها. وقد صادف ذلك على مستوى بعض بلدان المشرق العربي خاصة توجها جارفا نحوإحياء التراث العربي الإسلامي ليكون أساسا للنهضة الجديدة[1]

وهوما جعل هؤلاء العلماء الشناقطة في نظر المثقفين عملة نادرة يجب الاحتفاء بها والانتفاع بها أقصى حدود الانتفاع، وكأنهم كائنات قادمة من الزمن القديم. وقد ينطبق هذا الوصف إلى حد بعيد على اثنين من علماء الشناقطة ألقيا عصا الترحال في الديار المصرية، هما: الشيخ محمد محمود بن التلاميد والشيخ أحمد بن الأمين مؤلف كتاب الوسيط. لهذا نجد الشيخ محمد رشيد رضا يتحسر على عدم استفادة الأزهريين من علم ابن التلاميد الشنقيطي:

"وُجد في مصر عالم من علماء اللغة يُعَدُّ في طبقة الأئمة الحفاظ الذين وضعوا لها المعاجم، ودوَّنوا الدواوين وهوالشيخ محمد محمود الشنقيطي، فلم يعرف له فضله أحد من علماء الأزهر ويرشد الناس إلى الانتفاع بعلمه إلا مفتي الديار المصرية الشيخ محمد

1- يقوم مشروع النهضة الذي بشر به محمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغاني على الرجوع إلى ما كان السلف الصالح.

عبده. وكان ينبغي لشيخ الأزهر أن يندبه لقراءة أشعار العرب وأراجيزهم في الأزهر، وقراءة بعض الكتب النافعة ككتاب سيبويه، وكتاب الكامل للمبرد، ويأمر العلماء ونجباء المجاورين بالتلقي عنه إذا كانوا يودون إحياء اللغة، ولا يحيا الدين إلا بحياة لغته"[1]

والواقع أن علاقة ابن التلاميد بالشيخ محمد عبده قد قادته إلى الأزهر ليقدم فيه درسا لم يكن آنذاك بالمألوف هودرس الأدب، الذي يحدثنا عنه طه حسين في الجزء الثاني من كتابالأيام:

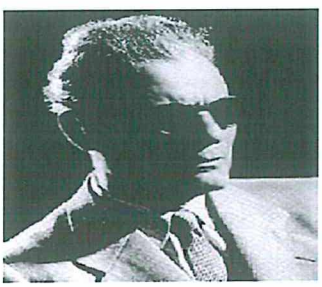

طه حسين (الصورة)

"لم يكد الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء، كما سمع ذكر العلم والعلماء، سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطي رحمه الله وحماية الأستاذ الإمام له وبره به، (...) كان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلبوكانوا يذكرون إقامته في المدينة ورحلته إلى قسطنطينية والأندلس وربما تناشدوا شعره في بعض ذلك، وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في أوربا وأنه لم يكن يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئا أوناسخا(...) وكان الشيخ يقرأ لبعض طلابه هذه القصائد التي تعرف بالمعلقات، وكان أخوالصبي وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس في يوم الخميس أوفي يوم الجمعة وكانوا يُعدون هذا الدرس كغيره من الدروس.

وكذلك سمع الصبي لأول مرة:

فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل"[2]

وإذا كان الطلاب الكبار كما يقول طه حسين لم يستسيغوا درس الأدب، فإن من جيله هو، كما يروي الأستاذ أحمد حسن الزيات من لازم ابن التلاميد وأخذ عنه حتى غيبه الموت:

كنت في مولد هذا القرن غلاما ناشئا أهوى الأدب وأحفظ الشعر وأعالج القريض وكان . وكان مجلسي المختار يقع في الركن الغربي من الرواق العباسي بالأزهر في رفقة من الطلاب كانوا كأنجم الثريا لا يفترقون لا في الدروس ولا في المذاكرة ولا في الرياضة...

وكان حديثنا وحديث المتأدبين يدور على ما تتناقله الأصوات وتتداوله الصحف من الجدال المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطي وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر.
وقد كان الشيخ قد هاجر منذ قريب من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قاهرة المعز فوجد من الإمام محمد عبده لقاء جميلا وعطفا كريما فأجرى عليه رزقا من الأوقاف ووكل إليه إصدار الأمهات العربية الكبرى.

1- محمد رشيد رضا، المنار، مجلة المنار، المجلد: 4، ص: 441، العدد الصادر بتاريخ: 1319/5/16هـ الموافق 31 /8/ 1901م.

2- طه حسين، كتاب الأيام، دار المعارف، الجزء الثاني، صص 154، 155، 156.

فنشر المخصص وحرر القاموس وأملى الأراجيز.(...)

وكان الأزهر قد درج طويلا على إغفال اللغة والأدب من مناهجه حتى أدخلها الأستاذ الإمام في الدراسة الحرة وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطي ودراسة الأدب للشيخ المرصفي.

وكان ابن التلاميد آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية.

(...) ثم لزمته بعد ذلك إلى أن فارقنا إلى لقاء ربه. لزمته أنا وأربعة أوخمسة من الرفاق فكنا نصلي معه الجمعة من كل أسبوع ثم نجلس أمامه بالجانب الأيمن من المنبر فنقرأ عليه ساعة أوبعض الساعة ثم ينصرف إلى داره.

قرأنا عليه كتابه الحماسة ثم ديوان المعلقات وكانت طريقته في التلقين أن يُعنَى بدقة الضبط وصحة الرواية. ولا يشرح لفظا ولا يفسر معنى إلا إذا سألناه...

رحم الله الشيخ... على ما قدم للغة القرآن وفقه السنة وعلم العربية من حسن القول وإخلاص العمل وصدق الخبر"[1]

أحمد حسن الزيات (الصورة)

1- أحمد حسن الزيات، مجلة الأزهر، عدد 22، 1961، نقلا عن موقع محبومحمد محمود ولد التلاميد.

من خلال ما سبق نستطيع أن نتفهم الموقف الذي عبر أحد أساطين الأدب العربي، من تتلمذوا على طه حسين، هوالأستاذ العالم المحقق محمد طه الحاجري، حين يقول:

من اليمين: محمد طه الحاجري ومحمد مصطفى هداره. (الصورة)

"إن الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين (12 - 13) جديرة بأن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخوالأدب العربي على إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة، فهوعندهم - وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم - أدب يمثل الضعف والركاكة، والفسولة في صياغته وصوره ومعانيه؛ إذ كانت هذه الصور تمثل الأدب وفي وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء، فهوفي جملته أدب جزل بعيد عن التهافت والفسولة"[2]، ومن هنا أطلق الحاجري على بلاد شنقيط تلك التسمية التي أصبحت ذائعة: بلد المليون شاعر.

2- محمد طه الحاجري، مجلة العربي الكويتية،العدد، السنة 1967.

3. صورة العالم المعلم الثائر

على أن الحجاج من علماء الشناقطة لم يقصروا جميعا على العلم والتعليم منزوين عن مجريات الحياة العامة في البلدان التي نزلوا بها. فمنهم من اندمج في مسارات التحرر والإصلاح التي شهدتها بلدان المشرق العربين كما كانت حال ابن فال الخير الشنقيطي الذي كان له دور علمي وتعليمي وإصلاحي بارز، ومشاركة في مقاومة العراقيين للاستعمار الإنجليزي (1915)، ودور ديني وقومي في مختلف بلدان الخليج العربي.

محمد الأمين ولد فال الخير الشنقيطي (الصورة)

وحيث إن ابن فال الخير كان مستقره أخيرا في الزبير حيث أسس مدرسة النجاة التي تحمل أحيانا اسمه وكانت له صلاته بسياسيي ومثقفي الكويت فإننا سوف نتوقف عند هذه القطعة الشعرية التي ألقاها صاحبها في حفل تكريمي نظمه النادي الأدبي بالكويت. يقول مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد:

"في رمضان 1343هـ زار الأستاذ الشيخ محمد الشنقيطي الكويت فأقام له النادي هناك حفلة تكريمية ألقيت فيها عدة قصائد وخطب وكان صيقنا الفاضل (يعني سليمان أفندي العدساني) من جملة الخطباء والشعراء. وهذه قصيدته الغراء:

يـــــــاقوم إن نـــــــزيلكم
هـــــذا هوالرجـــــل الوحيـــــد
النـــــاطق الحـــــق الصـــــرا
ح وإنـــــه فـــــي ذا فريـــــد
ياشـــــيخ أنـــــت رجاؤنـــــا
فـــــي نهضـــــة الـــــنشء الجديـــــد
عصـــــر الخرافـــــة قوضـــــت
أركانـــــه حتـــــى أبيـــــد
ياشـــــيخ أنـــــت ســـــهامنا
إن كـــــابر الخصـــــم العنيـــــد
أمـــــا الزبيـــــر فكـــــم لكـــــم
فيهـــــا مـــــن الأثـــــر الحميـــــد
فلكـــــم أشـــــدت مدارســـــا
فيهـــــا وكـــــم أثـــــر مجيـــــد
لوكـــــان مثلـــــك عشـــــرة
فينـــــا لمـــــا بعـــــد البعيـــــد[1]

4. أخيرا: يمكن القول إن المثقف الشنقيطي المهاجر كان قد اضطلع بدور هام في إحياء الثقافة العربية القديمة الذي كان المصلحون ورواد النهضة العربية الحديثة على اختلاف مشاربهم يراهنون عليه في بناء الإنسان العربي الجديد القادر على رفع التحديات. كما انتفع الشناقطة كثيرا بهذه اليقظة العلمية وهم القادمون من بلاد تندر فيها المطبوعات فأكبوا على التحصيل وفقا لمناهجهم التعليمية المحظرية (المرتكزة على الحفظ) فكانوا بذلك مدعاة للإعجاب والانبهار.

1 - عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1987، صص 413- 414

السرد الموريتاني والنثرية العربية:

سياق ظهور الأشكال السردية.

أ.د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
نائب رئيس جامعة نواكشوط

0.0 - يسعي هذا البحث في مقاصده النظرية والمنهجية إلي إضاءة جانب محدد من الأدب الموريتاني، يتعلق بظهور الأشكال السردية وعلاقتها بالتحولات الاجتماعية والثقافية، التي عرفها المجتمع الموريتاني في الربع الأخير من القرن العشرين، من منظور نقدي ينشغل بالعلاقة ما بين الأدبي والاجتماعي، باعتبار الأدبي تجل للاجتماعي في أبعاده اللغوية واللسانية المجسدة للخطاب الأدبي. ذلك أن ما يعرفه المجتمع من تحول اجتماعي واقتصادي وثقافي يؤثر في حياة الأفراد فيظهر في البنية الاجتماعية وأنساقها، ويأخذ تجليات ثقافية، تظهر في اللغة بمطوقاتها وخطاباتها الاجتماعية وأشكال تعبيرها الأدبية والفنية، فاللغة بما هي منطوق وخطاب وشكل هي المعبرة عن هذه التحولات والمكثفة لها والمجلية لأشكال وعيها.إذ لا وجود للأشياء خارج للغة ولا إدراك لها بدونها.

1.0 - من هذا المنطلق يتأسس الوصف والتحليل في هذا البحث علي أطروحة نقدية مؤداها، أن الأشكال الأدبية عامة والسردية منها خاصة، سواء أكانت قصة أو رواية، لا تنشأ في مجتمع من المجتمعات وتظهر إلا في ظل تحولات المجتمع وتغير الوعي فيه، فتأتي الأشكال الأدبية لتعبر عن هذا التحول وتكثف الوعي به، ومن هنا أرتبط ظهور الرواية عند أصحاب النقد السوسيولوجي بتحولات البنية الاجتماعية وصعود الطبقة الوسطى وتجذر خطابها وبروز الوعي المصاحب لها، بينما أرتبط ظهورها عند أصحاب السرديات، بما يصاحب هذه التحولات من تغير في اللغة وتعدد منطقاتها ومستويات نثريتها وتنوع في الخطابات وأشكال كتابتها، ومن هنا يأتي ظهور الأشكال السردية معبرا عن هذه التحولات علي المستوي الأدبي.

2.0 - إن المتتبع لظهور الأنواع والأشكال الأدبية في الأدب العربي الحديث، يلاحظ الارتباط الوثيق ما بين ظهور الرواية كشكل سردي حديث والتحولات الاجتماعية والثقافية، التي عرفتها المجتمعات العربية في سياقاتها المتعددة. ولئن كان ظهور الرواية العربية في مصر والشام مطلع القرن العشرين، فإن ظهورها في بعض المجتمعات العربية الأخرى جاء متأخرا نسبيا. وقد كان المجتمع الموريتاني من أواخر هذه المجتمعات، ذلك أن أول نص روائي موريتاني ظهر كان رواية "الأسماء المتغيرة" للشاعر أحمد ولد عبد القادر 1981. ولعل السؤال الذي يطرح في سياق البحث عن نشأة الرواية الموريتانية وعلاقتها بالتحولات الاجتماعية – هو ما التحولات الاجتماعية والثقافية، التي أدت إلي ظهور

النص الروائي الموريتاني في الربع الأخير من القرن العشرين ؟ وما الذي أحدثته هذه التحولات علي مستوي أدبية النص وشعرية الشكل ؟.

1. ــ الرواية والتحول الأدبي:

1.1 - إن العودة إلى التراكمات النصية، التي أدت إلى ظهور النص الروائي الموريتاني 1981، تظل مهمة لمعرفة العوامل الأدبية، التي كان ظهور الرواية الموريتانية نتيجة لها، ومع أننا تعرضنا لبعض هذه العوامل بشيء من التفصيل في بحوث سابقة([1])، فإن إضاءتنا هنا ستقصر على التحول الأدبي، الذي عرفه الأدب الموريتاني الحديث في نهاية السبعينيات؛ والذي كان ظهور الرواية الموريتانية المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية([2]) إحدى أهم النتائج المترتبة عليه.

وذلك بتركيزنا، هذه المرة على العلاقة ما بين مكونات الأدبية.

ظهور الرواية الموريتانية تحول في أدبية النص الموريتاني:

في وصفنا للسياق الذي أنتج النص الروائي الموريتاني نقصر الوصف والتحليل على مظاهر التحول الأدبي، الذي أدى إلى ظهور الرواية، والمتمثل في تأثير مكون السرد ونثريته، على مكون الشعر وأوزانه التقليدية، هذا التأثير الذي أدى إلى تراجع نسبي لسلطة الشعر وسطوة جماليات ألفته التقليدية، أمام سلطة النثر وشعرية السرد وجماليات تقبلها الجديدة. ولسبب منهجي يتعلق بالمنهج النقدي المتبني خيارا لمقاربة النصوص والتأريخ لها، نستأنس في وصفنا لهذا التحول بالشعرية التاريخية المركزة في تأريخها لظهور الأنواع الأدبية وأشكالها أو اختفائها، على وصف أدبية النصوص.

- التحول الأدبي وتفكيك مركزية الخطاب الشعري:

1.1.1 - عرف الأدب الموريتاني الحديث مع نهاية السبعينيات تحولا أدبيا ملحوظا، كانت أهم مظاهره تفكيك مركزية خطاب الشعر، وتراجع تدريجي لشعريته، وبروز لشعرية النثر العربي وأشكال كتابته. فقد هيمنت سلطة الشعر في هذه البلاد على النثر هيمنة تركت انطباعا بأن أصحاب هذه البلاد لم ينتجوا نثرا، وهو انطباع عززته المكانة الإبداعية للشعر وثقافيته، التي حظي بها في المجتمع الموريتاني التقليدي وجذرتها جماليات ألفته وأعراف تلقيه السائدة حينها.

ومع أن العلاقة ما بين الشعر والنثر قد اتسمت بالهيمنة المطلقة للشعر على النثر

---

1 - الإشارة هنا إلى مجموعة من البحوث المنشورة في بعض الروايات الأكاديمية العربية المحكمة، نذكر منها:

- ظهور الرواية الموريتانية تحول من أدبية الشعر إلى أدبية القص "مجلة الأدب البيروتية، عددها المزدوج 4/2 مارس 1997.

- الأشكال التراثية والنثرية: مساهمة في الوعي بالعلاقة (النص الموريتاني نموذجا) فصول، المجلد 17 عدد خصوصية الرواية العربية الجزء الثالث.

- الرواية الموريتانية وازدواجية الأصل: قراءة للثابت والمتحول من النص "مجلة "ألف الصادر عن الجامعة الأمريكية، عدد 20 لعام 2000.

2- من العلامات الدالة أيضا على تحول أدبية الأدب الموريتاني نحو شعرية السرد وجماليات تقبله، تزامن ظهور الرواية الموريتانية المكتوب بالفرنسية مع الرواية العربية، فقد ظهرت رواية" رلا أو أصوات الشرف" ليوسف كي سنة 1983..

- Rella ou les vois de l honneur nouvelles، Dakar 1983، éditions africaines

سوء على مستوى إنتاج النصوص أو على مستوى جماليات الألفة والتلقي، إلا أن هذه العلاقة بدأت في نهاية السبعينيات - وفي تزامن مع التحول الاجتماعي الذي عرفته البلاد بقيام الدولة المركزية(1)، تشهد تغيرا ملحوظا تمثل في بروز سلطة للنثر مناهضة لسلطة الشعر، ناتجة عن وضع التخاطب اللغوي والأدبي للأفراد في الفضاء المغلق للمدينة.

ـ النثرية ووضع التخاطب الجديد:

2.1.1 - لقد أدى وضع التخاطب الجديد في المجتمع الموريتاني نهاية الستينيات، بآليات قوله الخاصة، إلي إنتاج نثرية لغوية وأدبية لم يعرفهما مجتمع البداوة السابق على قيام الدولة المركزية، وهما النثريتان اللتان ستحكمان مسار التحول الأدبي لا حقا: فعلى قدر كثافة هاتين النثريتين وتعقد صيغة التخاطب فيهما، ستتغير أدبية هذا الأدب وشعرية أشكاله باستحداث طرائق جديدة من القول الأدبي تناهض سابقتها، وتسعى لاحتواء جماليات تقبلها، أكثر ملاءمة لوضع التخاطب الجديد.

لقد خلق وضع التخاطب الجديد تراجعا نسبيا للشعر وتقلصا لجماليات تقبله التقليدية، وهو تراجع سيوازيه تجذر لأدبية النثر وشعرية أشكاله، وتبلور لجمالية حديثة، تنقض شعرية التقليدية وتتبنى جمالية أدبية جديدة، هي إلى أدبية القص وجماليات السرد وأشكاله أقرب منها لأدبية الشعر وشعريته التقليدية، مما أظهر تغيرا في أدبية الشعر ومأتى الحسن فيه وبروز أدبية النثر وشعرية أشكالها.إذ التحول الأدبي وقتها لم يكن اتساعا لدوائر النثر فقط، وإنما تغير في أدبية النص الأدبي ذاته، وهوتغير كيف التجربة الأدبية تكيفا جديدا، تعددت معه أساليب القول الأدبي، وتنوع مأتى الحسن في الكلام.

هذا التحول الأدبي الذي اتضحت معالمه في النصف الأول من الثمانينيات جعل التجربة الأدبية الجديدة، تستقبل بفتور وبنوع من الرفض والتحفظ من طرف دوائر التلقي التقليدية، لأن الجمهور لم يكون بعد قد خبر الشعرية الجديدة، ومن هنا لم يكن غريبا - في نظرنا - أن تتضارب الآراء والمواقف من تجربة شعر الحداثة التي كانت قصيدة "السفين" لأحمد ولد عبد القادر إحدى أهم بؤر اشتعالها، وهي المواقف والآراء التي تحولت مع الزمن إلى حوارات نقدية على صفحات يومية (الشعب) وإلى "معارك نقدية" بين الأكاديميين في الجامعة وعبر الوسائل الإعلام حول تجربة الشعر الجديد والموقف منه.

3.1.1 - هذا الموقف من شعر الحداثة يكشف عن ملامح الشعرية الجديدة، وما يمتاز بها خطابها من أساليب أدبية مفارقة في أدبيتها وجماليات تلقيها الأدبية الكلاسيكية السائدة، التي ألفها منتجو ومستهلكو أدب ما قبل التحول؛ حيث الحضور القوي في النصوص الجديدة لأدبية القص وشعرية السرد، وما تمتاز به هذه الأدبية من تعدد لغوي وتوظيف للأنساق اللغوية التراثية، وكثافة في المتخيل، ومأتى الحسن في السرد، إلى غير ذلك من السمات الفنية والجمالية التي تقوم عليها أدبية

1 - تعرضنا لملامح هذا التحول في بحث منشور تحت عنوان "المجتمع الموريتاني: من القبلية إلى الدولة "المستقبل العربي؛ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد 243 مايو 1999 ص. ص. -51 38

النثر وشعرية أشكاله المبانية أحيانا في بلاغتها، لبلاغة النص الشعري التقليدي.

2- تراكم السرد وتحول النثرية

1.2 - لم تقتصر مظاهر التحول الأدبي عند تفكيك مركزية الخطاب الشعري، وإنما تجاوزته لتأخذ أبعادا أخرى تتعلق بمستويات تراكم السرد وبدرجات تطويع النثر العربي الفصيح في موريتانيا، وقد عملت هذه المستويات على إنتاج أدبية نثر كان لها الدور الأساسي في ظهور الأشكال السردية الموريتانية، وهي الأدبية التي أدت كبرى درجات كثافتها الفنية الشعرية إلى ظهور النص الروائي في مطلع الثمانينيات. ولأننا بصدد رصد التحولات الأدبية التي ساهمت في ظهور هذا النص فإننا سنهتم هنا بإحدى مكونات هذه الأدبية التي لم نتوقف كثيرا عندها في السابق حين انتهينا إلى أن "ظهور الرواية الموريتانية كان تحولا من أدبية الشعر إلى أدبية القص"([1]) ويتعلق هذا المكون بالنثرية ودروها في ظهور الأشكال السردية.

- تراجع النثرية التراثية وظهور النثرية العربية الحديثة:

تمثل أدبية النثر السياق الأدبي الخاص الذي أنتج أشكال السرد الموريتاني فقد أدت تراكمات نثرية وسردية إلى نشوء نثرية أدبية ذات جماليات شعرية خاصة متنوعة ومتعددة، متنوعة بتنوع النثر الموريتاني واختلاف أنساقه اللسانية واللغوية، ومتعددة بتعدد درجات استيعاب أنواع هذا النثر للسرد وجماليات القص، فقد مرت النثرية الأدبية الموريتانية في نشأتها بمرحلتين، أنتجت كل منهما أشكالها السردية الخاصة بها، وهيمنت على الأخرى أثناء تطور النثر العربي الفصيح في موريتانيا، وسنركز في وصفنا لنشأة هذه الأدبية على العلاقة ما بين النثريتين التراثية والحديثة،([2]) وما تأسست عليه هذه العلاقة من مناهضة ومعارضة، ومن هيمنة وسيادة أدت كلها حينا إلى تغير في مواقع السلطة الأدبية لكل من النثريتين وأشكال كتابتهما، مما ترتبت عليه نتائج مست بنية النص السردي وأشكال كتابته، ناتجة هذه المرة عن أثر سلطة النثرية الأدبية المهيمن عليها لا المهيمنة.

- ظهور الرواية وهيمنة النثرية الحديثة:

1.1.2 - من الأفكار الأساسية، التي ننطلق منها في تصورنا لظهور الأشكال السردية، القول بأن أشكال الكتابة عامة، لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة([3])، ذلك أن تداول هذه النثرية وتكثيف تطويع نثرها لغرض ما، هو الذي يؤدي إلى ظهور أشكال كتابتها وتكريس سلطتها وغياب أو اختفاء أشكال كتابة نثرية أخري. والنثرية هنا

1 - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: "ظهور الرواية الموريتانية تحول من أدبية إلى أدبية القص "الآداب" البيروتية عدد ¾ مارس / إبريل 1997 ص/51

2 - سبق وأن تعرضنا لنشأة النثريتين التراثية والحديثة بالوصف والتحليل في كتاب "بنية الخطاب ودلالتها في رواية "القبر المجهول أو الأصول لأحمد ولد عبد القادر: مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، تقديم د. سعيد يقطين، مرجع مذكور سابقا، (أنظر الفصل الثاني) لذلك سوف نقتصر هنا على العلاقة ما بين النثريتين

3 - تجد هذه الفكرة أصولها الشعرية عند باختين وجماعة فرانكفورت، وبيبير زيما في عناية باختين بمبدأ الحوارية وزيما بتعدد اللغات الاجتماعية في النص الأدبي عامة والسردي خاصة

مختلفة عن النثر فهي " فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي لغرض كتابي ما، وفق شروط إبانة العربية، والنثرية بهذا المعنى فعل لغوي متحقق وفق سياق محدد وعبر نسق لساني متميز ومحدد. ومن هنا جاء ثراء النثرية وتعددت أنواعها ومصادر ثرائها في اللسان العربي"([1]) وقد عرفت النثرية العربية بروز نثريتين تراثية وحديثة، لكل منهما أنساقه اللسانية وأشكال كتابته، الخاصة به.

وفق هذا التصور نعتبر أن هيمنة أشكال الكتابة السردية الحديثة على الكتابة الإبداعية العربية إلى بداية السبعينيات من القرن العشرين، وتبني النثرية العربية الحديثة لهذه الأشكال، إنما كان نتيجة لانحسار النثرية العربية التراثية بأنساقها اللسانية وأساليب إبانتها وطرق تحقق مجازاتها، في وجه مد النثرية العربية الحديثة، وبلاغتها المعاصرة، وتراجعها إلى مواقع خلفية، فرضها عليها مسار تحديث المجتمعات العربية، وموقع تبعيتها للآخر لاحقا. فكان من نتائج ذلك على المستوى الأدبي، تراجع النثرية التراثية وأنساقها اللسانية في موريتانيا إلى مواقع خلفية في الإبداع والثقافة. وهي السمة الخطابية التي عرفتها نثرية المجتمعات العربية الحديثة في أمكنة وأزمنة متفاوتة في تقادمها.

إذ يمكن القول هنا أن كلا من هذه المجتمعات العربية - وخلال فترة تحديثها - قد عرفت هذا الانزياح التدريجي للنثرية التراثية إلى مواقع خلفية: تاركة الموقع الأمامي لنثرية عربية حديثة، ومكتفية بدرجات من الحضور متفاوتة في النثرية الأدبية لهذه المجتمعات.

هذا الانزياح على مستوى النثرية، هو الذي يفسر - في نظرنا - ظهور الأشكال السردية الحديثة في المجتمعات العربية - عبر أزمنة متفاوتة، كما يفسر تأخر ظهورها في البعض الآخر([2])، وهي الأشكال التي ظهرت منذ بداية القرن العشرين في بعض هذه المجتمعات، وتجذرت في النثرية العربية الحديثة لاحقا، بوصفها أشكالا فينة معبرة عن تحولات هذا الواقع وقادرة على احتواء تشظياته والإمساك بها.

ومن الملاحظ أن هيمنة أشكال الكتابة السردية الحديثة بنثريتها العربية، المعولة على بلاغة الفصحى الحديثة ومستويات تطويعها للنثر العربي الحديث - قد استطاعت أن تعبر عن متغيرات المجتمع العربي الجديدة، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من إضاءة مساحات من بنية هذا المجتمع لأنها، لم تتوسل بالأنساق اللسانية([3]) القادرة على إضاءتها، مما استدعى ظهور أشكال سردية تراثية حديثة، أقدر على امتصاص

1 - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: "بنية الخطاب ودلالتها في رواية "القبر المجهول أوالأصول" مرجع مذكور سابقا، ص/61

2 - الإشارة هنا إلى النص السردي الخليجي واليمني أساسا، حيث لم تظهر الرواية في أغلبية المجتمعات الخليجية قبل الربع الأخير من القرن العشرين.

3 - النسق اللساني: هو الإبانة عن معنى ما، وفق تقاليد من القول معينة، تجعل هذه الإبانة سمة لغوية مميزة ومفارقة لسواها، نتيجة لاكتساب هذه الإبانة معجمها اللساني، الخاص بها وطريقتها الخاصة في إجراء اللغة وتركيب مجازاتها وفق سنن من القول اللغوي محددة. وقد عرف اللسان العربي بتعدد أنساقه اللسانية التي حققت فعل اللغة وكونت خبرة تطويع الفصحى عبر الزمن وهي الأنساق التي يمكن أن نذكر منها: النسق اللساني الصوفي والفقهي وغيرهما.

خصوصيات هذا المجتمع العربي والتلبس بمضامينه الاجتماعية والثقافية والروحية، بفعل انفتاحها على النثرية التراثية، وهذا ما تجلي في اللحظة الثانية من تطور الرواية العربية نهاية الستينيات مع جيل روائيي رواية التراث.

ولئن لم يكن من اهتمامنا، في هذا المقام التعرض لسياق هيمنة النثرية العربية الحديثة على النثرية التراثية عامة، والنتائج التي ترتبت عن هذه الهيمنة بالنسبة لأشكال السرد العربي - فإن اهتمامنا هنا، سيقتصر على السياق الخاص بالنص الموريتاني باعتباره وليد تراكمات نثرية سردية لاحقة على السياق العربي، ومستفيدة من تجربة هذا الأخير. وهو سياق يشاركه فيه النص السردي العربي المزامن له في الظهور([1]) واللاحق له.

فما يجمع بين النصين الموريتاني والعربي المزامن له في الظهور، هوأنهما وليدا سياق لا حق على نشأة السرد في البلدان العربية وتجذر أشكاله فيها، ومن هنا كانا إلى حد كبير نتاج أفق تجربة السرد العربي وخبرتها النصية واللغوية: نتاج خبرتها باللغة المتحققة عبر النثرية العربية، المتأسسة على بلاغة عربيتنا الحديثة بأنساقها اللسانية المتنوعة وبمستويات إبانتها المختلفة، وخبرتها النصية في تطويع أشكال كتابتها السردية، التراثية منها والحديثة وإرساء "قواعد الشعرية الحديثة، وهي قواعد لها تاريخ وتاريخها في الأدب العربي يرتبط بتحولات اجتماعية تركت أثرها على الوعي العربي"([2]).

النثرية الأدبية الموريتانية: العلاقة ما بين المكونات

2.1.2 - في وصفنا لنثرية الخطاب الأدبي الموريتاني الحديث - وتحقيبا لزمن تشكلها الثقافي - نبدأ بالنثرية التراثية، باعتبارها السابقة في الظهور، المختلفة أشكال كتابتها السردية (المقامات، الرسائل، الفتاوى، الأحاديث، الأقفاف، الكرامات لبراوت) عن أشكال الكتابة السردية الحديثة (الأقصوصة، القصة القصيرة، الرواية) والمتراجعة إلى مواقع خلفية في التداول والإبداع لا حقا، في وجه النثرية العربية الحديثة.

النثرية التراثية: وظهور أشكال السرد التراثي.

1.2.1.2 - لقد كانت نثرية الخطاب السردي الموريتاني الحديث في منشئها، نثرية تراثية محلية، وليدة تعاطي أساليب من القول النثري العربي الفصيح، التي ألفها وتعاطاها متكلم والفصحى في هذه البلاد قبل قيام الدولة المركزية، فلما قامت الدولة الوطنية الأولى، وبدأت الحاجة الأدبية واللغوية التداولية إلى النثر تتعاظم وتتكاثف، كان التراكم النثري القائم وقتها تراكما نثريا محليا، يستمد أساليبه النثرية وطرائق كتابته من مستويات تطويع الفصحى، كما خبرها متداولوالفصحى في بلاد شنقيط كتابة ونطقا إلى منتصف الستينيات. فكانت إذن النثرية العربية في

1- من الملاحظ أن ظهور أشكال السرد الحديثة (القصة، الرواية) كان متأخرا في بعض المجتمعات العربية كالمجتمعات الخليجية واليمن، وبعض دول المغرب العربي (ليبيا وموريتانيا).

2 - يمني العيد/ شعرية القص وملامح التجديد في النص القصصي العماني "مجلة الطريق" عدد، يناير، فبراير، 1997، ص/146

موريتانيا، إلى منتصف الستينيات نثرية تراثية محلية متنوعة الأنساق اللغوية، مشبعة بمعجم البيان العربي القديم وآليات قوله وإبانته وطرائق بناء مجازاته وتراكيبها. وإن هيمن فيها النسق اللغوي الفقهي، كما خبرته تقاليد التداول اللغوي في بلاد شنقيط، ومن هنا كانت هذه النثرية المحلية التراكم الذي نشأ عنه النثر العربي الحديث في موريتانيا منذ الستينيات القرن العشرين بمستوياته اللغوية والفنية المختلفة.

هذا التراكم النثري الفصيح، هو الذي سيولد بمرور العقد الأول من الستينيات وبالتعايش لاحقا مع النثر العربي الحديث الوافد، نثرية أدبية مزدوجة يهيمن عليها مكون تراثي محلي([1]) وليد أنساق لغوية تراثية وقوالب كتابة فقهية عرفتها الثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد هي قوالب الكتابة الفقهية التي تمحضت أشكالا سردية فنية منذ الربع الأخير من القرن العشرين.

لقد أدت هيمنة المكون التراثي الفقهي على المكون النثري الحديث الناشئ في النثرية اللغوية والأدبية في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات إلى ظهور أشكال سردية تراثية محلية متمحضة فنيا عن قوالب الكتابة الفقهية. وهي الأشكال السردية التي أنتجها سياق هيمنة النثرية التراثية نتيجة لتعاطي الدرس المحضري([2]) للخطاب الفقهي كتابة وتدريسا.

وفي هذا السياق النثري واللغوي تمحضت الفتاوى والرسائل والاقفاف والأحاديث والكرامات وغيرها من قوالب الكتابة الفقهية، أشكالا سردية أنتجها سياق سيادة النثرية التراثية على النثرية العربية الحديثة الناشئة، وإن كان من الملاحظ أن هذا التمحض الفني سيتزامن أيضا مع ظهور نصوص رواد القصة القصيرة، مما يعني أن النثرية المحلية السائدة وقتها، قد بدأت سلطتها الأدبية تشهد نوعا من المعارضة الأدبية، من طرف سلطة النثرية العربية الحديثة الناشئة، والتي لا يتجاوز زمن تداول نثرها العربي الحديث وقتها عقدا من الزمن.

النثرية الحديثة: المناهضة وظهور أشكال السرد الحديث.

2.2.1.2 - مع بداية السبعينيات ونتيجة لما حمله فضاؤها من تحولات اجتماعية اقتصادية وسياسية ثقافية، عرفت النثرية العربية الحديثة في موريتانيا تطورا ملحوظا، يمكن أن رصده من خلال تنوع أنساق هذه النثرية وتعدد المواقع التي تصدر عنه. فبالإضافة إلى ما شهدته هذه النثرية من تنوع في منجزها النصي أو منطوقها التداولي،

1- الإشارة هنا إلى ما يعرف في السرد ا لمحلى بـــ"الأقفاف"و"البراوة "و" الفتاوي"و"الرسالة " وكلها أشكال سردية محلية متمحضة فنيا عن أشكال الكتابة الفقهية التي كانت سائدة في المجتمع الموريتاني التقليدي، تعرضنا لها بشيء من التفصيل في كتابي: "بنية الخطاب ودلالتها في رواية القبر المجهول أوالأصول" المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1999 وفي "الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال الأدبية، دار الأمين ن القاهرة 2001

2- المحضري: نسبة إلى المحضرة وهي"مؤسسة ثقافية إسلامية نشأت في بلاد شنقيط لتكون أداة لنقل المعرفة وإرساء أسس الدين، وتعهد بالرعاية في بلاد لم تعرف من الحواضر إلا ما ندر، وإنما كان جل أهلها بداة متنقلين "انظر"بلاد شنقيط المنارة والرباط"تأليف الخليل النحوي، منشورات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1987، ص/61

تمثل في تفاوت درجات كثافتها الفنية من نص لآخر، بحسب الموقع الذي تصدر منه، تعددت المواقع المنتجة للنثرية الحديثة وتداخلت الدوائر التي عنها تصدر، وقد كان لهذه المواقع([1]) الدور الأساسي في ظهور أشكال السرد القصيرة في موريتانيا في منتصف السبعينيات.

ففي تزامن مع الأشكال التراثية المحلية بدأت أشكال السرد الحديثة تظهر على يد رواد القصة القصيرة والأقصوصة والخاطرة والمقالة الاجتماعية الساخرة، وهي الأشكال التي كانت وليدة تراكمات من تطويع النثر العربي الفصيح في هذه البلاد، أنتج مع بداية تكوين الدولة الوطنية (1960) وبروز مؤسساتها، نثرية من القول العربي الفصيح تناهض النثرية التراثية الفقهية حينها، وتسعى لاحتوائها، وهي النثرية الحديثة، التي أخذت تكرسها مؤسسات الدولة الثقافية الجديدة، الإعلامية منها والتعليمية، وشيئا فشيئا بدأت تتسرب إلى التداول اللغوي للبنية الاجتماعية أساليب اللغة العربية الحديثة وطرق إجرائها، فكان لوسائل الاتصال يومها دورها البارز في تعزيز تداول هذه الأساليب وترسيخ نثريتها في الستينيات.

هيمنة النثرية العربية الحديثة وظهور الرواية:

مع بداية الثمانينيات وبفعل التراكم النثري للنثرية العربية الحديثة في موريتانيا، والتراجع الملحوظ للنثرية التراثية المحلية وأشكال كتابتها السردية - ظهر النص الروائي الموريتاني تعبيرا عن التبادل في المواقع ما بين النثريتين المتعايشتين، فقد تراجعت النثرية التراثية تاركة الواجهة للنثرية العربية الحديثة وأشكال كتابتها، في الوقت الذي نشط فيه تداول هذه الأخيرة، وتوالت تراكمات نصوص أشكال سردها القصيرة مع جيل ما بعد الرواد، مما يمكن القول معه إن ظهور النص الروائي الموريتاني كان تحولا من سلطة نثرية تراثية فقهية مهيمنة وقتها، إلى سلطة نثرية عربية حديثة ذات ملمح محلي، عرفتها أدبية النثر العربي في موريتانيا بداية الثمانينيات.

على هذا النحويتبين لنا مما سبق، أن ظهور الرواية في الأدب الموريتاني الحديث، كان تعبيرا فنيا عن تحول أدبي في هذا الأدب، سواء في بعده الخارجي المرتبط بأدبية النوع الأدبي حيث كان ظهور الرواية تعبيرا عن تأثير أدبية النثر وجمالية أشكاله السردية على أدبية الشعر وشعريته التقليدية منذ بداية الثمانينيات أوفي بعده الداخلي المرتبط بأدبية النثر ذاتها وجماليات أشكالها السردية.

لقد كانت الرواية الشكل السردي المعبر عن هيمنة النثرية العربية الحديثة وجمالية أشكالها الحديثة على النثرية التراثية الفقهية وأشكال كتابتها المحلية منذ بداية الثمانينيات، وباختفاء جل هذه الأشكال وتراجع نثريتها الأدبية إلى مواقع خلفية في الإبداع دون أن تفقد سلطتها الأدبية وحضورها الفني في الأشكال السردية الموريتانية الحديثة المهيمنة خاصة منها الرواية.

1 - تعرضنا لأهم هذه المواقع في الكتابين المذكورين سابقا: "بنية الخطاب ودلالتها في رواية القبر المجهول أوالأصول " و"الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني".

النثرية الموازية: وظهور الرواية المكتوبة بالفرنسية

3.2.1.2 - لئن سعينا فيما سبق إلي الاشتغال بمظاهر تحول الأدبية في الأدب الموريتاني الحديث،المتعلقة بالأدبية وتغير شعريتها في ارتباطها بشعرية السرد ومأتى الحسن فيه - فإن الوصف ظل مقتصرا علي النصوص العربية مستبعدين إلي حين النصوص المكتوبة بالفرنسية لاقتصار البحث عليها ولتتضح رؤية السياق العام للتحول الأدبي، لذا يتعين علينا أن نشير إلي علاقة الأدب الموريتاني المكتوب بالفرنسية بهذا التحول، لإجلاء ملمح آخر من ملامح حضور شعرية السرد وأشكاله، ليس مرتبطا هذه المرة، بالسرد العربي.

يمثل الأدب العربي الموريتاني المكتوب بالفرنسية النصوص الشعرية والنثرية السردية التي كتبها شعراء وكتاب موريتانيون باللغة الفرنسية منذ منتصف الستينيات، وقد نشأ هذا الأدب في تزامن مع الأدب الموريتاني الحديث المكتوب بالعربية، بحكم الثقافة المزدوجة (العربية والفرنسية) للمثقف والمبدع المتعلمين في المدارس الحكومية حينها. فقد أدت هيمنة الفرنسية على المقرر الدراسي والحضور القوي لها في الإدارة والوسط الثقافي في الستينيات والسبعينيات - إلى ظهور نثرية فرنسية قوية الحضور، نشطة التداول بين الأفراد.

النثرية الفرنسية وظهور النص السردي والمسرحي:

وقد أنتجت هذه النثرية مع منتصف السبعينيات نصوصا سردية ومسرحية وشعرية، عبرت عن الوجه الآخر للإبداع الموريتاني المكتوب بالفرنسية، وأكدت الحاجة الفنية والأدبية لأشكال السرد وشعريتها. وفقد ظهرت في تواز مع ظهور الأشكال السردية العربية القصيرة، أعمال سردية ومسرحية للروائي والمسرحي يوسف غاي، فصدرت له مجموعته القصصية([1]) LOrée du Sahel سنة 1975، ثم أتبعها بمسرحيته في نفس السنة،([2]) Les éxiles du Gaumel بالإضافة إلى القصائد الشعرية التي كان ينشرها في بعض الجرائد والمجلات. وقد تزامن مع أعمال يوسف غاي الإبداعية جهود أدبية ونقدية([3]) وثقافية([4]) أخرى لمثقفين موريتانيين، أظهرت كلها، تمكن أصحابها من اللغة الفرنسية ونثريتها الأدبية، ويمكن أن نذكر من الجهود الأدبية ذات الطابع الإبداعي، كتاب: " Wasit: Tableau de La Mauritanie au début du 21e"([5]) الصادر 1971 وهوجهد من صاحبه المرحوم أحمد باب مسكه لترجمة

1- Youssef Gaye.A LOrée du Sahel Nouvelles 1975، Dakar- bidjan،éditions affricainnes

2- Youssef Gaye ; Les exiles du goumel nouv ed aff Dakar- Adidan،1975

3- الإشارة هنا إلى دراسة د. محمد المختار ولد أباه عن الشعر الموريتاني القديم المنشورة في مجلة "ارابيك" 1971

M. ould Bah: introdiction à la poésie Mauritanienne (1650.55 – 1900) arabica، 1971 –1.P.1.48

4 - الإشارة هنا أيضا إلى بعض الدراسات الثقافية المتناولة للحياة الاجتماعية والسياسية لموريتانيا الحديثة مثل كتاب حامد الموريتاني

Hamed El mouritanie: L'indépendance néocoloniale edion Six continet. Paris، 1974

5 -Ahmed Babe Miska: Wasit: Tableau de Mauritanie au début du 21c Klinsiek، Paris، 1971

كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"([1]) لأحمد بن الأمين الشنقيطي، المتضمن وقتها لأهم مدونة شعرية منشورة، للشعر الموريتاني القديم.

وقد كان كتاب المرحوم أحمد باب مسكه، فاتحة أدبية في اهتمام الكاتب والباحث الموريتاني بالربط ما بين الأدبين من خلال ترجمة نصوص الأدب العربي الموريتاني إلى الفرنسية. وهي الترجمة التي أظهرت حينها، قدرة الكاتب على الترجمة الأدبية لنصوص الأدب الموريتاني القديم، ترجمة واعية بعبقرية اللغتين العربية المنقول عنها والفرنسية المنقول لها، وحاذقة في نفس الوقت لشعرية الأدبيتين لحظة ترجمة النصوص الشعرية والنثرية الواردة في الكتاب المترجم إلى الفرنسية.

مع بداية الثمانينيات وفي تواز مع ظهور النص الروائي العربي، ظهر أول نص روائي موريتاني مكتوب بالفرنسية سنة 1983، هورواية " Rella ou les vois des honneurs"([2]) ليوسف غاي، ثم تلتها نصوص رواية أخرى، لروائيين آخرين من مثال: موسى ولد أبنو، الذي نشر روايتي([3]) L'amour Impossible و([4])Barzakh والقاسم ولد أحمد الذي نشر رواية([5]) Le dernier des nomades هذه النصوص الروائية، أنتجتها نثرية فرنسية موازية للنثرية العربية أدت إليها تراكمات من تطويع النثر الفرنسي، وميل أصحاب هذا التطويع إلى السرد وشعرية أشكاله في التعبير عن المضامين الاجتماعية الجديدة، وهي النثرية التي أنتجت أيضا نصوصا سردية وروائية مازالت مجهولة من طرف القارئ نتيجة لعدم نشرها وعدم توفر المنشور منها. ومن هنا ظلت معرفة ملامح هذا الأدب والاطلاع على نصوصه مقصورة على دوائر ضيقة([6]) من المهتمين بهذا الأدب وخصوصيته الأدبية.

- النثرية العربية الحديثة والهيمنة علي النثرية الموازية:

4.2.1.2 - ومع تقدم الزمن أدى وضع التخاطب الجديد، في نهاية الثمانينيات، الذي هيمنت فيه النثرية العربية وأشكال كتابتها السردية على النثرية الفرنسية الموازية لها - إلى انحسار للنثرية الفرنسية وتراجع لسلطتها اللغوية والأدبية بعد أن بلغت هذه النثرية أوج نشاطها الأدبي والنقدي في منتصف الثمانينيات، حيث مثل أصحابها إحدى أنشط الدوائر النقدية والثقافية، المتناولة لنصوص الأدب الموريتاني الحديث بالدراسة والترجمة

1 - أحمد بنت الامين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط "مكتبة الخنجي" القاهرة، 1911

2 -Youssef Gaye: Rella ou les vois de L honneur، Nouv edition Aff. Dakar – Abidjan، 1983

3 -Moussa ould Ebnou: Barzajhm Lharmattan/ coll. encre Noires، Paris، 1994

4 - -Moussa ould Ebnou: Barzajhm Lharmattan/ coll.encre Noires، Paris1994.

5 - El Ghassem ould Ahmed: Le dernier des nomades، lharmattan/ coll، encre noirs، Paris 1993.

6 - الإشارة هنا إلى أساتذة الأدب الفرنسي وطلابهم بكلية الأدب بجامعة نواكشوط وبالمدرس العليا للأساتذة، بالإضافة إلى بعض الباحثين الموريتانيين المهتمين بهذه النصوص الذين التحقوا بالجامعات الأجنبية.

و"دائرة حوار 84"([1]) التي أثارها صدور قصيدة "السفين" لأحمد ولد عبد القادر 1984، تظهر هذا الحضور، حيث، ترجم النص إلى الفرنسية من طرف أحمد سالم ولد التاه وشارك في دائرة الحوار من الباحثين والنقاد المنتمين إلى هذه النثرية محمد هيبتنا ولد سيدي هيب، ومحمد سعيد ولد همدي وغيرهما، ممن ساهموا في إثراء الحوار النقدي الذي أثاره وقتها مقال د. محمد الناجي ولد محمد أحمد عن هذه القصيدة، وساهمت في تعميق طرحه مجموعة من النقاد والباحثين من أصحاب النثرية العربية من أمثال إسلم ولد بيه وعبد الله ولد الشيخ أحمد وآخرين.

خاتمة:

علي هذا النحويتبين لنا أن ظهور الأنواع والأشكال الأدبية في موريتانيا، كان نتيجة لتحول اجتماعي وثقافي عرفه المجتمع الموريتاني والدولة الوطنية في الربع الأخير من القرن العشرين، تحولت معه أدبية القول الأدبي فكان ظهور الأشكال السردية الحديثة في موريتانيا نتيجة من نتائج هذا التحول، وقد رصدنا ملمحا من مظاهره ارتبط بتغير النثرية العربية في هذه البلاد، كما طوعها متكلموها وكتابها وشعراؤها، فتنوعت الأشكال السردية وتعددت بتغير النثرية وتنوع طرائق التعبير فيها ومستويات الإبانة فيها، وإنتاج القول ومصادر الإمتاع والمؤانسة فيها، وجماليات ألفة تلقيها، وغيرها من مكونات خطاب النثر التي بينت أن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي عرفتها موريتانيا في الرابع الأخير من القرن العشرين، عبرت عنها تحولات أدبية، ارتبطت بمؤسسة الأدب والثقافة واللغة، وكان لها الأثر الكبير في تطور الأدب العربي في هذا المنكب القصي من الوطن العربي.

1- محمد بن عبد الحي: المقاربات النقدية في موريتانيا: حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، العدد 4، لعام 1994، ص/50

من روائع الشعرب العربي

محمد ولد الطالب
الشاعر الفخر

رهين قيود الروم يلهو بك الغدر
ولا فدية ترجى ولا صولة بكر
خلعت على الأوجاع ناشئة الدجى
وأجهشت بالأشعار فانتشر العطر
وقد علمت حمدان أنك سيفها
وفارسها المغوار والشاعر الفخر
سددت عيون الشمس حتى تغيبت
فقامتك الفرعاء من دونها ستر
وأفردت في زنزانة لا مؤازرا
ومن أين تأتيك المواساة والأزر
ولم تقف الجدران بينك والرؤى
نديماك فيها كبرياؤك والشعر
ومن كل فج ترقب الفجر طالعا
وعن نظرات القدس قد حجب الفجر
ودجلة ترنو للفرات كئيبة
قد اقتسما حزنا وماؤهما مر
وتلك مياه النيل ساموا مذاقها
فلم ينج لا بحر لدينا ولا نهر
أبا الفخر لا أسر شربت به النوى
ولكن أسر الحلم فينا هوالأسر

"البناء" و"النسج" عند ابن خلدون

نحو تأصيل لنظرية (بناء الشعر)

د/ الشيخ ولد سيدي عبد الله
جامعة شنقيط العصرية

عندما يذكر عبد الرحمن بن خلدون فان أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ هوعمله في مجال التاريخ وعلم الاجتماع، ذلك أن الصورة التي تم ترسيخها عن الرجل، اختزلته في تينك الدائرتين، وكان من فعلوا ذلك لم يقرؤوا (مقدمته) بتمعن.

لقد كان ابن خلدون شاعرا وناقدا، ومتذوقا، وهي ميزات لم يخفها، بل تحدث عنها في مقدمته مرارا، ففي جزء (التعريف) الملحق بالمقدمة يقول: إن " أستاذه أبا عبد الله محمد بن بحر دعاه إلى حفظ الشّعر فحفظ كتاب الأشعار الستّة، والحماسةَ للأعلام وشعر حبيب وطائفةً من شعر المتنبّي ومن أشعار كتاب الأغاني..."[1].

وواضح من شعر ابن خلدون أن ذلك المحفوظ من نتاج الشعراء، ساهم في صقل قصائده، بحيث يمكن لأي دارس أن يستخلص عدة مدارس وتيارات شعرية تجايلت في نتاجه.

وقد أثنى العديد من النقاد على شاعرية ابن خلدون، ومنهم إسماعيل بن يوسف الأحمر، ولسان الدين بن الخطيب، وغيرهما.

ومن خلال رأي ابن خلدون في الشعر، ندرك أن الرجل ينطلق من رؤية العارف والمجرب للصناعة التي ينظّر لها، وقد كان وفيا لمنهجه في المقدمة والقائم على نظرية (العمران)، بحيث استخدم مصطلح المعمار في تناوله للشعر وقضاياه.

ولأن النظريات النقدية المعاصرة، والمنبثقة أساسا من البنيوية، تعتبر الشعر بناء، وتحاول جاهدة أن تمنح الظاهرة الأدبية صفة البناء، وما تحتاجه من مكونات يتداخل فيها الفلسفي واللغوي

والأسطوري، فإننا آثرنا في هذه العجالة أن نتعرض للسبق الذي أحرزه النقد العربي القديم، عندما نظر إلى الشعر كبناء أوكثوب يحتاج إلى ما يحتاجه المعمار واللباس من أدوات، منطلقين من اجتهادات عالم لا يختلف اثنان على انه احد أهم رواد علم الاجتماع وأول من لفت الانتباه إلى فكرة (العمران البشري).

التعريف بابن خلدون[2]:

هوعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، أبوزيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي (27 مايو1332م - 19 مارس 1406م) من ولد وائل بن حجر، الفيلسوف، المؤرخ، العالم الاجتماعي، البحاثة. أصله من أشبيلية ومولده ومنشأة بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية ولم يتزيي بزي القضاة بل بقي محتفظا بزي بلاده، وعزل، وأعيد.

توفي فجأة في القاهرة كان فصيحا، جميل الصورة، عاقلا، صادق اللهجة، عزوفا عن الضيم، طامحا للمراتب العالية، ولما رحل إلى الأندلس اهتز له سلطانها، وأركب خاصته لتلقيه وأجلسه في مجلسه.

اشتهر بكتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " وهوكتاب ألفه سنة 1377م في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع، ترجمت هي وأجزاء من الكتاب إلى الفرنسية وغيرها، وقد ختم بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه وسيرته، وما يتصل به من أحداث زمنه، ثم أفرد هذا الفصل، فتبسط فيه وجعله ذيلا للعبر، وسماه " التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا "ومن كتبه (شرح البردة) وكتاب في (الحساب) ورسالة في (المنطق) و(شفاء السائل لتهذيب المسائل) وله شعر.

تناول كتاب من العرب وغيرهم سيرته وآراءه في مؤلفات خاصة منها " حياة ابن خلدون " لمحمد الخضر بن الحسين و" فلسفة ابن خلدون " لطه حسين و" دراسات عن مقدمة بن خلدون " لساطع الحصري في جزئين و" ابن خلدون حياته وتراثه الفكري" لمحمد عبد الله عنان، و" ابن خلدون " ليوحنا قمير، ومثله لعمر فروخ.

صناعة البناء:

إن المتصفح لمقدمة ابن خلدون، يصادفه معجم متكامل عن العمران وما يتصل به من أسباب الحياة، فهويقيم عمرانا معجميا يجعل الحياة البشرية كلها قائمة على " البناء " و" الهدم " وبذلك يكون بناء العلاقات الاجتماعية بناء للمجتمع، وخلقا للتاريخ.

وهذا البناء يتطلب الصناعة، وهي صناعة متأصلة في الذات البشرية، الخاضعة في مسارها لما يخضع له " البناء " من عوارض وحوادث، تطوره أو تسحقه، وهنا يتضح أن ابن خلدون كان على وعي بهذه الجدلية، حين يتعمد الحديث عن العمران والبناء، والآلة، والصناعة، والهدم، والركن، السكة والسياج، والمادة... وغيرها من مستلزمات العمران المديني، وهو وعي يتأكد في مقدمته حين يتعرض للحديث عن

البناء كصناعة مجردة، تماثل غيرها من الصنائع والحرف.

فالبناء عنده هو"أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان في المدن، وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها، ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة، فمنها البناء بالحجارة المنجدة، أو بالأجر يقام بها الجدران، ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها فيلتحم كأنها جسم واحد، ومنها البناء بالتراب خاصة، تقام منه حيطان بأن يتخذ لها لوحان من الخشب مقدرا طولا وعرضا، باختلاف العادات في التقدير، ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا، ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى ويركز ذلك إلى أن يتم، وتنتظم الألواح كلها سطرا فوق سطر، إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة، وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة، مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله ثم تختلف أحوال البناء في المدن، كل مدينة على ما يتعارفون، ويصطلحون عليه، ويناسب مزاج أهوائهم واختلاف أحوالهم"[3].

يتضح هنا أن ابن خلدون يصف العمران من منظور حضري، فهذا الوصف الذي ينبني على رؤية واضحة، ينطبق على أهل الحضر، وحدهم، وبذلك لا يتفق ابن خلدون مع الذين يعتبرون الأخبية والخيم أبنية، ذلك أنه يرى أن (البناء) خصيصة عمرانية حضرية، بل إنها دلالة على قيام العمران، ومن ثم المدن.

ولنلاحظ هذه الخواص التي لا يستغني عنها العمران:

1- ملتحم في ذاته: إذ لا يمكن فصل جزء منه عن جزء، لأنه " جسد واحد " ومن هذا التعبير نستشف استحضار ابن خلدون لثقافته الدينية، التي تتخذ " الجسد " كناية عن العلاقة التي ينبغي أن تكون قائمة بين المسلمين.

وهوما نجده واضحا في الحديث النبوي: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوتداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

فالبناء في تلاحم أجزاءه مثل الجسد، مما يعني أن اهترام جزء منه يعني سقوط الجزء الآخر، وعدم جدوائيته.

2- البناء منتظم الأجزاء عموديا: إذا كان (حائطا) وهذا الانتظام العمودي تتالى أجزاءه كتتالي الأسطر، الواحد فوق الآخر.

والأسطر هنا تعني (اللبن) فلماذا اختار ابن خلدون كلمة (الأسطر) دون (اللبن)؟ ألا يمكن أن يكون ذلك استحضارا لا إراديا منه للعلاقة الشكلية بين الكتابة والبناء؟ ما دامت الكتابة والتأليف بناء من نوع آخر؟

أليس الشعر كتابة؟

إننا نميل إلى القول بأن ابن خلدون كان يستحضر في تلك اللحظة ما يقوم به من تأليف، لهذا الكتاب الكبير، وما تمليه تقنية

التأليف ذاتها، وهو استحضار يدعمنا في تأكيده أنه يوجد عند بعض النقاد والمؤلفين القدامى[4].

3-عامل البناء: محتاج إلى التوسل بمعارف غيره لتجويد صناعته، وهوما يعني أنه إلى جانب حضور الذات في عملية البناء، فإنها مطالبة بثقافة أخرى خارجة عنها، فمن يضع اللبن / الأسطر، بحاجة إلى من يقيس له أحجامها، ويعرف طولها وعرضها...

أليس النقد تقويما، وتهذيبا ؟

4- لكل مجتمع طريقته في البناء: وهوما يمكن أن نرى فيه أن البناء ليس قالبا جاهزا، يعمم على كل مدينة وكل بان، فهوحرفة تدخل فيها المهارة الشخصية والذوق والابتكار.

فليس هناك بناء معتمد عند كل شعوب المعمورة، بل ولا عند الشعب الواحد.

وهنا تتحدد الحرية الشخصية في البناء فلا رقيب ولا محاسب، فحق الابتكار والإبداع تكفله العادة، وفي هذه الحرية يمكن التنوع في العمران، ويجد كل طالب ضالته.

أليس الشاعر ابن بيئته ؟

هكذا إذن يصف ابن خلدون عملية البناء، وهو وصف قائم على أن هذه الصناعة، ترمز في مضمونها إلى وجود علاقة قوية ومتلاحمة بينها وبين المجتمع، فهي لا تسمى كذلك إلا إذا كانت ماثلة للعيان كالجسد الواحد، ثم إنها تشكل تعالقا جديدا بينها وبين صناعات أخرى، كالهندسة والصباغة وغيرهما.

لكن كلمة (البناء) التي يستخدمها ابن خلدون باطراد في حديثه عن الشعر، نجدها تزاحم كلمة أخرى هي (النسيج) ونجد (البناء) ينافس (النساج) في الاستحواذ على معنى الشعر، ثم نجدهما تارة يعقدان علاقة تناوب لديه حين يريد أن يصف عملية صناعة الشعر، فما السر في ذلك؟

قبل أن ندخل في دلالة الكلمتين (نقديا) ينبغي أن نعرف معنى (النسيج) عند ابن خلدون فلربما كان في ذلك ما يفتح الفهم عليهما أكثر.

صناعة النسيج:

يقول ابن خلدون: " اعلم أن المعتدلين من بشر في معنى الإنسانية، لا بد لهم من الفكر في الدفئ، كالفكر في الكن، ويحصل الدفئ باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد.

ولا بد لذلك من الحام الغزل حتى يصير ثوبا واحدا، وهو النسيج والحياكة، فإن كانوا بادية، اقتصروا عليه وإن مالوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعا، يقدون منها ثوبا على البدن ويلبسونها والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة، وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه، فالأولى لنسيج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاما في العرض وإحكاما لذلك النسيج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة (...) والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدينة، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أوحيكا أوتثبيتا أوتفتيحا، على حسب نوع الصناعة (...) وإنما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس، من مذاهب الحضارة وفنونها"[5].

إلى الآن يتبين لنا أن النسيج ضرورة بشرية للدفئ، كما البناء ضرورة للكن والمأوى، ولكنه لا يقتصر على المدينة وحدها، بل إن لأهل البادية نسيجهم الذي يختلف عن نسيج أهل العمران والذي تمليه ظروفهم وبيئتهم.

ثم إن صناعة النسيج لا تختلف كثيرا عن صناعة البناء، فكلها تقوم بإضفاء علاقة ما بين أجزاء وقطع معينة.

فالبناء يصير (جسدا واحد) والنسيج (يصبح ثوبا واحدا) بفعل الخياطة التي تعنى بالتسدية طولا واللحمة عرضا، ومن ثم يتم إحكام الطول والعرض بالحبك أو الغرس، وفي ذلك تختلف الجهات والعادات، وهنا نجد مبدأ الحرية متحققا هو الآخر في هذه الصناعة، لكن هذه الحرية لا يمكن أن تخرج على القانون القائل بملائمة القطع بالوصائل حتى تصير ثوبا واحدا، فهي في النهاية نسيج ولكنها في البداية قد تكون شيئا غيره.

وإذن فالبناء والنسيج ينبعان من منبع واحد، ويصبان في مصب واحد، ويمكن أن نؤكد ذلك انطلاقا من التوليد التالي، الذي نراعى فيه علاقة الكلمتين بالخطاب الشعري:

1- تحيلنا كلمة (البناء) معجميا عند ابن خلدون إلى الكلمات التالية:

- البناء بالحجارة المنجدة: وهو الأقوى والقادر على الاستمرار طويلا

- البناء بالأجر: وهو الذي يراعى فيه الفخامة والجمال.

- البناء بالتراب: وهو الأضعف والمعرض للذوبان والتلاشي.

- التصاق الجدران: وهوالدال على أن العلاقة بين الجدران علاقة تضام وتلاحم، وانفصالها يشكل عيبا بنائيا، إن لم يكن داخلا في تصميم المبنى .

- الطين والكلس: وهو للزخرفة والتزيين.

- الحيطان: وتعنى وجود حد أو سياج يفصل ما تحيط به عن العالم الآخر.

- الخشب: من ضرورات البناء.

- القالب: وهو الآلة التي تستخدم في انتاج (اللَّبِن)

-الإفراغ: ويحيل إلى السكب وملئ القالب

2 - أما كلمة (النسيج) فتحيل عنده على:

- الخياطة: وهي الصناعة المنتجة للنسيج، وفي كلمة (الخياطة) ودلالتها تناسب مع كلمة (الخط) ودلالتها أيضا.

- التطريز: ويعني التزيين والتنميق.

- الحياكة: وهي إحكام الربط بين الخيوط، بحيث تكون ملتحمة، لا انفصال بينها تماما كالعلاقة بين مربعات النسيج أودوائره...

- النقش: وهوالرسم المحفور في الثوب أوالجدار.

- السدي: وهوتزيين الثوب بأهداب مرسلة.

-النير: وهوتلاحم الخيوط واجتماعها.

- التقعر: وهوالاهتراء الذي يحدث للثوب الذي ساءت خياطته

عندما نقوم بمقارنة (بسيطة) بين الحقلين الدلاليين للكلمتين (بناء) و(نسيج) نستطيع إدراك ما تحيلان إليه إبداعيا، فالشعر كالبناء، لأنه يحتاج إلى كل ما يحتاجه البناء من مقومات، ومهارات، ثم إن العلاقة القائمة

بين ألفاظ القصيدة ووحدتها تماثل العلاقة بين أجزاء المبنى أو المنزل.

وهنا يمكن تأويل كلمة ابن خلدون (كأنها جسم واحد) بأنها تعني وجود وحدة عضوية في القصيدة.

ونستأنس في هذا التأويل بأن النص الشعري إذا كان بناء، فإنه لا بد وأن يتسم بهذه الوحدة العضوية، التي تفرض على البناء أن لا ينزع لبنة من مكانها وإلا تهاوى البناء، وعلى النساج أن لا يترك فراغا بين النسيج وإلا لم يعد الثوب ساترا.

ثم نأخذ دلالة (النسيج) التي لا تبعد عن دلالة (البناء) فكل منهما قد تحل محل الأخرى ما دامت تعنى القيام بإبرام تلك العلاقة الملتحمة بين الأجزاء والوحدات.

وتلتقي كلمتا (البناء) و(النسيج) في المعاني التالية: (التطريز ـ النقش ـ الحياكة ـ السدي). وبذلك يمكن تطريز الشعر بالمحسنات اللفظية، وحياكته بالنحو(دون الإستيلاء على حرية الشاعر)، ونقشه بالصور المنتزعة من خارج الذهن، المفرغة في الخيال، وتسديته بالقوافي.

وهنا نستدرك لنقول: إن هذه الصفات (التطريز ـ النقش ـ الحياكة ـ السدي) كلها كماليات في البناء العادي، وكذلك في البناء الشعري، لذا فالشاعر حر في استخدامها أو العدل عنها.

يبقى هذا مجرد اجتهاد يفتقر إلى موافقة ابن خلدون، فلننظر إلى رأيه في صناعة الشعر، كيف تتم؟ وما هي أدواتها؟

صناعة الشعر

إن الشعر عند ابن خلدون (بناء) وهو ما جعله يربط بسط نظريته حول بناء الشعر، بمعجم معماري خاص، وليس ذلك غريبا، ما دام البناء يحيل إلى السكنى.

يقول محمد بنيس: " لقد جعل النقد العربي القديم من البيت الشعري مسكنا للمعني (ولا خير في بيت غير مسكون) كما يقول ابن رشيق، وبقدر ما يطرح هذا التعريف للسكن مسألة أسبقية المعنى، فإنه يثير ضرورة السكن بتفاعله مع البناء"(6)

وهذا الرأي يقودنا إلى فهم حقيقي لذلك المعجم البنائي، الذي يستخدمه ابن خلدون في تعريفه للشعر، وفي فهمه إياه، ذلك أن ابن خلدون يتكلم من منطق مديني، حضري، أي فترة ما بعد الجاهلية وصدر الإسلام، حيث الحضارة بأسمى معانيها الفكرية والسياسية والاقتصادية، ولكنه كان واعيا بزمنية التفكير، وحركية الزمن ذاته، وهو ما نجده في الأسلوب الذي غلب عليه الفعل الناسخ (كان) والأفعال الماضية، وظروف الزمان، والظروف المشتركة بين الزمان والمكان.

أما تعريف الشعر عنده فهو بمثابة درس مقدم للمتأخرين من الذين يرومون صناعة الشعر. يقول "... والشعر من بين فنون الكلام، صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين، لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده (...) فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه، التي عرفت له في ذلك المنحي من شعر العرب (...) ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم بيت

آخر، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده، ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها ببعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة(...) ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم من المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه (...) فمؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، فإن خرج عن القالب في بناءه، أو على المنوال في نسجه كان فاسدا " (7)

هكذا يتوسل ابن خلدون بمعجم معماري صارخ في تأكيده على بناء الشعر، رغم أن الشعر عنده (ملكة) إلا أن هذه الملكة تعتبر المادة الأولية لهذا البناء، حيث القوالب جاهزة، وما على الشاعر إلا أن (يفرغ) مواده في تلك القوالب، التي تشكل البيت والذي يليه إلى أن يكتمل بناء (البيوت).

ويمكن هنا أن نلاحظ في استخدام لفظة (بيوت) عنده سيطرة لا إرادية للمعجم البنائي، فرغم أن كلمة (بيوت) تعطي معنى (أبيات) في قواميس اللغة العربية، إلا إنها مطردة في وصف المساكن. ونجدها عند القرطاجني موظفة في معناها الذي أراد ابن خلدون، حيث أن حازما كان واعيا بالمعنى الثاني لها، يقول في معرض حديثه عن مقام البيت في القصيدة: " ولما قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية، ونظام أوزانها، متنزلة في إدراك السمع منزلة وضع البيوت وترتيباتها، في إدراك البصر، تأملوا البيوت، فوجدوا لها كسورا واركانا وأقطارا وأعمدة وأسبابا وأوتادا، فجعلوا الأجزاء التي تقوم منها أبنية البيوت، مقام الكسور لبيوت الشعر، وجعلوا اطراد الحركات فيها، الذي يوجد للكلام به استواء واعتدال، بمنزلة أقطار البيوت التي تمتد في استواء"(8).

لقد أدرك ابن خلدون كيف أن القصيدة العربية تفتقد لوجود وحدة عضوية، ولذلك فهو يقترح وحدة عضوية أخرى تقوم على الترتيب، دون اعتبار للفرق الزمني بين ميلاد البيت والبيت...

إنه يرى أن على الشاعر أن يكتب البيت والذي يليه، ثم الذي يلي ذلك، وبعد أن يستوفي الفنون (الأغراض) التي يروم، يبدأ في عملية ترتيب بين وحدات النص، أي أبياته.

فعملية بناء القصيدة عنده تمر بمر حلتين:

1- مرحلة بناء الوحدات دون ترتيب.

2- مرحلة ترتيبها.

وهو رأي نلامس مثيله عند ابن طباطبا، حيث يقول:"..فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي، بما يقتضيه من المعاني، على غير تنسيق للشعر أو ترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها، وسلكا جامعا لما تشتت منها"(9).

فابن طباطبا يشترط وجود (سلك جامع) بين الأبيات، وهذا السلك هو الذي يخلق الوحدة العضوية بين مكونات النص.

أما ابن خلدون فيرى أن الترتيب يتم وفق منوال معروف، عند أهل هذه الصناعة.

وهنا نتساءل أين هي حرية الشاعر، إذا كان هناك شكل مسبق؟

يجيبنا ابن خلدون، بأن حرية الشاعر تكمن فيما سماه العرب " عمود الشعر" ففي مكونات هذا العمود يستطيع الشاعر أن يتصرف، فهو شاعر يشعر بما لا يشعر غيره، وليس نحويا ولا بلاغيا ولا عروضيا لهذا فهو غير معني بالتزام ما سنه القدماء حول هذه العلوم الثلاث، إن على الشاعر أن يرجع في صناعته إلى " صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التركيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب، باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصا، كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة"[10].

وقد يسأل سائل: كيف يوجد شعر خارج عن تلك العلوم الثلاثة؟

لكن ابن خلدون يضع في الحسبان هذا السؤال: حين يوضح أنه يكفي الشاعر أن يبقى كالبناء في تعامله مع القالب، وكالنساج في تعامله مع المنوال، لذا فهو يرسم صورة ارتسمت في الذهن، وهي صورة تعكس (أعيان التراكيب وأشخاصها) أي ما مثل منها، وما شخص للعيان، وهذه الصورة تمر من مستوى البصر بالعين أو القلب إلى مستوى الخيال، حيث يولد القالب أو المنوال، الذي يبدو أن لا دخل فيه للشاعر نفسه...وبعد ذلك لا مشاحة في أن يأتي الإعراب والبيان، بحيث يكون ذلك ربطا للصلة مع القديم، فيتم (رص) تلك الصور الذهنية في تلك القوالب التي حددوها.

الشعر عند ابن خلدون ليس كلاما موزونا مقفى فحسب، ولا هو" كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم[11].

فأصحاب هذه الآراء بالنسبة له يبحثون عن الوزن فقط، بمعزل عن الدال والمدلول، ولكن إذا كان هذا حدا لشعرية الشعر فما هي الحدود الفاصلة بينه وبين النثر المسجوع في القرآن وفي الخطب القديمة؟

يبدو أن لا فارق بين الجنسين في هذه الحالة.

لكن ابن خلدون يقترح تعريفا للشعر، بعد أن يفند تلك الآراء التي تنظر إلى الإبداع الشعري من زاوية موسيقية فقط، يقول: " وقول العروضين في حده إنه الكلام الموزون، المقفى، ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له، وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض الشعر لضربها، وذلك نظر في وزن مجرد عن الألفاظ ودلالتها، فناسبت أن يكون حدا عندهم، ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة، الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه، ومقصده عما قبله، وبعده بيان للحقيقة[12].

بهذا التعريف يفارق الشعر النثر، ذلك أن الخطبة أو الحكاية، أو النص النثري، أيا كان غرضه، لا يمكن أن يستقل كل سطر منه بغرض عن الآخر، وإلا فقد نثريته، ودلالته الفنية التي تفترض فيه أن يكون ذا فرضية أحادية، ثم إنه لا يملك قالبا ثابتا، يبدأ ـ مثلا ـ بالبكاء على الإطلال ثم الرحلة، ثم المدح... فهذه من سنن النص الشعري (قديما)، وهي ما أدت به إلى فقدان وحدته العضوية (مع وجود نثر فني يملك خصائص معينة كالمقامة).

أما الوزن والبلاغة والصور، فهي بواح على النثر والشعر معا.

إن هذا التعريف يجعل غاية الشعر تعبيرية أكثر منها تهذيبية، تعليمية، لكن الملاحظ في هذا الرأي أنه يماثل رأيه في النثر أيضا حيث يعتبره صناعة، وأن له قوالب معروفة ومناويل يتم نسجه فيها، فالنثر إذا بناء ونسيج، والشعر بناء ونسيج.

بالعودة إلى التوليد السابق لكلمتي (بناء) و(نسيج) نلاحظ أن هناك تناقضا في رأي ابن خلدون حول الشعر، فرغم أن الشاعر مؤلف كلام، وهذا الأخير " هو كالبناء والنساج، والصورة الذهنية المنطبقة، كالقالب الذي يبنى فيه، أو المنوال الذي ينسج عليه"[13].

ورغم أن العلوم الثلاثة (البلاغة والنحو والعروض) " خارجة عن هذه الصناعة الشعرية"[14].

رغم كل هذا يبقى الشاعر أسيرا لقوالب سابقة عليه، فهولن يكون (بناء) وإنما (مرمما) أي يقوم بإعادة بناء، لأنه لا يمكن أن يفارق ما سنة الأقدمون، بحيث يحتاج من أجل أن يمارس (صناعة الشعر) " إلى نوع تلطف في تلك الملكة، حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب".[15]

فلا ينبغي عند ابن خلدون أن يتم تجاوز ما سنه العرب، ثم إن عدم التقيد بقوانين النحووالبلاغة والعروض ليس ضمانا لشعر جيد، فعلى الشاعر أن " ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا".[16]

والرص يعني إملاء الثغور والفراغات، وتلك ضرورة ملحة في عملية البناء؛ حتى يتم توازن وتلاحم أجزاءه، فكيف يتم الاستغناء عنها، كما اقترح ابن خلدون بداءة، مادام الشعر بناء؟ واعتقد أن ضرورة (الرص) في البناء مثل ضرورة التسدية في النسيج، كما يؤكد ذلك ابن طباطبا قبل ابن خلدون.

يقول متحدثا عن الشاعر:"...ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التوفيف، ويسديه، وينيره، ولا يهلل شيئا منه فيشينه، وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها، حتى يتضاعف حسنه في العيان".[17]

هكذا يعتبر ابن طباطبا العلوم الثلاثة الآنفة، أدوات تزيينية، ترصع الشعر وتزخرفه.

إننا نبني رأينا القائل بتناقض ابن خلدون، على فرضية أن على الشعر أن ينبع من حرية مطلقة وهي فرضية قد لا تكون واردة إزاء أي مقاربة نقدية قديمة، أوتستمد مرجعيتها من القديم، فهل يعني هذا "أن كل معرفة تعالج الأدب موضوعا لها هي حتما

مخيبة للأمل" ؟ وهل "أنها لا يمكن أن تكون إلا معرفة تعالج الأدب انطلاقا من معرفة أخرى"؟.[18]

إذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن يمارس نقد الشعر إلا الشعراء، وهم وحدهم من له الحق في أن يختار الشكل الذي يناسبه، ويقصي الأشكال الجاهزة.

الحرية الإبداعية التي ننشدها لا يمكن أن تتحقق إلا إذا أدرج "الناقد، المؤرخ، العالم، خطابه الخاص ضمن الموضوع الذي يتناوله، أي الأدب، وبكلمة موجزة أن يجعل من نفسه كاتبا".[19]

ربما ذلك ما غاب عن ابن خلدون، ولكن الذي لم يغب عنه هو أن الشاعر "نبي" حتى وإن لم يصرح بهذا الوصف، إلا أن قوله: إن "الشعر يعتمد على الصور المنتزعة من الذهن، المرسلة إلى الخيال"، يجعلنا نعيد النظر قليلا في صورة الشاعر أيام كان نبيا، أو يقترب من مرحلة الألوهية عند الجاهليين.

لقد استطاع ابن خلدون أن يجمع أغلب الآراء النقدية التي اهتمت بالشعر كبناء، والتي فككت القصيدة إلى وحدات مختلفة، وأن يطور هذه الآراء تطويرا بين لنا مدى التفاوت بين المشارب الثقافية لنقادنا القدماء.

ويمكن أن نلاحظ أن أهم من أثر في ابن خلدون نقديا هو ابن طباطبا، فبغض النظر عن ما تعرضنا له من تشابه واختلاف بينهما في بنية القصيدة العربية، يمكن أن نرصد (تناصا) واضحا بينهما فيما يتعلق ببنية البيت الشعري عند العرب، باعتباره وحدة أساسية يقوم عليه بناء القصيدة، وهي الوحدة الشعرية التي أشبعت بالدراسة قديما، بعكس ما نجده حديثا حيث "يصعب العثور على تصور للبيت في الدراسات العربية الحديثة".[20]

إن ابن طباطبا يعتبر البيت هو(السلك الجامع) لأطراف القصيدة، وبدونه فإنها تظل مشتتة ولا تحمل التسمية ذاتها.

أما ابن خلدون فيسمى البيت (قطعة)، فحين أراد أن يعرف الشعر تعريفا تفكيكيا، قال:"... وهو في لسان العرب غريب النزعة، عزيز المنحى، إذ هوكلام مفصل قطعا، قطعا، متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا".[21]

وفي مقطع آخر يتعرض لبنية البيت ذاته، فإذا كانت الأبيات هي القطع التي يتم بواسطتها بناء القصيدة، فإن لهذه القطع مكونات ضرورية، أهمها (القافية). يقول:"...وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه، ونسجه بعضها، ويبني الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها".[22]

إن أهم مكونات البيت إذا هي القافية، فهي الأساس الذي يتم عليه بناء البيت، ولنا أن نتصور صعوبة وضع أساس لبناء تم دون ذلك، كذلك من الصعوبة وضع قافية لبيت تشكل دونها.

خصوصا وأن القافية عند ابن خلدون، ليست الكلمة الأخيرة من البيت كما رأى ذلك بعض النقاد، وإنما هي الروي، أو الحروف الأخيرة منه.

لا فرق إذن بين (القافية) و(الروي) عند ابن خلدون، فكل منهما أساس في بناء البيت. وهو رأي سبق وأن أشار إليه ابن طباطبا في كلامه عن (الشعر وأدواته)، حيث يقول:

"...وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها، ويعلو فوقها، فيكون ما قبلها مسوقا إليها، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها". (23)

هكذا يمكن الجزم بأنه ليس من الحيف في حق ابن خلدون، إن نحن قلنا بإطلاعه الواسع على كتاب ابن طباطبا (عيار الشعر)، رغم أنه لا ينكر استفادته من أغلب السابقين عليه، وقد ذكرهم صراحة في أماكن متفرقة من (المقدمة)، ومن أشهرهم ابن رشيق وكتابه (العمدة).

ختاما، يمكن أن نستخلص أن ابن خلدون كان يعيد أغلب الآراء المتعلقة ببناء الشعر، والتي سبقه إليها نقاد آخرون. ولكن هذه الإعادة كانت في لبوس أكثر حداثة، وأقرب إلى روح التجديد من الأصل.

لقد كان ابن خلدون واعيا بما يلي:

- الشعر كالبناء في أهميته للإنسان وفي نوعية العلاقة القائمة بين أجزاءه.
- الشاعر محتاج إلى ثقافة تساعده في بناء شعره على دعائم قوية، تماما كما هي الحال مع البناء أو النساج.
- الصورة الشعرية تبدأ ذهنية ثم تخيلية، ثم معنى واقعيا.
- الوزن والنحو والبلاغة ليست أصلا من أصول صناعة الشعر.
- الشعر بناء حجارته الأبيات، والأبيات بناء أساسه القافية أو الروي.
- الشعر إبداع وعلى الشاعر أن يبتعد عن تقليد الأقدمين (السرقة) وأن لا يروم الصور المطردة في أشعار غيره كما يفعل شعراء الربانيات أو النبويات.
- لا وجود لوزن مجرد عن الألفاظ ودلالتها.
- بناء القصيدة يمر بمرحلتين:

1- مرحلة ميلاد الأبيات دون واصرة بينها

2- مرحلة التأليف بينها

- الصورة الشعرية تبنى على (الاستعارة) والشعر هو الكلام البليغ.

هذه إذن أهم المحاور التي استطعنا أن نستشفها من رأي ابن خلدون حول (مفهومي البناء والنسج) وعلاقتهما بالظاهرة الشعرية، وهي محاور، قد لا تخلو من تناقض، إلا أنها تحمل خلفية واعية بالشعر والنقد، فهما ونتاجا.

وملاك الأمر، أن ما كتبه ابن خلدون عن الشعر، رغم اقتضابه – مقارنة بما تناوله من مظاهر العمران الأخرى - يحتاج إلى بحث وتدبر أكثر من ما قمنا به هنا، ذلك أن الرجل يثير إشكاليات كثيرة ويفرض أسئلة ملحة، قد تساهم في بلورة رؤية واضحة لنظرية الشعر في النقد العربي القديم.

ومن هذه القضايا:

- نشأة الشعر
- تعريف الشعر، وعلاقته بالنثر
- عزوف العرب عنه في بداية الدعوة الإسلامية (وفي ذلك نظر)
- شعر البادية (الشعر الهلالي)
- نقد الشعر
- عوامل قرض الشعر (البيئة، الزمن)
- الشعر والبلاغة

إلى آخر ذلك من القضايا المرتبطة بالشعر، والتي أثارها الرجل في مقدمته، من موقع الشاعر والناقد والمؤرخ.

الهوامش:

ابن خلدون: التّعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغَرباً. دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصريّ 1979 ص8.

- نقلا عن: خير الدين الزركلي (قاموس وتراجم الأعلام) ج3 – دار العلم للملايين – ط1 مايو1980 – ص330
- ابن خلدون - المقدمة - دار الكتاب العلمية - بيروت – ط1 - 2000 – ص 320-321-322
- يشبه الثعالبي عملية تأليف كتابه (يتيمة الدهر) بعملية بناء دار، فيقول: ".. وصار مثلي فيها، كمثل من يتأنق في بناء داره، التي هي عشه، فلا يزال ينقض أركانها، ويعيد بنيانها، ويستجدها على أنحاء عدة وهيئات مختلفة". (انظر: د/ محمد بلاجيبي – توظيف العناوين.. ندوة الأدب القديم أية قراءة؟ - ص137
- المقدمة – ص324
- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها/ ج3 - دار توبقال - المغرب – ط1، 1990- ص66
- المقدمة – ص489 وما بعدها.
- حازم القرطاجني – منهاج البلغاء – تح: محمد الحبيب بن الخوجة – ط1- دار الكتب الشرقية 1966 – ص250.
- ابن طباطبا – عيار الشعر – تح: محمد زغلول سلام – ط3 – منشأة المعارف – مصر – ص43
- المقدمة – ص489
- عيار الشعر – ص41
- المقدمة – ص492
- نفسه – ص490
- نفسه – ص489
- نفسه والصفحة نفسها
- نفسه والصفحة نفسها
- عيار الشعر – ص43
- رولان بارت - الأدب من المعرفة إلى المسافة - مجلة الثقافة الجديدة - العدد 28 السنة السادسة 1983.
- المقال نفسه
- محمد بنيس – الشعر العربي الحديث - ص125
- المقدمة – ص488
- نفسه – ص493
- عيار الشعر – ص42

واقع حرية الاعلام في موريتانيا

الولي ولد سيدي هيبه كاتب صحفي

لا شك أن مصطلح السلطة الرابعة بالانجليزية Fourth Estate أو Quatrième Pouvoir بالفرنسية الذي بات يُطلق على وسائل الإعلام عموما وعلى الصحافة بشكل خاص، ويستخدم اليوم في سياق إبراز دورها المؤثر الذي لم يعد يختصر على تعميم المعرفة والتوعية والتنوير فحسب، بل في تشكيل الرأي، وتوجيه الرأي العام، والإفصاح عن المعلومات، وخلق القضايا، وتمثيل الحكومة لدى الشعب، وتمثيل الشعب لدى الحكومة، وتمثيل الأمم لدى بعضها البعض .وقد استخدم المصطلح منذ أول ظهور مشهور له منتصف القرن التاسع عشر بكثافة انسجاماً مع الطفرة التي رافقت الصحافة العالمية منذ ذاك الحين، ليستقر أخيراً على معناه الذي يشير بالذات إلى الصحافة وبالعموم إلى وسائل الاتصال الجماهيري (mass media) كالإذاعة والتلفزيون .

وينص تعريف حرية الإعلام* على أنها تكمن في حق الوصول الى الأخبار وأنها مرتبطة أيما ارتباط بالحق الأساسي في حرية التعبير كما هومعترف به في القرار 59 للجمعية العامة للأمم المتحدة المصادق عليه سنة 1946، وكذا في البند 19من الاعلام العالمي لحقوق الانسان 1948، وأنها بمثابة الرديف لحرية التعبير من خلال آليات دولية مهمة منها المعاهدة الدولية المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية 1999 واتفاقية القارة الامريكية المتعلقة بحقوق الانسان 1969 مهمة اليونسكو كما هي محددة في الميثاق التأسيس تدعوالمنظمة الى "تسهيل حرية تبادل الأفكار عن الكلمة أوالصورة .وبالإضافة الى ذلك، وفي إطار الاحتفال السنوي باليوم العالمي لحرية الصحافة لليونسكو، تمت الاشارة الى أهمية حرية المعلومة في مجموعة من الإعلانات إعلان بريزبان، إعلان مابوتو، إعلان داكار، وهي تشجع حرية الإعلام من خلال دعمها للمجتمع المدني في المرافعة والتوعية بحق الوصول الى الأخبار العامة في كل البلدان، وتكوين الصحفيين في التقصي الصحفي وتعزيز دور وأهمية دور الأرشفة ضمن سيرورة التطبيق الميداني لحرية الإعلام.

شهدت موريتانيا منذ مطلع القرن الحالي استجابة كبيرة لمطلب تكريس حرية الإعلام فظهرت الصحف وولج الكثير من الشباب مهنة الصحافة من غير سابق تكوين ولا إعداد محققا شبه معجزة في بروز جيل من الصحفيين والمحللين وكتاب المقالة والاستقصائيين المتميزين وصحف نوعية فرضت إيقاعها ومستوى تعاطيها مع كل أحداث وقضايا البلد الاجتماعية والسياسية وغيرها حتى أصبحت مرجعا موثوقا ومعتمدا من الصحافة الدولية المهتمة بالشأن الموريتاني وشبه المنطقة عموما، على الرغم من ضعف المهنية وفي ظل غياب التكوين والمأسسة والحوافز المادية والنفسية .

ولكن هذه الحرية وهذا التعاطي مع مهنة المتاعب والشح المادي ظل يشيبها بعد تعاطي السلطات العمومية معها والتي تعتبرها عدوا لا سندا في تنمية البلد وإرساء قواعد دولة القانون فاستحدث مادة في القانون المنظم للمهنة يصادر الصحف التي تكشف عن بعض الممارسات المضرة بتسيير شؤون الدولة أومصالح الشعب، وهي المادة 11 التي قيضت رويدا رويدا عمل الصحف الملتزمة وقلصت هامش الحرية حتى لم يبق سوى الصحف المولية للنظام والممتدحة لحكومته والممجدة لحزبه.

وظلت الأوضاع على هذه الحال حتى العام 2005 حيث فتحت موريتانيا صفحة جديدة في مجال حرية الصحافة بعدما أعلنت عن قانون جديد للسلطة الرابعة* وشكلت جهاز أعلى للصحافة والسمعيات البصرية عهد إليه بالإشراف على مجمل القضايا المتعلقة بالحقل الإعلامي في البلد.

وهوالقانون المنظم للحريات الصحفية في موريتانيا الذي نص على اعتماد نظام التصريح بالإصدار بدل نظام الترخيص الذي كان سائدا قبل ذلك، وتضمن إلغاء عقوبة المصادرة القبلي التي كانت تؤرق الصحفيين كثيرا وتسبب لهم الإحباط وتزج بهم أحيانا في السجن .كما ألغى يومها القانون الجديد تبعية الصحافة لوزارة الداخلية وأحالها إلى وزارة العدل، وألغى اشتراط إيداع نسخ من الصحف الصادرة قبل توزيعها، واشترط بدلا من ذلك إيداع نسخة واحدة لدى ضبطية وكالة النيابة العامة قبل أوبعد التوزيع ووضع حدا للمصادرة التي عانت منها تلك الصحافة .

ولا شك أنه من أهم ما أضافه القانون الجديد اعتباره" حق الإعلام وحرية الصحافة "من بين روافد" حرية التعبير "حقوقا ثابتة للمواطن، وأكدت المادة الثالثة أن من حق بل من واجب الصحفي "حماية مصادره في جميع الأحوال، إلا في الحالات التي ينص عليها القانون لضرورات مكافحة الجرائم والجنح، وخاصة المساس بأمن الدولة والإرهاب ."

وكان هذا الإعلان قد تزامن مع تقرير صدر قبل ذلك بفترة وجيزة عن المنظمة الدولية للدفاع عن حرية الصحافة "مراسلون بلا حدود "قالت فيه إن موريتانيا حققت قفزة كبيرة في مستوى الحريات الصحفية في العالم، وأنها حطمت رقما قياسيا في التحسن الذي طرأ خلال هذا العام في هذا المجال وأنه بعدما كانت موريتانيا تحتل المرتبة الثامنة والثلاثين بعد المائة عام 2004 فقد قفزت إلى المرتبة 77 في الترتيب العالمي ثم الأول عربيا وإفريقيا للسنة الرابعة وموريتانيا تتصدَّر فيهما حرية الصحافة"، أطلس، 13 فبراير/شباط .2015 وكانت الحكومة الموريتانية بمصادقتها على هذا القانون قد

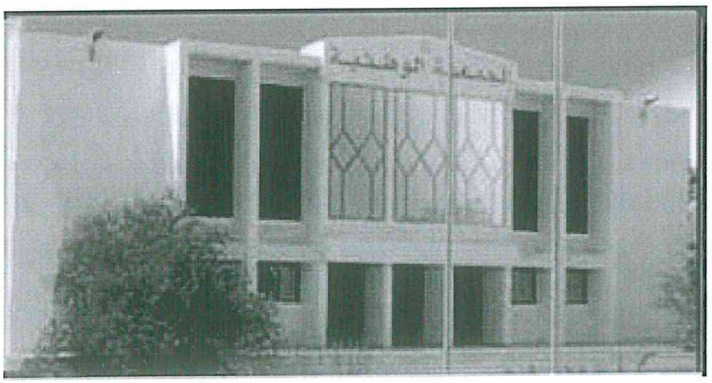

وفت بجزء كبير من التزاماتها المتعلقة بإطلاق وبسط الحريات العامة.

ولكن تاريخ3 يوليو/تموز 2010 شكّل محطّة بارزة في مسار الإعلام الموريتاني، بإقرار الجمعية الوطنية قانونًا يقضي بتحرير الفضاء السمعي البصري وإنهاء احتكار الدولة لمجال البث الإذاعي والتليفزيوني، وتحويل الإعلام الحكومي إلى "إعلام عمومي"، وهوالقانون المعروف برقم 045-2010.

وقد تجلت أهمية المسار الجديد لقطاع الإعلام باتجاه مَأْسَسَتِهِ عبر إعادة هيكلة منظومته قانونيًّا وتنظيميًّا ومهنيًّا وفَكِّ ارتباطه بالمنظومة السياسية، وضمان استقلاليته وحريَّته وتعدُّديته بأبعادها السياسية والثقافية والاجتماعية والمجالية، حتى يتمكَّن من أداء الدور المنوط به في الاستجابة للاحتياجات الديمقراطية والثقافية للمجتمع، ولكيلا يظل عُدَّةً أيديولوجية، أوذراعًا إعلاميَّة لأي نظام حكم يُروِّج لخطابه السياسي ومواقفه، أوأداةً لِقَوْلَبَةِ الوعي وتزييفه وتوجيه الرأي العام .

وإنه المسار الذي توج بالترخيص لخمس محطات إذاعية وأخرى تليفزيونية (الجدول)، تتولَّى السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية باعتبارها سلطة تنظيمية، رقابةً ومتابعةً نشاطات هذه المؤسسات، والسَّهر على تطبيق التشريعات والنُّظُم المتعلقة بقطاع الاتصال.

وقد سمح مناخ الحريات الواسعة التي يعيشها قطاع السمعي البصري والمشهد الإعلامي عمومًا لموريتانيا بأن تحافظ على تصدُّر قائمة الدول العربية في مجال حرية الصحافة للسنة الرابعة، فإن مسار مَأْسَسَةِ هذا القطاع وتحويل الإعلام الحكومي إلى إعلام الخدمة العمومية وإن قطع الأمر اشواطا مرئية إلا أنه ما زال بعد مرور خمسة أعوام يشكوضعف إرضاء مُخرجاته تطلعات ورؤى بعض المهنيين والنقابيين والحقوقيين والفاعلين السياسيين، وفي النخبة المجتمعية الموريتانية بشكل عام، حول خصائصهما وأهدافهما ورهاناتهما وكيفية تمكين أفراد المجتمع من مبدأ الحق في الاتصال وحرية الرأي والتعبير، وعلاقتهم بتليفزيون الخدمة العمومية أساسًا .

إذاعة/قناة	تاريخ الترخيص
إذاعة صحراء ميديا	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
إذاعة كوبني	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
إذاعة موريتانيد	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
إذاعة التنوير	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
إذاعة نواكشوط الحرة	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
قناة الساحل	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
قناة الوطنية	22 نوفمبر/تشرين الثاني 2011
قناة شنقيط	-
قناة "المرابطون"	03 يناير/كانون الثاني 2013
قناة دافا	03 يناير/كانون الثاني 2013

جدول (1) المحطات الإذاعية والقنوات التليفزيونية المرخَّص لها *

وعلى الرغم من أن هذا الإشكال الذي تبرره حداثة التجربة وضعف الوسائل وقلة الحرفية الناتجة عن غياب التكوين المهني، ومنافسة الغزوالرقمي، فإن التحسينات واقع ملموس وإن ما زالت تحصل بوتيرة بطيئة وخجولة . وبالكبع فإن ما يمز هذه القفزة الكبيرة في مجال الحريات والوسائل الإعلامية من محطات إذاعية وتلفزيونية وجرائد وصحف ورقية ومواقع الكترونية، هوحرية الأداء الذي لا تقيده إلا المواثيق والمساطر الأخلاقية المهنية وتلتزم بها كل الجهات والنقابات والرابط والتجمعات والشبكات المهنية، التي تؤطر وتحمي وتوجهه عموم المنتمين للحقل من مؤسسات الصحفية الموزعة كالتالي:

الصحف الورقية	55
المواقع الالكترونية	123
القنوات السمعية البصرية	09

جدول (2) الصحف الورقية والالكترونية*

النقابات والروابط والتجمعات الصحافية:	14

جدول (3) جدول الروابط والتجمعات الصحفية

ولمواكبة هذه الحرية الإعلامية وتأطيرها في كل أبعادها، البشرية (صحفيين وفنيين) والمؤسسية) مؤسسات مهنية (والتنظيمية) أطر نقابية ورقابة أخلاقية (والقانونية) والأخلاقية قامت الدولة باستحداث قسم تدريس الصحافة في المدرسة الوطنية للإدارة الصحافة والقضاء قام لحد الساعة بتخريج عشرات الصحفيين والكتاب الصحفيين وأجرت، كما نظمت المدرسة عشرات الدورات لتكوين والتدريبية لتحسين مهارات الصحفيين والفنيين من مصورين ومخرجين حسنوا بعد تخرجهم من أداء مؤسساتهم.

بهذه النتائج المذهلة التي تحققت في فترة قصيرة نسبيا استطاعت موريتانيا أن تتجاوز حقا عقدة الخوف من التعبير عن الرأي البناء وانتقاد السياسات التي لا تستجيب لمتطلبات بناء البلد على أسس الحرية المسؤولة والعدالة التي ينشدها الشعب بمختلف مكوناته وشرائحه .وبشهادة المراقبين الإعلاميين في المؤسسات الرقابية العريقة المشهود لها والمسلم بقوة ودقة وحياد التقارير، فإن الإنجاز الموريتاني نادر الحصول تدعمه القفزة النوعية في الأداء المهني حيث أن الإعلاميين الموريتانيين باتوا في تعاطيهم مع المادة الصحفية بكل أصنفها إخبارية واستقصائية وتحليلية وغيرها من الكفاءة ما مكنهم من أن يزاولون بحرفية عالية في الكثير من الوكالات والمؤسسات خارج البلد كالجزيرة واكاي نيوز والعربي ومراسلين لعديدي محطات الإذاعات الدولية عربية وأجنبية.

وأما في موريتانيا فإن هذه الحرية الإعلام التي تحررت نهائيا من مقص الرقابة والمصادرة قد توجت نتيجة لهذا المعطي السنثنائي والتحول الفريد بأمور هامة للغاية تحققت هي:

التجاوز بسرعة فائقة من مرحلة التأتأة إلى مرحلة المهنية المسؤولة والعالية،

الانسجام مع متطلبات الحرفية والتقيد التام باشتراطات وأخلاقيات المهنة وضوابطها،

خلوالسجون من الصحفيين ومعتقلي الرأي،

تصدر موريتانيا للمرة الرابعة على التوالي الدول العربية في حرية الاعلام تقدمها الحثيث علة المستوى القاري والعالمي.

وبهذا تكون موريتانيا قد أصبحت نموذجا يحتذى في مجال حرية الإعلام وقد تصبح عما قريب بذلك مدرسة للمهنية المسؤولة التي تحافظ على التوازنات التي تتطلبها الممارسة الديمقراطية الهادفة إلى إرساء قواعد دولة القانون والحرية الراسخة.

* القرار 59 للجمعية العامة للأمم المتحدة المصادق عليه سنة 1946، والبند 19من الاعلام العالمي لحقوق الإنسان 1948
* جدول (1) السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية
* جدول (2) السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية
* جدول (3) السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية
* قانون حرية الصحافة رقم 017-06 الصادر 2006
* الجمعية الوطنية 045-2010

حقوق الإنسان في موريتانيا: المكاسب والآفاق

الأستاذ/ الشيخ احمد ولد الزحاف
وزير وسفير سابق

يُعْتَبَرُ مجال ترقية وحماية حقوق الإنسان من المجالات الحيوية التي تدخل في إطار المؤشرات التي على أساسها يمكن تقويم مدى نجاح السياسات الاقتصادية والاجتماعية لبلد ما.

فلاشك أن هذا المجال يطال كافة مناحى حياة كل أمة ويتحدد به مدى تكفل سياساتها بالحقوق الأساسية للإنسان سواء تعلق الأمر بالصحة والتعليم أوالولوج إلى السكن اللائق والماء الصالح للشرب.

كما يعكس الضمانات التي يتيحها هذا النظام السياسى أوذاك في ميدان الحريات السياسية كالتعبير والتجمع والرأى والصحافة أوالحريات النقابية ومشاركة المجتمع المدنى في توجيه وصياغة سياسات الدولة على جميع المستويات.

اما المجال الخاص بحقوق الإنسان والذي حققت فيه بلادنا مكاسب كبيرة واتجهت بحزم الى تجسيده والمتعلق بالترقية والحماية أي باعتماد النصوص التشريعية والإصلاحات المكرسة لها، يمثل محورا رئيسيا من سياسة الدولة، وذلك من خلال حضوره في البرنامج الانتخابي لفخامة رئيس الجمهورية السيد محمد ولد عبد العزيز الذي تعمل الحكومة على ترجمته في الاستراتجيات الاقتصادية والاجتماعية التي تنفذها من جهة والتعاطي الإيجابي لبلادنا مع آليات الأمم المتحدة المختصة في هذا المجال من جهة أخرى.

وقبل الدخول في تفاصيل المكتسبات يجدُر بنا تبيان كيف أن الحكومة بإشراف مباشر وتوجيهات من فخامة رئيس الجمهورية عكفت على تصفية الإرث الإنساني الموروث عن العهود القديمة إنصافا لشرائح كبيرة من المواطنين وتصالحا مع الوطن وتحقيقا للعدالة وإتاحة للفرص من اجل إشاعة جومناسب لتعزيز وتوطيد وحدة مكونات شعبنا.

وعليه فيما يخص ملفات الإرث الإنسانى باشر الرئيس شخصيا في إطار مقاربة قائمة على المكاشفة والشفافية البحث عن الحلول الملائمة بالتنسيق مع منظمات المجتمع المدنى المدافعة عن حقوق الإنسان التي تبنت هذا الموضوع في السابق، وتم التوصل إلى الحلول المناسبة في إطار مصالحة وطنية شاركت فيها وباركتها كل الأطراف المعنية وتجسد ذلك فى إقامة صلاة الغائب في 25 مارس 2009 بكيهيدى،واعْتُرِفَ باسم المجموعة الوطنية بالضرر الذي لَحق بالذين في حقهم انتهكت حقوق الإنسان، والتعويض لذوى الضحايا، كل ذلك طبقا لروح التسامح والإخاء التي هي قيم ديننا الإسلامى الحنيف.

أما العودة الطوعية للآجئين الموريتانيين الذين كانويقيمون في السنغال فقد باشرت موريتانيا التطبيق الحرفى لروح ونص الاتفاق الثلاثى بين بلادنا والسنغال والمفوضية السامية للآجئين حتى أُنْهِيَّ الملف في الحفل الذي أقيم يوم 25 مارس 2012 بحضور كل الأطراف المعنية الوطنية والدولية، وبمجيئ آخر دفعة من المواطنين العائدين إلى أرض الوطن والذين بلغ عددهم 24.536 شخص مكرمين معززين، باشرت الدولة بواسطة الوكالة الوطنية لإيواء ودمج اللآجئين عملية دمجهم في 120 موقع على جزء التراب الوطني المنحدرين منه عبر خطة متكاملة بدءا بالتكفل بكل احتياجاتهم وانتهاء بدمجهم النهائى.

وتمثل ذلك في استصلاح وتوزيع الأراضى وتمويل الأنشطة المدرة للدخل، ناهيك عن الخدمات الاجتماعية من تعليم وصحة وتكوين مهنى....إلخ.

أما آثار الاسترقاق ومخلفاته، انطلاقا من الوعى بالجدلية القائمة بين البعدين القانونى والسياسى من جهة والاقتصادى والاجتماعى من جهة أخرى عملت الحكومة على استئصال هذه المخلفات على المستوي التشريعى من خلال في البداية القانون 2007/048 المجرم لممارسات الاسترقاق والحملات التوعوية المواكبة له ثم شرعت في تنفيذ مشاريع وبرامج اقتصادية واجتماعية تستهدف تحسين الخدمات الصحية والتربوية في أوساط الأرقاء القدماء وتضمن تحريرهم الفعلى والذهنى بواسطة إضفاء الطابع البنيوى على تلك المشاريع.

وتتكفل حاليا وكالة التضامن لمحاربة مخلفات الاسترقاق والدمج وهي من أكبر مؤسسات الدولة بالنظر الى حجم تمويل انشطتها والمهمة الموكلة اليها بترجمة هذه السياسة على ارض الواقع من خلال تنفيذ خطط اقتصادية واجتماعية في اوساط الإرقاء السابقين. ينضاف الى ذلك وبالرجوع الى البعد التشريعي أن الاصلاحات الدستورية لسنة 2011 رفعت الممارسات الاستعبادية الى مرتبة الجريمة في حق الإنسانية الغير قابلة للتقادم. وحتى يتم إدماج البعد الدستوري لتجريم الاسترقاق وغيره من تريبات الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي اضحت موريتانيا طرفا فيها سنت الحكومة القانون الجديد 2015/031 المجرم للممارسات الاستعبادية والذي صادق عليه البرلمان بتاريخ 10 سبتمبر 2015.

فالسلطات العمومية تنفيذية كانت أم تشريعية أضحت مُلْزَمَةً بتطبيق هذا القانون مستعينة بالمنظمات الحقوقية التي اصبح بإمكانها ان تمثل الضحايا كطرف مدني لدى المحاكم المختصة بممارسات العبودية الموجودة في الجهات الرئيسية للبلاد.

وعلى الرغم من ذلك فإن تسييس موضوع الاسترقاق وجعله يلتبس لدى الكثيرين -عن وعى أوغير وعى- بغيره من الموضوعات التي تدخل في سياق الوحدة الوطنية؛ أثار أكثر من سؤال حول مرامى وأهداف بعض المنظمات التي تدعي انها تعمل في الحقل الحقوقي من حيث صدقية أهدافها المعلنة.

كما أن ربطه بتأويلات المذهب المالكى ومن أن هذا الأخير يجيز الاستعباد أضاف هذا البعد كذلك المزيد من الابتعاد عن أشكال محاربة الاسترقاق التي ينبغى أن تتم من حيث الأساس على الأصعدة الحقوقية المحضة والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتوعوية.

إن هذا الموضوع لأبعاده السوسيوثقافية والنفسية التي ما زالت تلقي بثقلها على أوساط الاسياد والارقاء السابقين على حد السواء يتطلب المزيد من التفكير في طبيعة المبادرات والإجراءات التي يتوجب اتخاذها، وتتمثل أهمية هذه الإجراءات في اشراك المختصين والمهتمين بهذا الموضوع وخاصة المنحدرين من الفئات المستهدفة في تصور وتنفيذ وتقييم تلك الإجراءات اوالسياسات الرامية الى احداث التحولات الاجتماعية التي ستفصى في نهاية المطاف على العوامل النفسية والمسلكيات المرتبطة بمخلفات الرق وآثاره.

فإذا كانت تلك الخطوط العريضة لما تحقق من إنجازات في الداخل، فإننا كسبنا رهانات هامة على المستوى الدولى.

فعلى الرغم من أن أعداء موريتانيا الذين ما فتئوا يقدمونها دوما على أنها دولة بُنِيَتْ أصلا مؤسساتها على الظلم والاستعباد والتمييز العنصرى، ويَدَّعُونَ أن الحكومة تمارس انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان؛ فإنه تم تفنيد تلك الصورة خاصة بعد انتخاب بلادنا عضوا في مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ابتداءا من 19 يونيو2010. فكان هذا التاريخ مفصليا بحيث شكل نقطة البداية التي خرجت فيها موريتانيا عن صمتها بمناسبة الحوار التفاعلي الذي أجري اثناء دورة مجلس حقوق الإنسان في سبتمبر 2010، حول الاشكال المعاصرة للرق في بلادنا. فهذا الحوار والتقرير المستند عليه كانا مناسبة لإعطاء معلومات وتوضيحات لكل الفاعلين الدوليين المهتمين بهذا الموضوع جعلتهم يراجعون نظرتهم الى واقع العبودية في بلادنا.

كل ذلك رغم أن المقررة الخاصة لهذا الموضوع التي زارت بلادنا لأول مرة 2009 وقدمت عرضا حول واقع الاسترقاق في موريتانيا لم تكن في ذلك الوقت على دراية من حيثيات كثيرة كان لها الأثرالكبير في التحولات التي شهدها المجتمع الموريتانى.

كما مكنتنا الندوة التي نُظِّمَتْ على هامش الدورة المذكورة لمجلس حقوق الإنسان حول واقع العبودية في موريتانيا والبرازيل من زيادة فهم الفاعلين المذكورين لما يجرى في بلادنا من محاولات تقوم بها السلطات العمومية بغية القضاء على كل مظاهر الغبن الاجتماعى ومخلفات الرق على وجه الخصوص، طبقا للإرادة السياسية للسلطات العليا في البلد.

وما كان لكل ذلك أن يتم لولا ربط صلة دائمة مع الخبراء وكبار مسؤولى الأمم المتحدة وقادة أبرز منظمات حقوق الإنسان والمقررين الخاصين بمن فيهم المقررة الخاصة حول الاشكال المعاصرة للعبودية، والتى انتهت إلى فهم صحيح عن واقع العبودية في بلادنا عن طريق الحوار والتعاون بيننا وإياها، بحيث انتهت

مأموريتها بمصادقة الحكومة في مارس 2014 وبالتعاون مع الأمم المتحدة على خارطة الطريق حول الاشكال المعاصرة للعبودية.

وفى 10 نوفمبر 2010 تقدمت بلادنا للدورة الأولى لأهم آلية لمجلس حقوق الإنسان لتقييم كافة مناحى سياسة البلد للوقوف على مدى التزامها بترقية وحماية حقوق الإنسان.

فهذه الآلية المسماة العرض الدورى الشامل، كانت مناسبة للدول الأعضاء في مجلس حقوق الإنسان والدول المراقبة والمنظمات الدولية أن تُدْلِى بآرائها عن كل ما يجرى في بلادنا، فقد تدخلت أكثر من ستين دولة ومنظمة أثنت كلها على الإنجازات التي حققتها بلادنا.

ويكفينا انتصارا في هذا الامتحان الأممى الذي غالبا ما يُرعِبُ الدول أننا قبلنا أكثر من 90% من التوصيات الـ139 فقط التي وُجِّهَتْ إلينا وأغلبها تم انذاك الشروع في تنفيذها، هذا بالاضافة إلى أنه بشهادة المفوضة السامية السابقة لحقوق الإنسان أن عرضنا الدورى الشامل كان أحسن من عرض الولايات المتحدة الامريكية التي تقدمت معنا للآلية المذكورة في نفس الدورة.

ويُعْتَبَرُ افتتاح مكتب للمفوضية السامية لحقوق الإنسان في بلادنا في 10 دجمبر 2010 والزيارة التي أدتها السيدة نافى بلاى المسؤولة الأولى السابقة للأمم المتحدة في هذا المجال ما بين 26 و29 من شهر ابريل 2011 خير دليل على أن الباب أضحى مسدودا أمام كل صيادى المياه العكرة الذين يعملون على النيل من سمعة بلادنا وعزلها عن محيطها الإقليمى والدولى.

إن هذا الأداء هوالذي جعلنا نرتقى من موقع الدفاع والرد على الاتهامات الموجهة إلينا حول الإنتهاكات المزعومة لحقوق الإنسان إلى موقع عضوفاعل في هذا المجلس يضع على عاتقه مهمة ترقية حقوق الإنسان حول العالم.

وهكذا تمكنا وبكل استقلالية من اتخاذ مواقف حول كل القضايا الأساسية في العالم وشاركنا في مبادرات هامة من خلال مساندتنا أومعارضتنا للكثير من القرارات حول حقوق الإنسان، متشبثين دوما بمواقفنا المبدئية اتجاه القضايا العربية والاسلامية والافريقية وكذا القضايا العادلة في العالم.

وقد توجت بلادنا تلك المكاسب بأن انتخبت في 12 دجمبر 2012، نائبا لرئيس مجلس حقوق الإنسان عن القارة الافريقية لسنة 2013، واحتلت لوحدها هذا الموقع من بين كل الدول العربية والافريقية والإسلامية بل اصبحت كل هذه المجموعات تستغل مكانة موريتانيا لحل اشكالاتها المتعلقة بحقوق الانسان مع آليات الأمم المتحدة ذات الصلة. وصار الممثل الدائم لبلادنا على دراية كاملة مما يجري سواء على مستوى مفوضية حقوق الإنسان أومكتب المجلس المسئول عن إعداد اجندات دوراته.

إن الزيارة التي أداها المفوض السامى السابق للآجئين السيد آنتونيوكترس لبلادنا والخطاب الذي ألقاه يوم 25 مارس 2012، في مدينة روصوبمناسبة إنهاء العودة الطوعية للآجئين برعاية من هيئته يُعْتَبَرُ

هوالآخر انتصارا كبيرا ليس لأننا أعطينا لمواطنين موريتانيين ظُلِمُوا بالتهجير واللجوء حقهم في العودة إلى وطنهم، لكن أن يتم ذلك بشهادة من أكبر هيئة أممية مختصة باللاّجئين، يبرهن على أن حكومتنا تتشبث بمبادئ العدل والإنصاف وتنتمى إلى القيم التي تقود المنظومة الأممية وتعمل طبقا لها.

هذا وقد تقدمت بلادنا للدورة الثانية لآلية العرض الدوري الشامل نوفمبر 2015، فكانت مناسبة لرئيس وفدنا لم يجب خلالها على اتهامات وانتقادات اعداء وحدة مكونات شعبنا فحسب بل اوضح للمجموعة الدولية استمرار الحكومة في جهودها الرامية الى ترقية حقوق الإنسان.

وفيما يتعلق بهيآت المعاهدات فقد انتمت بلادنا الى المعاهدات والاتفاقيات التالية وقدمت تقاريرها الدورية لبعضها:

- الحقوق الإقتصادية والاجتماعية والثقافية،
- الحقوق المدنية والسياسية،
- المعاهدة الخاصة بحقوق الاشخاص المعوقين وابروتوكولها الاختياري،
- المعاهدة المتعلقة بكل اشكال التمييز ضد المرأة (انتخبت بلادنا في عضوية لجنة القضاء على التميز ضد المرأة)،
- المعاهدة المتعلقة بالتمييز العنصري،
- معاهدة حقوق الطفل.

اصبحت كذلك بلادنا طرفا في المعاهدتين الدوليتين المتعلقتين بحماية حقوق العمال المهاجرين واعضاء اسرهم وحماية كل الاشخاص ضد الاختفاء القسري.

وانتمت اخيرا الى البروتوكول الاختياري لاتفاقية مناهضة التعذيب الذي استحدثت بموجبه آلية وطنية للوقاية من التعذيب.

وفيما يخص آلية الإجراءات الخاصة فتحت بلادنا الباب لزيارة المقررين الخاصين:

- بالاشكال المعاصرة للعبودية،
- بالعنصرية وكراهية الاجانب،
- بمناهضة التعذيب،
- بالفقر المدقع وحقوق الإنسان.

ويدل كل ذلك على الإرادة السياسية الثابتة للسلطات العليا للبلاد للتعاطي الإيجابي مع الآليات الأممية لحقوق الإنسان، رغم كون بعض هؤلاء المقررين يسيؤون بقصد أوبغيره فهم واقع البلد مما ينعكس على الخلاصات التي يخرجون بها في تقاريرهم والتي تشوه في بعض الاحيان سمعة البلد.

لا يتعلق الأخذ بمبادئ حقوق الإنسان بحل القضايا ذات الطابع السياسى التي كثيرا ما تُقَدَّمُ على أنها تدخل في هذا الاطار، بل أن القضايا الحقوقية تطال المجالات الخدمية الاجتماعية التي ترعاها كذلك المجموعة الدولية من خلال المنظمات المتخصصة للامم المتحدة كالمكتب الدولى للشغل ومنظمة الصحة العالمية والمنظمة العالمية للملكية الفكرية.

فكل هذه المنظمات انطلاقا من معاييرها الخاصة تُقَوِّمُ إيجابيا حالة بلادنا سواء تعلق الامر بمستوى التغطية الصحية التي تكفل الحق في العلاج والولوج إلى الخدمات الصحية. كما تُقَدرهذه المنظمات إيجابيا

الضمانات المتعلقة بالحريات والحقوق النقابية.

كذلك لا تسجل المنظمة العالمية للملكية الفكرية أية مضايقة أم حَدٍّ لحريات الابداع أوالصناعة أوالتأليف في موريتانيا فهى في استعداد تام لمؤازرة ودعم بلادنا في كل مشاريعها المتعلقة بالملكية الفكرية خاصة بعد المصادقة على القانون الخاص بها.

أما من حيث الآفاق فإن أكبر ضمانة لتعزيز مكاسب بلادنا في مجالي ترقية وحماية حقوق الإنسان هودولة القانون القائمة الآن والتي اعتمدت مبدأ دولة القانون بكل ما تقتضيه من الحريات الفردية والجماعية وبناء المؤسسات الديمقراطية التي تضمنت حقوق الجميع على أساس من المواطنة والاستحقاق بعيدا عن المحسوبية والزبونية والاعتبارات الضيقة العرقية والقبلية وكل ما من شأنه الإخلال بمساواة كافة المواطنين الأمر الذي رسخ يم تكريس العدالة الاجتماعية.

وعليه يترتب علينا إدراك ان تجسيد مثل هذه الأهداف ليس هوطريق الخلاص فحسب وانما هوكذلك الشرط الأكيد لتنمية اقتصادية واجتماعية شاملة. فعلينا ان نعي كل الوعي بالارتباط الوثيق ما بين موضوعات حقوق الانسان والوحدة الوطنية في ابعادها المتعلقة بضرورة تجاوز النزعات الخصوصية العرقية والفيئوية والإبقاء على الانتماء الوطني.

هوامش البحث:

- وثيقة صلاة الغائب 25 مارس 2009؛
- القانون المجرم لممارسات الاسترقاق 2007؛
- وثيقة حقوق الإنسان، سبتمبر 2010؛
- وثيقة العرض الدوري الشامل 2010/11/10؛
- خطاب انتنونيو2012/3/25 – روصو.

التغير الاجتماعي في موريتانيا
بين تطلعات الحداثة ورواسب التقاليد

د. عبد الوهاب ولد محفوظ
أستاذ بجامعة نواكشوط

مقدمة:

لقد ظل مفهوم التغير الاجتماعي من المفاهيم الخاصة بالدراسات السوسيولوجية المهتمة أساسا بالمجتمعات الصناعية الساخنة، أما مجتمعاتنا التي كان ينظر إليها على أنها مجتمعات "راكدة"، "لا تتغير" فقد ظلت من اهتمام الانتربولوجيا إلى وقت قريب حين انتبه بعض الدارسين المتأخرين إلى أنه لا وجود لمجتمع جامد لا يتغير كما كان يعتقد، بل لكل مجتمع حياته السياسية وحركيته الدائمة في سبيل الأفضل، وإن اختلفت هذه الحركية من مجتمع لآخر تبعا لاختلاف المستويات والخصوصيات الثقافية والحضارية التي تتحكم في مدى مرونة المجتمع أوانغلاقه كما هوالحال بالنسبة للمجتمعات الصناعية سريعة التغير بالمقارنة مع المجتمعات الزراعية أوالرعوية التقليدية التي تعتبر أكثر بطئا في حركيتها.

لكن ما هومفهوم التغير الاجتماعي؟

وإلى أي حد نستفيد منه في دراستنا للدولة والمجتمع في موريتانيا؟

أي نوع منه بالضبط يمكن أن نلمسه في هذا المجتمع؟

إيجابي(صاعد) أم سلبي (هابط) ؟ بطئ أم متسارع؟ ما الغاية منه؟

ذلك ما سنحاول التعرف عليه بعد أن نتعرف على مفهوم التغير.في حد ذاته، فما المقصود بهذا المفهوم إذن؟

أولا: التغير الاجتماعي: محاولة لتحديد المفهوم

التغير بشكل عام هوالتبدل والانتقال من حالة معينة إلى حالة أخرى مختلفة،أما إذا كان اهتمامنا بهذا الانتقال مقتصرا على المجتمع وعناصره ونظمه وعملياته والعلاقات بين العناصر أسميناه تغيرا اجتماعيا، والذي قد يكون صاعدا وقد يكون هابطا لكن محددا وقابلا للتحقق عكس مفهومي التطور والتقدم اللذين ينطويان على حمولة أيديولوجية أكثر منها علمية تجعلنا أمام حتمية تاريخية ومسار خطي معين ينبغي أن يتحرك من خلاله الجميع دون إعارة أدنى انتباه للخصوصيات التاريخية والثقافية للمجتمعات الإنسانية الأخرى.

إن ما يؤخذ على مفهوم التطور هوالتركيز على مسار خطي،وعلى بدايات ومراحل كبرى معينة يسير في إطارها التاريخ الاجتماعي، إنها مراحل عرفها الغرب وبالضرورة ستعرفها المجتمعات الأخرى

وكأننا والحالة هذه أمام حتمية اجتماعية مثلما هوالحال بالنسبة للظواهر الطبيعية، نجد هذا لدى أوغست كونت وسان سيمون واسبينسر وماركس وغيرهم ونجده قبل ذلك لدى داروين في نظريته حول النشوء والارتقاء.

إن هذا الهاجس الحتمي ذا النزعة الإيديولوجية هوالذي غذى مفهوم "التقدم" وساهم في انتشاره، وكأن الغرب هوالمتقدم الذي ينبغي أن يحذوحذوه الجميع والمجتمعات الأخرى هي المتأخرة.، لكن على أي معيار نعرف أن هذا المجتمع أوذاك هوالمتقدم بشكل يجعل منه مركزا يتحرك إليه الجميع ؟ وإذا كان هذا المعيار لا يوجد في عالم المثل الأفلاطوني فبأي حق يجوز لنا أن نتخذ من مجتمع معين معيارا نحكم من خلاله على المجتمعات الأخرى[1]؟

هذا الطرح بالذات والهاجس النقدي الذي أصبح هما لدى السوسيولوجيين المتأخرين هوالذي ساهم في الانتقال بالنظريات السوسيولوجية حول التغير الاجتماعي من النظريات الحتمية (déterminisme)[2] التي ترى بأن هناك عوامل حاسمة هي التي تقوم بنقل المجتمعات من مرحلة معينة إلى مرحلة أخرى مغايرة، إلى النظريات التفاعلية (interactionnisme) وذلك بفضل الانتباه إلى أن الظاهرة الاجتماعية ليست هي الظاهرة الطبيعية أوالفيزيائية التي تسير وفق قوانين حتمية كما كان عند البعض، بل هناك خصوصيات اجتماعية تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وكذا السيرورات التاريخية لكل مجتمع على حدة.

في هذا الإطار نجد Guy Rocher[3] يؤكد أن دراسة أي تغير اجتماعي تعني بصورة أساسية دراسة التغيرات البسيطة القابلة للملاحظة والتحقق (Observables et vérifiables) في مجال جغرافي واجتماعي محددين وفي وقت معين. وهوإما أن يكون تغير توازن أوتغير بنيات[4] (ch. d'équilibre ou ch. de structure)، يكون الأول داخل البنيات دون أن يظهر بصورة واضحة في التغير العام، والثاني يأتي في مرحلة تالية بعد أن يتهيأ المجتمع للتغير، بمعنى أن كل الأحداث الجزئية التي تمس الأفراد أوجزء من المجتمع قد لا تدخل في إطار التغير الاجتماعي ولكن قد يكون لها إسهام فيما بعد في إحداثه خصوصا بعدما يعم تغير التوازن كل عناصر البنية وينقلها من مرحلة معينة إلى مرحلة أخرى، هكذا يجد Guy Rocher أنه من أجل أن يكون هناك تغير اجتماعي ينبغي أن يتوفر على عدة مميزات أساسية[5]:

أولا: أن يكون عبارة عن ظاهرة جماعية تمس شروط الحياة ونمطياتها؛

1 - عبد الجليل حليم: التحديث القروي التحديث القروي ورأسملة الزراعة المغربية - عدد الصفحات 13 - تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي - جامعة محمد الخامس - منشورات كلية الآداب - سلسلة ندوات ومناظرات رقم 10 – 1988.ص 89

2 - Mendras (Henri) - Forsé (Michel): Le changement social – tendances et paradigmes. Troisième tirage – Armand Colin – Paris 1983. ch. V.

3 - Rocher (Guy): Introduction à la sociologie générale، T3 – Le changement social – éd. HMH – 1968 – p: 17.

4 - هذا التمييز الذي قام به بارنسوز في إطار التغير، أورده Guy Rocher في هذا المجال ص: 18-19.

5 - Rocher (Guy): ibid. – p: 20-21.

ثانيا: أن يحدث تغيرا في البنيات بشكل يمكننا من ملاحظته في كليته أوفي بعض جوانبه؛

ثالثا: أن يكون من الممكن ملاحظته في إطاره الزمني: أي التغير من النقطة الزمنية أ إلى النقطة الزمنية ب، يعني أن البنية لم تعد هي هي، وإنما تغيرت إلى بنية أخرى. ولذلك فمن أجل تحديد هذا التغير أوذاك علينا أن نعرف صورة وخصائص ومميزات كل بنية في نقطة زمنية معينة لنعرف ما إذا كانت قد تغيرت إلى بنية أخرى في ظروف زمنية أخرى أم لا؟

أما الميزة الرابعة فتشير، حسب Guy Rocher دائما، إلى أنه لكي يكون التغير بنيويا بالفعل عليه أن يكون صامدا ومستمرا وقادرا على البقاء، أي أن يكون دائما وليس عابرا.

ما يهمنا هنا هوأننا عندما نكون أمام تغير معين فإننا بالنتيجة سنكون أمام "تحول بسيط قابل للملاحظة في زمن معين يؤثر [...] في بنية أوسير تنظيم جماعة معينة ويغير اتجاه سير تاريخها" (Guy Rocher – p:22).

هذه الخصوصيات الزمنية والمجالية وكذا الاجتماعية هي التي تجعلنا نتجاوز الطرح الشمولي والحتميات التاريخية الكلاسيكية التي تستجيب للإيديولوجيات أكثر مما تستجيب للعلم، فالحتمية في العلوم الاجتماعية عبارة عن نوع من الأساطير وبالتالي فهي عنصر شغب أكثر من أن تكون عامل إفادة في ميدان البحوث الاجتماعية[1] كما يرى ريمون بودون (Raymond Boudon) لكونها ستنزاح بهذه البحوث إلى تقليد أعمى لمنهج ومنطق العلوم الطبيعية التي تختلف عنها أصلا، وهوالانزياح والخلط الذي جعل بودون نفسه يؤكد على ضرورة الفصل بين الظاهرتين الطبيعية والاجتماعية بل وإبراز محدودية هذه الأخيرة ومحليتها بالإضافة إلى إبراز العلاقة بين الصدفة والتغيرات الاجتماعية، لكون الصدفة في نظره ليست موجودة فحسب، "وإنما ينبغي الاعتراف بوجودها إذا أردنا الاعتراف بعدد كبير من الظواهر"[2] وذلك لدحض كل الرؤى ذات الحتمية الجافة في تفسيرها لسير المجتمعات الذي ينتج دائما عن أفعال تاريخية ثابتة.

نستنتج مما تقدم أن التغير الاجتماعي عبارة عن انتقال بسيط لظواهر اجتماعية محددة في زمن ومكان محددين، قد يكون إراديا وقد يكون عرضيا لا يمكن التحكم فيه، قد يكون إيجابيا وذا معنى وقد يكون سلبيا وتحاول الجهات المعينة إيقافه أوالحد منه. أما التحول الاجتماعي فهوعبارة عن مجموعة من التغيرات المتراكمة عبر فترات تاريخية طويلة، ولعدة أجيال، ولذلك لا تمكن ملاحظته من خلال مقياس قصير، وإنما بالأحرى من خلال علوبعيد حسب Guy Rocher؛ أي بعد أن تكون بيننا وبينه مسافة كبيرة. كما يتميز التطوروالتقدم عن التغير بكونهما يسيران دائما نحوالأفضل وفق مراحل كبرى معينة، من حالة دنيا إلى حالة أكثر تطورا. وهوما يجعله ينزاح أكثر نحومحورية عرقية مركزها الغرب أكثر من تبنيه لمبادئ علمية موضوعية تحاول التخلص من الذاتية والشمولية في الأحكام كالتي نلمس في الدراسات الحديثة للتغير الاجتماعي، والتي

1 - للتعمق أكثر يمكن الرجوع ل: Boudon (Raymond.): La place du désordre: Critique des théories du changement social – PUF 1984.

2 - Ibid. – p: 184.

جاءت كبديل موضوعي للدراسات الكلاسيكية لمفهومي التطور والتقدم.

لكن ما ينبغي التركيز عليه هنا – خصوصا في دراستنا للتغيرات الحاصلة في موريتانيا – هومعرفة الدور الذي ساهم به الفاعلون الاجتماعيون، والذين قد يكونون أفرادا أوجماعات أوفئات اجتماعية،ثم الاهتمام بنوع هذه التغيرات، وذلك عن طريق التفكير في الآليات والشروط التي تتم في إطارها، وكذا النتائج التي ستتمخض عنها ومدى ملاءمتها للمجتمع المدروس، هل هي سلبية أم إيجابية؟ تغيرات إلى الوراء أم إلى الأمام؟ وأخيرا محاولة معرفة ما إذا كانت هذه التغيرات هادفة وذات معنى، بدء بتأسيس الدولة إلى حد الآن، فنفكر في هذا المعنى والغاية التي يمكن أن نصل إليها ونشجعها. أم أنه عكس ذلك ونحاول إيقافه أوالتخفيف من أخطاره.

إنها تغيرات ساهمت في إنتاجها عوامل مختلفة اجتماعية، سياسية ثقافية، اقتصادية بل وفي بعض الأحيان طبيعية، منها ما هوداخلي ومنها ما هوخارجي، أجنبي. لكن ما يهمنا بالدرجة الأولى هومعرفة إلى أي حد كان الإنسان الموريتاني هوصاحب الدور الفعال في هذه التغيرات؟

وهل هناك عوامل إنسانية إرادية (بعد التفكير والتخطيط) يمكن التحكم في نتائجها وتوجيهها لصالح تنمية المجتمع؟ أم أن هناك أفعالا لا إرادية لا يمكن السيطرة عليها وتوجيهها؟ عوامل فردية أم جماعية؟

بطبيعة الحال ينبغي التركيز بالدرجة الأولى على العوامل الجماعية، لكن ينبغي كذلك أن نعرف أن هناك أفرادا لهم دور بارز في استقطاب الجماعات وحملهم على قبول مخططاتهم لاسيما في مجتمع تقليدي كالمجتمع الموريتاني.

ما هوالعامل المستقل الذي قد يكون أكثر تأثيرا، والذي يسميه ماكس فيبير بالسبب الحاسم أوالمراهنة على التاريخ حسب تعبير Guy Rocher[1] (المراهنة على ما سيحدث L'histoire hypothétique) ما هي العوامل التابعة؟ ما مقدار تأثير كل عامل على الآخر؟ هل يمكننا قياس هذا التأثير؟ هل هذه التغيرات التي حصلت في موريتانيا ظرفية وآنية أم لها جذور في الماضي وبالتالي يصبح من الضروري أخذ العامل الزمني والبعد التاريخي بعين الاعتبار، ليس كمجموعة من الأحداث، بل التاريخ كمادة معرفية أساسية لمعرفة أي نوع من التغير الاجتماعي وقياسه؟

لكن ألا يؤدي بنا هذا الرجوع إلى التاريخ إلى نوع من السقوط في بحث تاريخي يسرد الأحداث والوقائع أكثر مما يحللها ويستخلص منها النتائج؟

بطبيعة الحال نرى أن الأمر ليس كذلك،ذلك أن الحاضر الذي يهمنا والمستقبل الذي نستشرفه لا يمكن الوصول إليهما إلا بالاستناد إلى الماضي، والتاريخ ليس كأحداث فريدة يؤرخ لها المؤرخ ولكن كوقائع وأحداث متعددة في أماكن وفترات مختلفة للإستعانة بها كثوابت معينة. فإلى أي حد أسعفنا هذا الرجوع إلى الماضي؟ وأي نوع من التغير هذا الذي يمكن أن نلمسه في موريتانيا قبل الاستقلال ؟ما هي العوامل الخارجية التي ساهمت في إحداث هذا التغير في المجتمع

1 - Guy (R.): Op. cit. – p: 21.

الموريتاني؟ ذلك ما سنحاول التعرف عليه أكثر في المحور التالي:

ثانيا: العوامل الخارجية كآلية للتغير في موريتانيا:

إلى جانب ظاهرة العولمة الراهنة ومنظومة الاتصال التي جعلت العالم قرية كونية واحدة فإن رجوعا بسيطا إلى البعد التاريخي للمجتمع الموريتاني قبل وأثناء الاستعمار ومع الاستقلال وما تفاعل في إطار هذا البعد من محمولات علائقية مختلفة، يجعلنا أمام وتيرة من التغيرات لعب فيها التدخل الاستعماري دورا أساسيا رغم ما نتج عنه من سلبيات على جميع المستويات،ذلك أن البورجوازية الأوربية التي فتحت لها أسواقا في الخارج باستعمارها للبلدان الإفريقية والآسيوية لم تتمكن فقط من زيادة ثروتها الصناعية والسياسية وترسيخها، بل تمكنت كذلك من زيادة هيمنتها على الاقتصاد العالمي ونشر حضارتها عبر المعمورة؛ وهي "الحضارة" التي فرضت على المجتمعات الأكثر "بربرية وتوحشا"،حسب زعمهم،فأرغمتها على أن تصبح هي بدورها مجتمعات "بورجوازية"[1] أوعلى الأقل سائرة في طريق البورجوازية.

نحن هنا لا ننكر أن المجتمع التقليدي الموريتاني كان يتغير كباقي المجتمعات الإنسانية وباستمرار قبل التدخل الاستعماري، لكننا لا ننكر أيضا أنه كان تغيرا بطيئا وفي بعض الأحيان سلبيا وارتداديا خصوصا عندما نعرف أن السلطة المركزية التي أسسها المرابطون مع نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر انطلاقا من جزيرة تيدرة – بجانب انواذيبوحاليا – وكذا أزوكي وشنقيط الأولى (آبير)، قد تحللت إلى سلط قبلية مجزأة بعد وفاة الأمير المرابطي أبوبكر بن عامر، وإلى تشكيلات أميرية وقبلية متصارعة على السلطة والغنيمة بعد دخول بني حسان المجال الموريتاني الحالي مع نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلاديين رغم ما لهذه التشكيلات من بذور جنينية لما يمكن أن يسمى "بدولة مركزية" من خلال انقلاب الهيمنة القرابية لصالح هيمنة سياسية حين أصبحت السياسة تنتج القبائل بعد أن كان العكس هوالصحيح.

هذه التغيرات الذاتية في أغلب الأحوال – رغم عدم إهمال العامل الخارجي في ذلك الوقت كالهجرات القبلية والقوافل التجارية وقبل هذا وذلك الفتوحات الإسلامية المتكررة في أشكال مختلفة – هذه التغيرات إذن ستصطدم في بداية القرن العشرين بتغييرات أكثر تسارعا مصدرها الأساس هوالخارج وبالضبط الاستعمار الفرنسي.

لا يمكن إنكار أن هناك عوامل داخلية: مناخية، جغرافية، ديموغرافية، دينية، ثقافية، سياسية،... لكن لابد من أخذ العوامل الخارجية بعين الاعتبار، وأهمها التأثير الذي مارسه الاستعمار بما يحمل من ثقافة وتوجهات مستقبلية ليس على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي فحسب بل على المستوى السياسي كذلك.قد يكون الناجح الأكبر في هذا التغير المفروض من الخارج هوالمتروبول وفي جميع المستويات، بدء بفتح أسواق في الخارج تعزز له التراكم

1 - عبد الجليل (حليم): "التدخل الاستعماري والحركية الاجتماعية" – مجلة الوحدة – عدد الصفحات 5 ـ محلة الوحدة – السنة الخامسة ـ العدد 57 يونيو 1989 - ص: 14.

الرأسمالي، وانتهاء بترسيخ ثقافته التي يريد لها أن تكون مسيطرة، وبالنتيجة تدعيم التبعية الثقافية والسياسية والاقتصادية لصالحه. لكن هذا النجاح الذي سيكون بالضرورة على حساب الآخر المستعمَر (بفتح الميم) سيمكن هذا الأخير أيضا وفي أغلب الأحوال من الدخول في وتيرة من التغير أكثر تراكما خصوصا إذا كان المجالان السوسيوثقافيان مختلفان (المجال الموريتاني والفرنسي) دون أن نقول إن أحدهما أكثر تقدما من الآخر، طالما أن كل نموذج ثقافي، حسب رأينا، متقدم في مستواه ومجاله الاجتماعي والتاريخي مادام من إنتاج هذا المجال والشاهد على وجوده وإلا لكان غريبا في الداخل ومبتورا من إطاره الاجتماعي الموجود فيه. المهم هنا هوأن هذا المختلف الذي بدأ يشرع تدخله على أنه في مجيئه إنما جاء لنشر الحضارة وإنقاذ الشعوب المتخلفة من براثن الجهل حسب رأيه هوالمسؤول بالدرجة الأولى عن هذه الحركية والانتقال بالمجتمع الموريتاني من إطاره التقليدي إلى إطار عصري، من قائدية بدون قائد قبل تأسيس الدولة إلى ما يمكن تسميته بقائدية مركزية، من مجتمع سائب إلى مجتمع دولتي، من مجتمع مجزإ إلى مجتمع ممركز.

نحن هنا لا نؤكد أن الاستعمار هوالعامل الوحيد المفسر لكل ما حدث من تغيرات في موريتانيا، لكن قد نعتبره عاملا أساسيا حتى في الحركية التي بدأت تنبع من الداخل بشكل أكثر تسارعا من أي وقت مضى، سواء كان بطريقة واعية وإرادية أوبطريقة تلقائية. وذلك لسبب بسيط وهوأن المثاقفة التي بدأ بها المستعمر لهذه الشعوب أدت بطريقة أوبأخرى إلى مثاقفة مضادة تطورت لتنتج حسا وطنيا نسبيا يتجاوز – خصوصا في ذلك الوقت – الحس القبلي ويدعوإلى الوحدة في وجه الاستعمار والمطالبة بالاستقلال وبالنتيجة تأسيس الدولة الوطنية المستقلة. إنه انصهار أمام الأخطار الخارجية ليس على مستوى التشكيلات الحزبية والندوات والإضرابات المستمرة في صفوف بعض عناصر النخبة المستنيرة، بل على مستوى المقاومة المسلحة أوالجهاد الذي خاضه زعماء سياسيون ودينيون في كل أنحاء البلاد كذلك. هذه الحركية التي تبدوواضحة على المستوى السياسي نحوتأسيس دولة مركزية صاحبتها حركية أخرى على المستوى الاقتصادي تمثلت بعض جوانبها في الانتقال من نظام المقايضة إلى الهيمنة المتزايدة للنظام النقدي نتجت عنها حركية في العلاقات الاجتماعية من علاقات حميمة إلى تنقيد هذه العلاقات – لكن في المدن والمراكز الحضرية أكثر من البوادي – خصوصا بعدما أدخل المستعمر نظام الرواتب والنقود من أجل نشره للأفكار الرأسمالية وهوالنظام الذي تواصل مع الدولة الوطنية بدرجة أصبح معها التراكم والثروة محددين أساسيين للمكانة الاجتماعية إلى جانب رأس المال التقليدي المتمثل في الجينالوجيا والبنيات القرابية القديمة، "بطارين" "Patrons" إلى جانب "أولاد الخيام الكبيرة".

نحن هنا أمام تركة استعمارية متعددة الجوانب تتجاوز السياسي والاقتصادي والاجتماعي إلى الثقافي ليس على مستوى النظام الغذائي الذي ظل قبل الاستعمار متأسسا على نمط الإنتاج الرعوي كاللحوم والألبان فقط، بل كذلك على مستوى الملبس والعادات والتقاليد والسكن والعلاقات الاجتماعية وكذا تصور المجتمع لذاته وتصوره لدولته.

يقول البكري بخصوص نظام الأكل في المجتمع الشنقيطي القديم: "... وليس يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا – إنما أموالهم الأنعام وعيشهم ن اللحم واللبن ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أ:له إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أوبلاد السودان"[1]. أما الآن فأصبح من النادر أن تجد غذاء مقتصرا على هذين العنصرين سوى في البوادي النائية وبشكل قليل.

هذه الحركية المتكاملة التي تظهر بشكل واضح تدخل الغرب ومؤسساته الحديثة في المجتمع التقليدي، ما كانت لتتم بهذا الشكل – حسب رأينا – لولا انتقال هذا المجتمع من مجتمع بدوي متنقل إلى مجتمع شبه حضري مستقر بسبب موجات الهجرة المتلاحقة بعد تأسيس الدولة بفعل الجفاف الذي بدأ يهدد المجال البدوي منذ سبعينات القرن الماضي. كيف ذلك؟

ثالثا:العوامل الداخلية للتغير

إلى جانب العوامل الخارجية المتمثلة في التدخل الاستعماري والتلاقح الحضاري بين شعوب المنطقة بفعل التجارة والهجرة وكذلك ظاهرة العولمة المعاصرة ونظام الاتصال بما فيه من تدفق للمعلومة والصورة وأنماط الحياة المختلفة، فإنه يمكن أ ن نسجل عدة عوامل داخلية ساهمت بشكل واضح في إحداث تغيرات اجتماعية واضحة في المجتمع البدوي التقليدي ليصبح مجتمعا حضريا عصريا إلى حد كبير ؛ فما هي هذه العوامل إذن؟

1 - الهجرة الريفية:

1. لقد تم تأسيس الدولة في موريتانيا، والعالم البدوي يشكل النسبة المهيمنة في البلاد حيث وصلت نسبة البدوالرحل 70% سنة 1965 بعد أن كانت تقدر ب 80% سنة 1960 إلى جانب ما يزيد على 15% من القرويين لتتراجع نسبة البدوإلى 9،1% 2013 وترتفع بالمقابل نسبة التحضر بفعل الهجرة البدوية والقروية وبشكل متسارع حيث ارتفعت من 1،9% سنة 1965 إلى 3،48% حسب إحصاء 2013 بشكل جعل مدنا كالعاصمة نواكشوط تنتقل من مقاطعة واحدة وولاية واحدة في الستينات هي مقاطعة لكصر وولاية نواكشوط (8000 ساكن 1958) إلى ست مقاطعات مع تصاعد موجات الجفاف في السبعينات من 40.000 ساكنا سنة 1970 إلى 130.000ساكنا سنة 1974 عندما تضاعف أعداد النازحين وهي: لكصر وتيارت وتفرق زينه والسبخة والميناء وتوجنين ثم تسع مقاطعات مع بداية التسعينات وذلك بإضافة مقاطعات دار النعيم وعرفات والرياض ثم إلى ثلاث ولايات مع 2014 هي ولاية نواكشوط الغربية ونواكشوط الجنوبية ونواكشوط الشمالية وكل ذلك بسبب ضربات الجفاف التي جعلت الأهالي يهرعون إلى المدن بحثا عن وسيلة للعيش والحياة الكريمة. وهكذا يمكن القول إنه باستثناء المدن التاريخية (شنقيط، ولاته، تيشيت، وادان..) ومدن قليلة أخرى تأسست مع التدخل الاستعماري فإن معظم السكان الموريتانيين هم سكان بدويون وقرويون

1 - البكري (أبوعبيد): لمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب – وهوجزء من كتاب: المسالك والممالك – (مطبعة الحكومة – الجزائر – 1857) – مكتبة المثنى ببغداد ص: 164.

هاجروا إلى المراكز الحضرية وبشكل شحيح نسبيا في الستينات من القرن الماضي بفعل ارتباط بعض أفرادهم بأجهزة الدولة: موظفون، متعلمون، مستخدمون في المناطق الصناعية (ازويرات...)، لكن مع سنوات الجفاف في السبعينات ازدادت وتائر الهجرة بشكل متسارع بعدما شكلت البادية مراكز طرد في وقت ظهرت فيه المدن أكثر من أي وقت مضى كمراكز استقطاب وجذب للجيوش الاحتياطية التي تكدست، وخصوصا في الثمانينات، وبشكل مكثف في أحياء هامشية بحثا عن العمل أوعلى الأقل الاقتيات من فتات "النخبة الحضرية" التي هي في طور التشكل (كبار التجار وموظفون سامون في الدولة).غير أن ما يهمنا هنا هوكون هذه الأغلبية المهاجرة، كانت في هجراتها هذه تحمل معها منظومتها الثقافية التقليدية ليس على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي فحسب، بل على المستوى المجالي كذلك ؛بمعنى أن هؤلاء المهاجرين الذين ينزاحون كل يوم أكثر إلى المدن، سيحافظون في مناطقهم الجديدة على خرائطهم المجالية القديمة، أي أنهم سيبقون على حدود التجاور المكاني الذي كان ملازما في البوادي والقرى لحدود التجاور القرابي والنسبي وبالتالي البنيوي الذي ظل يؤمن لهم أسلوب التكافل الاجتماعي والاقتصادي إلى جانب التحالف السياسي في إطار العمليات الأكثر "عقلانية" كالعمليات الانتخابية أثناء الانتقال الديمقراطي.

نحن هنا إذن سنكون أمام إعادة إنتاج لكل ما هوبدوي في المجال الحضري، ولكل ما هوتقليدي في إطار ما هوعصري، نجد هذا في المدن الداخلية التي تتوزع أطرااها قبائل مختلفة بشكل واضح لكل قبيلة في الغالب جهتها، ولكل فخذ أوعشيرة أوأسرة كبيرة قرية أوبادية "نسبية" بفتح النون والسين أوحي من المدينة يعيد إنتاج نفس التجاور المكاني ونفس العلاقات الحميمة السابقة رغم بعض التغيرات الطارئة، ونجد هذا أيضا في العاصمة السياسية انواكشوط وإن بشكل أقل وضوحا حيث يعوض التجاور المكاني النسبي تجاورا جهويا أكثر اتساعا، فلكأن العنصر الجينالوجي هوالمؤسس للعنصر الجهوي، والتجاور القرابي هوالمؤسس للتجاور المكاني والشاهد على وجوده رغم أن بدايات التحضر الحديث ظهرت مع التدخل الاستعماري. كيف ذلك؟

2 - عملية التحضر:

عندما جاء الاستعمار وجد أن عمليات الضبط الاجتماعي وبالتالي السيطرة على جميع المستويات غير ممكنة في مجتمع يعيش على الترحال أكثر مما يعيش على الاستقرار ؛لذلك فمن أجل استدراجه والتمكن منه لابد من العمل على خلق مدن متفرقة في هذا المجال الرحب،مدن لا تتوفر على سلطات عسكرية وإدارية فحسب، بل كذلك على مشاريع اقتصادية أوعلى الأقل على أجهزة مسؤولة عن مساعدة المجتمع واستقطابه ومن ثم احتضانه والسيطرة عليه. ولتتم هذه العملية بسهولة لابد أن يكون هناك وسطاء اجتماعيون سيكونون بالضرورة زعماء تقليديين لتلك المجموعات المحيطة بالمدينة الجديدة.

هذا الدور الذي لعبته عملية التمدين والتقري في احتضان المجتمع القبلي في ظل الاستعمار ومن ثم تغيير بعض مسلكياته هوالذي ستنتبه إليه السلطة الوطنية مع الاستقلال وتعمل على تشجيعه مسجلة بذلك

تغيرات كبيرة حتى على مستوى العلاقات الاجتماعية من علاقات مفتوحة كانت تتلاءم مع طبيعة السكن المفتوح في الخيمة البدوية إلى علاقات شبه مغلقة في السكن الحضري المغلق، من أسرة ممتدة إلى أسرة شبه نووية فرضتها الظروف الحضرية وطبيعة البناء المغلق والفرداني في بعض الأحيان، من ملكية جماعية إلى ملكية خاصة،من رأسمال جينالوجي أوقرابي إلى رأسمال جينالوجي واقتصادي، من علاقات أخوية حميمة إلى تنقيد هذه العلاقات، من الارتباط بالقبيلة إلى الارتباط بالقبيلة والمدينة أوالجهة كإطار أوسع ثم الدولة أوالوطن مع تأسيس الدولة الوطنية. كيف ذلك ؟

3 - تأسيس الدولة الوطنية الحديثة وإشكالية التغير:

لقد شكل تأسيس الدولة الوطنية عاملا مهما في إحداث تغيرات متسارعة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكان لهذا الانتقال والتغير عوامل اجتماعية وسياسية إرادية خطط لها فاعلون اجتماعيون وسياسيون من أجل مركزة السلط والتمكن من تحويل المجتمع من مجتمع بدوي إلى مجتمع مدني،من مجتمع مجزإ إلى مجتمع ممركز،لكن هناك عوامل طبيعية واقتصادية، كالجفاف والتصحر الذين اجتاحا البلاد مع بداية السبعينات والثمانينات جعلت المجتمع الرعوي يتقهقر اقتصاديا ويبدأ في النزوح والهجرة إلى المدن الصغرى والمتوسطة فالمدن الكبرى بحثا عن بدائل اقتصادية تمكنه من الحصول على وسائل عيش ملائمة وبالنتيجة المساهمة في تسارع عملية الهجرة القروية التي هي بالدرجة الأولى حركية ثقافية ومهنية واجتماعية قد تمكن الدولة في الأخير من توصيل خطابها التحديثي إلى القبائل التي لا تزال أكثر تقليدية.

إنها تغيرات تهدف بطريقة أوبأخرى إلى الإقلاع بشكل عقلاني بدء بتأسيس الدولة في مرحلتي الاستقلال الذاتي 28 نوفمبر 1958 والاستقلال التام في 28 نوفمبر 1960 وانتهاء بالتحرك الواعي نحوخلق نواة أساسية لمجتمع مدني يمارس الديمقراطية بشكل يضمن الحريات العامة والمساواة والعدالة الاجتماعية ويشعر الفرد بكونه مواطنا وله الحق في المشاركة في السلطة عندما أصبح ناخبا، وذلك من خلال حزب الشعب كحزب وحيد يضمن هيمنة الدولة على الحساسيات التجزيئية التقليدية عقود الاستقلال ثم بعد ذلك عن طريق أول نظام تعددي تمخض من دستور 1991 أشفع بأول انتخابات رئاسية وبرلمانية تعددية تم إجراؤها في البلاد سنة 1992م.لكن هل شكل هذا الحراك تغيرا بنيويا في الدولة والمجتمع أم أنه مجرد تغير توازن يجعل الماضي يحيا مع الحاضر ويشرع وجوده ؟

إن ما تنبغي الإشارة إليه هنا هوأن هذه التغيرات التي بات من الواضح وجودها في الدولة والمجتمع بموريتانيا لا يمكن أن تخفي عنا رواسب كثير من التقاليد ما فتئت تجد لنفسها قواعد إستراتيجية في هذه الحركية وتضعف من فعاليتها بشكل جعل جهاز الدولة نفسه يظل في أعظم الأحيان جسما غريبا يتوفر على "بنية تحتية غير كافية [...]، هياكل إدارية معقدة ومتقادمة [...]، نسيج صناعي هش* وهزيل وتسيير للمؤسسات

* - لحبيب سراج سني – ملف جريدة الاتحاد الاشتراكي – فبراير 1997 – "مؤهلات المغرب

الاقتصادية غير معقلن خصوصا في العقود الماضية".ذلك أنه حتى قبل قيام الدولة الوطنية الجديدة كانت هناك أنوية جنينية قوية لسلطات مركزية في المجتمع الموريتاني التقليدي وبعد الاستقلال أصبحت هذه السلطات تتعامل كل يوم أكثر مع المركز الذي شرع وجوده بمبادئ اتيولوجية تقليدية: محاربة الغازي باسم الإسلام، الدفاع عن النفس وبيضة الإسلام، وحدة كلمة المسلمين...، وهي المبادئ التي ستنضاف إليها بالتدريج مبادئ جديدة يمكن وصفها باللائكية[1]: الوطن، التحرر، الاستقلال، التنمية، الديمقراطية...، خصوصا أنها لا تتعارض في جوهرها مع الأهداف النبيلة للمجتمع.

مما يدل على أن التجزؤ الذي بالغت الأطروحة الانقسامية في وصف هذه المجتمعات به لم يكن في حقيقته سوى تجزؤ مؤقت من أجل مركزة أكثر استمرارا في مرحلة الاستقلال؛ وهي المرحلة التي سيبدوفيها التناغم متجسدا أكثر في المواطنة والالتفاف حول سلطة زعيم واحد ممثل في شخص رئيس الجمهورية، الشيء الذي سيجعل التغير أكثر وضحا ليس في إطار إنشاء سلطة مركزية فحسب، بل كذلك في تقبل المجتمع لها وتشريعه لوجودها رغم كونها ليست سلطة وراثية وليس لها أي بعد تقليدي.إنه تشريع يجعلنا مطالبين بالإقرار بكون السلطة في موريتانيا ليست باتريمونيالية (خالصة) بل تمثل بشكل أوبآخر باتريمونيالية جديدة، تستند على الحداثة وتتخذها كأساس.هذه الازدواجية التي يتعانق فيها التقليدي مع العصري، والمحلي مع المركزي، الباتريمونيالي مع البيروقراطي هي التي تبرر عندنا القول بباتريمونيالية حديثة في الدولة والمجتمع الموريتانيين. ذلك أننا في هذا الفضاء السوسيوثقافي لا نجد تغيرات يلغي اللاحق منها السابق ويحل محله، بل الذي نجده هومجموعة من الترسبات التي تكدس وتراكم وتشخص طبقات من الزمن مختلفة فيما بينها تذكر بما يسميه جورج بالانديه "جيولوجيا اجتماعية"[2]؛ ففي الوقت الذي نعثر في هذا الركام على "رسوبيات" قديمة تحيل إلى التمايز بين الجنسين وإلى القرابة ورأس المال الجينالوجي والديني نعثر كذلك في نفس الركام على "طبقات" أكثر حداثة ترجع إلى الحداثة والتلاقح الحضاري الجديد وكذا العولمة تطرح مسألة الدولة والديمقراطية والتنمية بما في ذلك من الحرية والعدالة والمساواة والإنصاف وحقوق الإنسان وأكثر من ذلك تطرح مسألة المواطنة وبإلحاح بشكل يظهر تغييرات تكاد تكون جذرية في مختلف الأصعدة لكنها لا تزال خجولة ولا يمكن أن نجعل منها تطورا أوعلى الأقل تحولا يلغي الكثير من ركام الماضي، لكننا يمكن أن نلمس فيه بالمقابل حركية ذات معنى تحاول إقناعنا بأنها تسير دائما نحوالأفضل رغم بطئها وبساطتها، وبتعبير آخر أراه تغيرا يريد أن يعرفنا من نحن أولا ؟ ليعطينا شخصية تتلاءم مع ذواتنا - وتجلى ذلك في

وعوائقه أثناء عولمة الاقتصاد" – رجعنا لهذا المقال لما له من أهمية في المجال الموريتاني.

1 - Halim (A.): ibid.

2- بالانديه (جورج): "السلطة والقداسة" – 7 صفحات – حوارات في الفكر المعاصر – إعداد وترجمة محمد سبيلا – مطبعة المعارف الجديدة – ط1 – الرباط 1991 – ص: 107 عن لوموند / يناير 1982.

انتزاعنا لموقعنا في مقدمة السرب العربي الذي أصبح يذكرنا أكثر من أي وقت مضى أننا مازلنا أهلا لهذا الموقع كما كنا ـ شخصية لا تتنكر للماضي بل تمكننا من الإبقاء على هويتنا الثقافية والحضارية وبالمقابل لا تجعلنا نرتمي في أحضان الأموات بل نأخذ من الحاضر أيضاما يقنع الآخر أننا نراكم الانتصارات.

إن التغير بهذا المعنى يحيلنا بدرجة أولى إلى الاختلاف، أي أن التغير الذي يريد أن يحق وجوده ينبغي أن يكون مختلفا عن التغير الذي سبقه، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان الذي لا يمكن أن يحقق هذا الوجود أوذاك إلا إذا كان مختلفا في كينونته عن الآخر.

نحن هنا أمام طرح فلسفي للتغير الاجتماعي لا يقل أهمية عن الطرح السوسيولوجي نفسه، إنه طرح يبحث عن الذات الحاضرة في ركام الذات الغابرة، دون أن ينسى تأثيرات الآخر المزامن لنا في الوقت الراهن، مما يستدعي نقدا مزدوجا ليس لذواتنا في امتداداتها التاريخية المختلفة فحسب بل للآخر نفسه الذي يريد لنا أن نتمثله دون مراعاة أية خصوصية تاريخية لنا.

ذلك أن هذا الحراك وهذه الديمقراطية التي نسجلها اليوم على أنها مكسب وطني يهدف إلى الإقلاع والتنمية الشاملة، لا ينبغي أن تحجب عنا حقيقة أساسية مؤداها أن ما يعطي لهذه الديمقراطية وتلك التغيرات مغزاها الحقيقي هوتأسيسها على مبدأ الاختلاف، اختلاف يميز الحاضر عن الماضي، واختلاف يميز أي مجال سوسيوثقافي عن المجالات الأخرى، وكذلك اختلاف في نفس المجتمع يجسد تغاير المواقف والتوجهات والرؤى اتجاه السلطة ومشروعيتها وقراراتها الإنمائية المختلفة. في هذا الإطار لا يمكن إنكار وجود نوايا جادة من لدن السلطة المركزية الموريتانية في سبيل إحراز تقدم صامد ومطمئن على طريق التنمية والإقلاع الشامل،لكننا لا يمكن أن ننكر بالمقابل أن هنا عوائق محلية ودولية،

إنها تغيرات بسيطة داخل عناصر البنية لن تفتأ تتحول بعد تجارب متتالية إلى تغير بنيات قد تمكن المجتمع بعد عقود من فهم الحداثة بشكل جاد وأكثر إيجابية مما عليه الأمر الآن.

إن ما يمكن ملاحظته في هذا الإطار هووجود حراك اجتماعيوثقافي وسياسي وكذا اقتصادي في المجتمع الموريتاني لكنه لم يتمكن لحد الآن من تحويل البنية الكلية للمجتمع إلى بنية أخرى مفارقة على الأقل على مستوالعقليات والمسلكيات،هذا النوع بالذات من التغير هوالذي نسميه مع بارانسوز بتغير التوازن، أي أنه تغير لا يزال داخل البنيات دون أن يقدم نفسه بشكل كلي على المستوى العام، لكنه يتفاعل في سبيل إحداث هذا الانتقال، وإن بوتائر مختلفة: من المدينة إلى البادية، ومن العاصمة المركزية والمدن الكبرى، إلى المدن الصغيرة والمتوسطة. أي من المركز إلى الأطراف،بسبب التباين في مستوى التعليم والشغل ومختلف المرافق الحيوية، فما هودور التعليم في هذه الحركية؟

3 ـ التعليم ومسألة الحراك الاجتماعي:

رغم وجود عوامل مختلفة للحراك الاجتماعي اجتماعية وسياسية واقتصادية وتجارية وحتى طبيعية أثرت في السير المنتظم للتغير في المجتمع الموريتاني إلا أن الجوانب الفكرية والتربوية والعلمية تبقى هي العامل الأبرز من بين كل هذه العوامل لإحداث تغير اجتماعي واع بذاته محافظ على هويته واستقلاليته،ولئن كانت مدرسة أبناء الشيوخ فترة الاحتلال مدرسة غبن تريد فرنسا من خلالها المحافظة على التجزؤ والانقسام وتجذير القبيلة على

حساب المواطنة من أجل السيطرة والتحكم فإن المدرسة الوطنية الموريتانية بعد الاستقلال كانت مدرسة جمهورية بامتياز لكل المواطنين دون استثناء،ففيها يجلس ابن شيخ القبيلة بجانب أبناء الأرقاء السابقين ومختلف الفئات والطوائف الأخرى دون حيف أوتمييز لتصبح بعد ذلك سلما للترقية الاجتماعية وإطارا لمحوالفوارق وترسيخ ثقافة المواطنة خصوصا عندما نعرف أن التعليم حق لكل المواطنين وكذا الشهادة وبالنتيجة الشغل بما في ذلك الوظائف السامية في الدولة مما جعل الطبقة السياسية في تجدد مستمر خصوصا حينما تم التركيز على فئة الشباب من الجنسين ومن مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية لتتصدر اهتمامات الدولة في استراتيجياتها الراهنة والمستقبلية،غير أن ما يهمنا هنا هوأن هذا الحراك متعدد الأبعاد والذي كان نتيجة منطقية لتعميم التعليم كفيل بجعلنا نتهيأ لاستقبال حراك آخر: حراك مهني (انتقال من مهنة لأخرى)[1]، حراك فئوي (من فئة إلى أخرى) وحراك على مستوى العقليات والمسلكيات، حراك في البناء الاجتماعي نفسه وبالنتيجة حراك ثقافي ثم وطني. من هنا يمكن أن نسجل أهمية المدرسة الوطنية الموريتانية في الترقية الاجتماعية وفي ترسيخ قيم المواطنة والاندماج الاجتماعي رغم بعض المخاضات العسيرة التي تنجم عنها من حين لآخر بفعل قلق الوعي بذاته لا سيما لدى بعض المجموعات التي كانت توصف بالهشاشة والتي يمكن أن تصدر عنها في بعض الأحيان ردود أفعال غير واعية ستنتهي في نهاية المطاف بمصالحة وطنية حين تتسع فرص الحريات كما عليه الحال الآن،لكن بشكل عقلاني ويمكن التحكم في نتائجه.

1 - المالكي (عبد الرحمن): "الهجرة إلى مدينة فاس ومسألة الاندماج الاجتماعي" – عدد الصفحات 10 – مجلة كلية الأدب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز/فاس – المدينة المغاربية – عدد خاص 1994 – ص: 21.

خـــــلاصـــــة

من خلال ما تقدم يمكن استخلاص مجموعة من النقاط أهمها:

أن المجتمع الموريتاني كبقية المجتمعات الإنسانية ليس جامدا كما كانت ترى ذلك الأطروحة الانتروبولوجية، بل هومجتمع متغير.

- أننا في هذا المجتمع نلمس تغيرا اجتماعيا صامدا وقابلا للملاحظة والتحقق.
- أن التغير الاجتماعي الذي تعيشه موريتانيا مصحوب بتغير ثقافي مساوله في الدرجة والمقدار.
- أنه تغير توازن وليس تغير بنيات.
- أنه تغير يحافظ على الثوابت الدينية والوطنية دون أن يتحجر أمام الآخر
- أنه تغير صاعد خطط له فاعلون سياسيون واجتماعين من أجل التنمية والإقلاع لكنه بطيء
- أنه تغير يتطلع إلى الإنصاف بين الجنسين وبين مختلف الفئات الاجتماعية في مختلف الحقوق المدنية والاجتماعية والتربوية والمهنية بما فيه حق الشغل والتقاعد
- أنه بالنتيجة يتطلع إلى المستقبل بما يحمل من تباشير الحداثة لكنه لا يزال يحمل بين جوانحه رواسب التقاليد

الموارد المعدنية لموريتانيا (الواقع والآفاق)

الباحثة/ لالة بنت سدي الأمين

مقدمة:

عرفت الحضارة الإنسانية عبر مراحل تطورها عصور ثلاثة اعتمدت في تقسيمها إلى مراحل، على المهارات التي اهتدى إليها الإنسان في تصنيع أدواره عبر تاريخه الطويل هي:

العصر الحجري، والذي نجهل بدايته، ويذهب البعض إلى أنه انتهى قبل 6.000 سنة[1]، ثم العصر البرونزي الذي بدأ مع نهاية العصر الحجري وانتهى قبل 4 آلاف سنة، والعصر الحديدي الذي مازال مستمرا. والحديد يمثل الفلز الأكثر استخداما في الصناعة، في العصر الحديث، وبه قامت الثورة الصناعية مع ظهور الطاقة "الفحم الحجري".والحديد من أهم الثروات الاقتصادية لموريتانيا، وهوالعمودي الفقري للاقتصاد الوطني ما بعد الاستقلال.

وتمثلت صادراته أكثر من 40% من الدخل القومي، وهواول مورد معدني تصدره موريتانيا إلى الخارج، ويمتاز الحديد المحلي بجودتة وارتفاع نسبة الحديد في الخام، وباكتشاف موريتانيا لمعادن أخرى هامة كالذهب والنحاس والكوارتز وغيرهم، أصبحت هناك موارد أخرى يمكن أن تلعب دورا اقتصاديا هاما،إذا ما استغلت استغلالا معقلنا يعود بالفائدة على البلاد.

ونظرا لأهمية الموضوع، سأحاول من خلال هذا البحث تسليط الضوء على واقع هذه الثروة المعدنية ومقدرات البلاد منها وتطور إنتاجها ومدى مساهمتها في الناتج الداخلي الخام، وآفاقها المستقبلية والتحديات التي تواجهها، لأفتح بذلك الباب لتعميق البحث عن ثرواتنا الطبيعية ومساراتها.

واقع الثروة المعدنية

أولا/ البيئة الجيولوجية في موريتانيا

يمكن تقسيم موريتانيا جيولوجيا إلى مناطق تبعا للأقدمية وهي كالتالي[2]:

- ظهر أرقيبات من 1900 إلى 1700 مليون سنة.
- حوض تاودني من 650 إلى 500 مليون سنة
- تيدوف من 470 إلى 300 مليون سنة
- سلسلة الموريتانيد من 350 إلى 300 مليون سنة
- الحوض الساحلي الموريتاني السنغالي منذ 225 سنة حتى الآن.

وتم تحديد ما يزيد على 900 مؤشر في هذه المناطق سالفة الذكر، مما يوحى بأن المجال الوطني غني بالمعادن التي ما زالت تحتاج

1) أساسيات علم البيئة، د. عبد القادر عابد، د. غازي سفاريتي، قسم الجيوليوجا جامعة الأردن، ص43.

2) أطلس موريتانيا، Atlas de la Mauritanie; edutéin jeune Afrique. P 1977

إلى مزيد من التنقيب، لتأكيد احتياطيات ما تم اكتشافه والبحث عن معادن أخرى، قد تكون مختبئة تحت هذه الأراضي الشاسعة، ولعل من أهم المعادن المتوفرة الحديد، الذهب النحاس والجبس والفوسفات والنفط، والغاز والملح وغيره.

ويمكن أن نقسم هذه المعادن إلى نوعين:

معادن مستغلة، وأخرى معادن غير مستغلة وسنتطرق إلى أهم المعادن المستغلة في موريتانيا وأهمها معادن، الحديد، النحاس،الذهب، الكوارتز والملح والجبس.وسنتناولها بشيء من التفصيل.

الحديد:

من المعادن الفلزية الرئيسية التي قامت عليها الحضارة الحديثة وهوالركيزة الأساسية للثورة الصناعية، التي عرفتها أوروبا في القرن 19، ولعله من أهم الموارد الطبيعية التي مهدت للاستعمار الأوربي بالدخول في حملات استكشاف وتنقيب في مختلف أنحاء الأقاليم الجنوبية أوما يعرف بعالم ما وراء البحار، للكشف عن المواد الأولية التي تحتاجها المصانع الغربية.

فكان هذا هوالعامل الاقتصادي الذي أدى إلى استعمار موريتانيا وغيرها.وقد أكدت إحدى المجلات الفرنسية الصادرة 1900 أنه عثر على قطع معدنية في منطقة الجل شمال موريتانيا، وكان القرن 20 هوبداية استعمار البلاد. وبعد دخول المستعمر عهد إلى الجيولوجين الفرنسين بالمركز الجيولوجي لإفريقيا الغربية الفرنسية،مهمة التنقيب عن المعادن في الفترة ما بين 1948-1946.،وقامت شركة كندية بفحص صخور المنطقة سنة 1949 ومنذ هذا التاريخ،ظهرت الإرهاصات الأولى لإمكانية استغلال معدن الحديد. وقد اكتشف المعدن في المنطقة الشمالية ولاية (تيرس زمور) وبالتحديد في ظهر أرقيبات ومنطقة القلابة المحيطة بمدينة زويرات، ويقدر احتياطيها بمليارات الأطنان، تتمركز في المراكز التالية:

قلب الغين وأم أرواقن: 1 مليار طن ونسبة الحديد في الخام ضعيفة تتراوح من 42%- 37%.

تزقاف البيضة: يصل احتياطيها من الحديد إلى 830 مليون طن نسبة الحديد في الخام 33%.

T.O.14 يبلغ احتياطيه 55 مليون طن من الحديد الغني.

قلب لعقارب أسكاف: يقدر احتياطها بـ394 مليون طن ونسبة تركيز الحديد 33%.

وتوجد احتياطات أخرى من الحديد لم يتم تثبيتها بعد في مناطق أخرى مثل، أقلاب ترزقاف الخضراء، وآتوماي، قلب أم أقرين،لبيطنية،أمكب دن،تيمرساي.

استغلال الحديد وإنتاجه:

تولت شركة ميفرما ذات رأس المال المشترك والمؤسسة سنة 1952، عمليات التعدين في سنة 1954، حيث نفذت عمليات التفجير الأولى في تزاديت وبدا الإنتاج الفعلي للحديد وتصديره سنة 1963 انظر الجدول1

لجدول رقم (1): إنتاج المعادن في موريتانيا بآلاف الأطنان

المعدن	السنوات										
	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014
الحديد	10.675	10752	11155	11233	11297	10524	11534	11146	11169	12531	13306
النحاس بالطن	-	-	5000	28733	34070	36680	36970	35279	37668	37970	33100
الذهب بالكيلوغرام	-	-	294	2169	6282	7835	8328	8177	7647	9499	9620

المصدر: شركات التعدين تازيازت MCM، اسنيم 2014

وأنتج 2516 مليون طن ليصل الإنتاج سنة 1970 إلى 9103 مليون طن، وتجاوز 11727 مليون طن، سنة 1974 بعد سنة من تأميم شركة أسنيم تراجع الإنتاج ليبلغ 7،8 مليون طن سنة 1975، ووصل سنة 1985 إلى 9203 مليون طن، وظل إنتاج معدن الحديد في تطور رغم حالات التراجع التي عرفها بعد التاميم

ونلاحظ من خلال الجدول أن إنتاج الحديد ظل في ارتفاع مستمر في الفترة ما بين 2004-2014 ليصل إنتاجه إلى أكثر من 13 مليون طن، وكانت أسعار الحديد، حينها مرتفعه. فبلغ متوسط سعر الحديد 2008 مثلا 76 دولار ليرتفع سنة 2012 إلى أكثر من 100 دولار، ليتراجع الي 40 دولار سنة 2016. وتدير الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (أسنيم) هذا المعدن وتساهم الدولة فيها برأسمال يزيد على 78%. كما تستقطب الشركة أكثر من 5000 عامل، وتعد بذلك أكبر تجمع عمالي بعد الدولة.كما تتبع لها عدة شركات، كشركة السياحة "سوماسرت" وشركة إنتاج الحديد والخرسان "سافا" وشركة كوميكا" وشركة "ساما".

ويلعب معدن الحديد دورا هاما في الاقتصاد الوطني، فهوالعمود الفقري للاقتصاد الموريتاني الحديث. ومن الممكن أن يلعب دورا مهما في تطوير البلاد اذا سير تسييرا معقلنا.

ويتم تصدير الحديد الموريتاني إلى مجموعة من الدول هي:

الصين تتلقى 55% من صادرات الحديد[1].

آلمانا 15%، سويسرا 7%، إيطاليا 7%.

وهنا معادن أخرى لا تقل أهمية عن الحديد خاصة أن بعضها يصنف معدنا ثمينا. كالذهب ومعدن النحاس الذي يعتبر معدنا هاما.

الذهب والنحاس

يعد الذهب من المعادن الثمينة،كما أن معدن النحاس من المعادن التي يتم استغلالها في أغراض مختلفة. وقد تعاقبت على المعدنين عدة شركات أجنبية. على مر استغلالهما بمراحل، فقد استغل النحاس منذ الأربعينات من طرف شركة B.R.G.M

وفي سنة 1952 أنشئت شركة معدن نحاس موريتانيا (MICIMA) وشيدت مصنعا لاستغلال النحاس،وفي سنة 1967 قامت شركة آنجلوآمريكن بدراسة للجدوائية الاقتصادية لإنتاج المعدن من خاماته. ولم ينتج إلا في سنة 1969،حيث بدأ الإنتاج الفعلي للنحاس من طرف شركة (TORCO)، إلا أنه توقف سنة 1978 نتيجة لتدهور أسعار النحاس وارتفاع تكاليف الطاقة.ليبدأ من جديد مع شركات اخري وفي سنوات لاحقة هي:

1981 بدأ أعمال من طرف شركة سامي بأشغال الإنتاج.

1991 -1996 قامت شركة موراك بمعالجة 3 مليون طن من مخلفات الإنتاج 6طن من الذهب.

1997 تم إنشاء شركة GMAK ولكنها لم تتجاوز إلى مرحلة الإنتاج بسبب تدني أسعار النحاس.

2004 تم إنشاء شركة MCM موريتاني كوبير ماير MAURITANIE COOPER MINRS.

2005- 2006 تم بناء مصنع MCM

وفي أكتوبر 2006 بدأ انطلاق الإنتاج من جديد.

فبراير 2007 دخول مصنع الذهب MCM في الإنتاج.

2009 زيادة طاقة المصنع من أجل معالجة 3،8 مليون طن من الخمات سنويا وإنتاج

1) المصدر: الشركة الوطنية للمعادن، الإدارة العامة.

40ـ 45 ألف طن نحاس وحوالي 90 ألف أونصة من الذهب.
لقد تمت استعادة إنتاج النحاس من طرف MCM سنة 2006 وعرف إنتاجه زيادة كبيرة منذ هذا التاريخ حتى سنة 2010، انظر تطور إنتاج النحاس والذهب جدول1.
وبصورة عامة بلغ إنتاج النحاس 37970 طن 2013، ويصدر النحاس أساسا إلى الصين، وتسهم الشركة بتوظيف 1500 عامل وطني[1].
أما النسبة للذهب فبعد توقف أنشطة موراك 1996 التي كانت تنتجه بدأت كل من تازيازت وامسم باستغلاله منذ 2006.وقد تجاوز إنتاج الذهب من أم اقرين وتازيازت 6282 كليوغرام سنة 2006 إلى 9499 كغ سنة 2013، ونسبة81% من إنتاجه من نصيب تازيازت وتوظف الشركة أكثر من 450 عامل.
كوارتز:
استغل سنة 2014 من طرف شركة لكوارتز الموريتانية
تملك الدولة الموريتانية 10% من راسمالها.وينتج المعدن المستغل من منطقة تقع إلى الشرق من لبطنية في داخلت نواذيبو. ونوعية المعدن جيدة وأسعاره دوليا في ارتفاع، بسبب استخداماته المتنوعة خاصة في مجال الالكترونيات، كما تنوي الشركة إستخراج هذا المعدن في منطقة أم آقنينيه الموجود في نواذيبو

الملح:

ينتج أساسا من سبخة الجل الواقعة شمالي أم أفديرك ويبلغ إنتاجه السنوي حوالي 6000 طن ويستغل بطرق تقليدية، ويستخرج على شكل صفائح،يغذي السوق المحلية بمتطلباتها من الملح.

البترول والغاز:

انطلق الإنتاج في فبراير 2006 في حقل شنقيط. ولكنه كان أقل من التوقعات، حيث قدر أن إنتاجه سيصل إلى 75 ألف برميل يوميا. لكنه لم يتجاوز 36 ألف برميل يوميا سنة 2006 وتراجع إلى 7000 برميل يوميا 2015.

ويعود ذلك إلى مجموعة من المعوقات التقنية التي تم التعرض لها خلال مرحلة الاستغلال، ويستخرج من حقل شنقيط الواقع على مسافة 70 كلم قبالة نواكشوط. وتقوم على إنتاجه شركة PETRONAS وشركاؤها، وتقدر عائدات تصديره بحوالي 62.945 مليار أوقية سنة 2013 وتشهد أسعاره تراجعا كبيرا،حيث انتقلت من 120دولار إلى أقل من 40 دولار للبرميل، مما سيكون له انعكاس على عائداته.

ثانيا\ مساهمة المعادن في الناتج الداخلي الخام:

هناك تزايد في أهمية مساهمة المعادن في الناتج الداخلي الخام بعد أن كان يعتمد على الاقتصاد التقليدي الزراعة، التنمية الحيوانية والصيد. وتتراوح القيمة المضافة للقطاع المنجمي من 51.184 مليون أوقية سنة 2005 إلى 9.831 مليون أوقية[2] سنة 2014 أي بزيادة بلغت 7% بصورة عامة انتقل القطاع المنجمي في الناتج الداخلي الخام من 9,7% سنة 2005 إلى 15% سنة 2010، في حين لم

1) المصدر: إدارة شركة تازيازت سنة 2013.

2) التقرير الوطني حول التنمية البشرية، 2015 PNUD

تتجاوز النسبة 2,3% لقطاع الصيد و4,6% لقطاع الزراعة.

ثالثا\ الآفاق والتحديات

قامت الحكومة في السنوات الأخيرة بالعديد من الإصلاحات المهمة الهادفة إلى خلق ظروف ملائمة لتطوير وتنمية القطاع المعدني.

ويعتمد التوجه الإستراتيجي في هذا المجال على دعم:

دعم التسيير والاستغلال الأمثل للموارد والقدرات من خلال تحسين الإطار التشريعي ودعم قدرات التدخل في القطاع.

زيادة الهيئات الجيولوجية الأساسية.

تطوير البحث ودعم التنقيب المعدني.

الإسراع في تنفيذ مشاريع تطوير المعادن.

مكنت هذه السياسة التحفيزية من دخول العديد من المستثمرين المعدنيين في موريتانيا 150 رخصة بحث وتنقيب و13 رخصة استغلال[1]،حسب الجهات الرسمية.

ولا تزال الآفاق واعدة بالنسبة للقطاع المعدني، إذا ما وضعت استيراتيجة وطنية تعمل على تسييره بطريقة معقلنة تعود بالفائدة على السكان والمجال.خاصة إننا في بلد لم يشهد لحد الساعة نهضة تنموية بالصورة التي نطمح إليها وإن كانت السنوات الأخيرة قد شهدت جهودا جبارة لتجاوز كافة العقبات.

الخاتمة

تزخر الأراضي الموريتانية بموارد معدنية هامة ومتعددة الأشكال، كما اتضح ذلك من خلال واقع المعادن الذي تعرضنا له بشيء من التفاصيل مع ذكر الاحتياطي والإنتاج والشركا ت المشرفة على التسيير ومساهمته في الناتج الداخلي الخام ومدى استيعابه للعمالة خاصة شركة اسنيم التي تساهم مساهمة هامة في حركة الاقتصاد الوطني.

قائمة المراجع

- Repport national du développement HUMAIN 2015 PNUD
- Atlas de le Mauritanie edution jeune Afrique Paris 1977
- وزارة المعادن، والطاقة الإدارة العامة، نواكشوط 2015.
- نشرات ومقابلات من الشركة الوطنية للصناعة والمناجم اسنيم.
- شركة تازيازتTASIAST أوشركة MCM
- أساسيات علم البيئة، د. عبد القادر عابد، د. غازي سفاريني، قسم الجيولوجيا الجماعة الأردنية.
- نشرات الأمم المتحدة السنوية حول التنمية البشرية على المواقع الالكترونية المعروفة.

1) المصدر: وزارة المعادن والطاقة. 2014

فرص الاستثمار في قطاع الصيد والاقتصاد البحري

د. سيدي المختار الطالب هامه

تبنت وزارت الصيد والاقتصاد البحري منذ أكثر من سنة إستراتيجية جديدة ترمي إلى توجيه العمل الحكومي خلال الفترة 2019-2015 في مجال الصيد وإلى تحقيق جملة من الأهداف تتماشى مع توجيهات السياسية الحكومية في مجالات التنمية وتخدمها.

وقد ميزت عملية بناء هذه الإستراتيجية عدة عوامل من أبرزها إدراج محتواها ضمن (أ) مرجعيات السياسة العامة للحكومة وخاصة برنامجها المتعلق بالحكامة الرشيدة والتنمية المستدامة والشفافية والإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر و(ب) الإستراتيجية الإفريقية المندمجة للبحار والمحيطات (أفق 2050) والإطار السياسي وإصلاح الصيد وتربية الأحياء المائية في إفريقيا وأخيرا (ج) مبادرة النموالأزرق.

ويشكل تحديد أهداف ومحاور الإستراتيجية الجديدة انطلاقا من مقومات القطاع الخاصة ومن أهميته في النموالاجتماعي والاقتصادي للبلد مميزا آخر سيكون له بإذن الله الأثر الإيجابي على مستوى النتائج المتوقعة بعد خمس سنوات.

كما تمت أيضا ضمن عملية البناء هذه مراعاة العلاقات العمودية والأفقية لقطاع الصيد مع القطاعات الحكومية الأخرى وعلى رأسها سلطة منطقة انواذيبوالحرة والأكاديمية البحرية التي أصبحت مسؤولة عن كل جواب التكوين في المجال البحري.

أما الميزة الأخيرة لعملية تحضير الإستراتيجية القطاعية للصيد 2015-2019 فقد شكلها اتباع مقاربة ضمنت المساهمة الفعالة لجميع الفرقاء العموميين والخصوصيين والشركاء الفنيين والماليين وذلك عبر تحضير وثيقة إطار تصوري تدارسته فرق عمل متخصصة عبر ورشات فنية نظمت لهذا الغرض، وهؤلاء الفرقاء أبدوا جميعا رأيهم أيضا في مرحلة ثانية حول مشروع للإستراتيجية الجديدة وذلك بعيد اكتمال المشاورات وقبل الموافقة الرسمية على الصيغة النهائية من طرف الحكومة.

ونظرا للأهمية الخاصة التي توليها الحكومة للاستثمار ضمن البرامج والمشاريع التي تشكل جوهر إستراتيجية الصيد الجديدة تحاول هذه الورقة التعريف بفرص الاستثمار في هذا القطاع الاقتصادي الحيوي؛ ولكن ضرورة وجود الثروة واستدامتها بالنسبة للمستثمر الوطني والأجنبي على السواء تحتم قبل ذلك التذكير بحالة الثروة السمكية وسلامة بيئتها وبإرادة السلطات العمومية الصارمة في المحافظة مستقبلا على تلك الثروة وهوما سيظهر لنا جليا من خلال عرض موجز لأهداف ومحاور الإستراتيجية الجديدة لقطاع الصيد والاقتصاد البحري.

حالة الثـــروة:

تضم المياه البحرية الموريتانية آلاف أنواع الأحياء حيث يصنف أكثر من 600 نوع في الإنزالات منها 20 نوعا تمثل مخزونات مستغلة في المنطقة الاقتصادية الخالصة ؛ ويقدر المخزون القابل للاستغلال دون إلحاق الضرر بعمليات تجدد الثروة بحوالي 1.600.000 طن سنويا منها 400.000 طن من الأنواع القاعية ذات القيمة التجارية الكبيرة و1.200.000 طن من الأسماك السطحية المتنوعة.

يتكون هذا المخزون من:

الرخويات وتشمل رأسيات الأرجل أوالرأس قدميات (الأخطبوط والحبار والسبيدج ويعتبر الأخطبوط هوأهم هذه الأنواع) ثم المحاريات وأهمها مخزون ثنائيات الصدف وهي غير مستغلة حاليا لأسباب بيئية يأمل الموريتانيون أن تكون ظرفية وزائلة؛

القشريات وأنواعها المستغلة هي جراد البحر (الجمبري أوالربيان) وجراد البحر الأخضر (الشاروخ) وسرطان البحر القاعي (السلطعون)؛

الأسماك: منها القاعية القشرية ومنها السطحية أعني الأسماك السطحية الصغيرة (السردين، الساردينلا، الشاخور، البوري، الكوربين، الماكرل.. الخ) والأسماك السطحية الكبيرة التي توجد في عرض البحر (أنواع التونة وغيرها).

وتعيش هذه الأنواع جميعها في مناطق خالية حتى الآن من كل أنواع التلوث البحري وفي ظروف طبيعية ملائمة لاحتضان الأحياء البحرية ولتنوعها وتكاثرها مما جعل الشواطئ الموريتانية تعد من الأغنى في العالم.

أهداف ومحاور الإستراتيجية القطاعية 2015-2019:

لهذه الإستراتيجية الجديدة هدفان كبيران يتمثل ألأول في المحافظة على الثروة ومحيطها البيئي من أجل ضمان استدامتها بكامل تنوعها البيولوجي والثاني في تعزيز اندماج قطاع الصيد في الاقتصاد الوطني.

وأما المحاور التي ستترجم إلى برامج ومشاريع بغية تحقيق الأهداف الإستراتيجية المنشودة فهي كالتالي:

- المحور الأول: تحسين المعرفة لحالة الموارد السمكية ومحيطها
- المحور الثاني: التسيير الأمثل والاستغلال الأنجع للموارد السمكية
- المحور الثالث: تعزيز اندماج القطاع في الاقتصاد الوطني
- المحور الرابع: النهوض بتنمية الصيد القاري وتربية الأحياء المائية
- المحور الخامس:تطوير الشؤون البحرية
- المحور السادس:تعزيز الحكامة.

فرص الاستثمار في قطاع الصيد البحري:

إن المتأمل في هدف الإستراتيجية المعبر عنه بالمحور الثالث يدرك لا محالة أن تحقيق ذلك الهدف يتطلب وجوبا جلب استثمارات جديدة قد تفوق إمكانيات الدولة وذلك بغية تنفيذ برامج ومشاريع تشكل جوهر السياسة

الجديدة للصيد وتعقد عليها الحكومة آمالا كبيرة في تحقيق أهدافها التنموية.

وبخصوص الاستثمار فما زال قطاع الصيد يوفر العديد منها في مجالات استغلال الثروة وتربية الأحياء المائية والبني التحتية بمفهومها الواسع.

استغلال الثروة:

في هذا المجال تكمن فرصة الاستثمار في استغلال تلك العينات من الثروة التي ما تزال مستغلة جزئيا أوغير مستغلة نهائيا؛ فمن النوع الأول نجد سردينلا المسطحة من الأسماك السطحية التي توفر إمكانية لزيادة جهد الصيد بإدخال أنواع من السفن ومن آليات وتقنيات الصيد الملائمة. أما النوع الثاني والمتعلق بالثروات غير المستغلة نهائيا أوغير المستهدفة مباشرة حتى الآن من طرف بعض السفن فمنه الآنشوا وأنواع مختلفة من التونا الصغيرة وكذلك بعض المحاريات وخيار البحر والطحالب.

ونذكر بأن التوجهات الجديدة نحوالحد من ولوج الأجانب إلى الأنواع القاعية من الثروة قد تخلق فرصا مستقبلا في هذا المجال على أن تعطى الأولوية فيها للمستثمرين الوطنيين.

كما يجب أن لا ننس الرخويات ذات الصدفين (Venus sp.) التي يقدر مخزونها بحوالي 315.000 طن سنويا والتي تعتزم الدولة القيام بتجارب نموذجية تحت إشراف كل من المكتب الوطني للتفتيش الصحي لمنتجات الصيد وتربية الأحياء المائية والمعهد الموريتاني لبحوث المحيطات والصيد حتى يتم التحقق من إمكانية استغلالها أوالتأكد من أضرارها الصحية بالنسبة للإنسان.

تربية الأحياء المائية:

تشكل تربية الأحياء المائية في البحر وفي المياه العذبة نوعا آخر من فرص الاستثمار في قطاع الصيد؛ ورغم قلة التجارب في هذا المجال يعتبر الخبراء الظروف في موريتانيا ملائمة لتربية القشريات وأنواع عديدة من الأسماك والمحار إما في البحر وإما في النهر أوخزانات المياه القارية أوالداخلية الأخرى.

البني التحتية:

يشمل هذا المفهوم في السياسات الموريتانية المتعاقبة الموانئ ومصانع الحفظ والمعالجة ثم تحويل المنتجات وكذلك ورشات أوأحواض بناء السفن وصيانتها وإصلاحها.

الموانئ:

تسعى السلطات الموريتانية إلى جلب الاستثمار في مجال إنشاء الموانئ لأسباب عدة أهمها قلة هذا النوع من المنشآت في بلادنا إذا ما نظرنا إلى طول الساحل (720 كم) وإلى العراقيل التي يشكل هذا النقص في وجه سياسة فرض السفن الأجنبية على تفريغ إنتاجها محليا من أجل استفادة أكبر من الثروة الوطنية.

تحويل منتجات الصيد:

إن الإستراتيجية القطاعية الجديدة تجعل من مصانع التعليب والأطعمة الجاهزة أحد خياراتها ذات الأولوية وتسعى إلى جلب الاستثمار من أجل تطوير هذا النوع من المصانع مستقبلا. وستدعم الوزارة خيارها بالحد من مصانع مسحوق وزيت السمك بعد تناميها في العشرية الأخيرة بشكل مفاجئ

وسريع حتى أصبحت تشكل خطرا على مستقبل الثروة حسب رأي غالبية الخبراء.

وقد يدخل في هذا الباب مصانع إنتاج العلف لتربية الأحياء المائية وغيرها من الاستخدامات وهومجال مفتوح أيضا للاستثمار الوطني والأجنبي.

حفظ ومعالجة منتجات الصيد:

من المعلوم أن نجاح سياسة تفريغ السفن الأجنبية لإنتاجها محليا يتطلب وجود بنية تحتية كافية وملائمة للإنزال أولا (الموانئ) وللتخزين والمعالجة ثانيا (المخازن والتبريد).

وننبه هنا إلى أن مصانع التحويل والمعالجة الموريتانية مفتوحة للاستثمار الأجنبي في إطار الشراكة أي عبر إنشاء شركات مختلطة.

معدات الصيد:

تشكل معدات الصيد بجميع أصنافها عناصر لا غنى عنها بالنسبة لأنشط الصيد بدء بعمليات الإنتاج وانتهاء بالتغليف ومرورا بتداول المنتوج بين مختلف محطات السلسلة الإنتاجية. وعلى هذا الأساس يعتبر توفير معدات الصيد وآلياته وتجهيزاته مجالا للاستثمار لا يقل أهمية عن المجالات الأخرى (الشباك والمحركات والحبال وكرتون التغليف وتجهيزات البواخر وأكياس حمل المنتوج وقطع الغيار....إلخ).

بناء السفن:

الأسبقية هنا للأحواض أوالورشات البحرية الخاصة ببناء السفن ذات الحجم الصغير والمتوسطة والتي تستجيب لمتطلبات الصيد اليومي أوالصيد الطازج.

صيانة وتصليح السفن:

تبدوالحاجة ماسة إلى تطوير الخدمات في هذا المجال نظرا للوضع الحالي لورشاتنا الخاصة بصيانة وإصلاح السفن من حيث العدد والحجم ونظرا كذلك لطول الساحل الموريتاني ولعدد السفن الوطنية والأجنبية العاملة في مياهنا على امتداد السنة (زوارق وسفن شاطئية وصناعية متوسطة وكبيرة).

وغير بعيد عن هذه الميادين هناك النقل وتوزيع الأسماك داخل موريتانيا مترامية الأطراف وهي مجالات قد تهم بعض المستثمرين من الوطنيين والأجانب.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن هذه المواضيع التي تم تناولها هنا بصفة موجزة قد بسطت وفصلت من طرف الوزارة الوصية في إطار خطة عمل خمسية تبرز العديد من الأهداف الفرعية والبرامج والمشاريع والأنشطة ذات الأولوية كما تحدد مسؤوليات مختلف الجهات المعنية بعملية تنفيذ الإستراتيجية بالإضافة إلى الوسائل اللازمة من تمويلات وغيرها.

ومن التفاصيل التي يجب أيضا التنبيه إليها هوأن وزارة الصيد والاقتصاد البحري تقدم جملة من التسهيلات المهمة للراغبين في الاستثمار في هذا القطاع علاوة على المحفزات التي يضمنها على العموم القانون الموريتاني للاستثمار.

المحاظر الشنقيطية تحصين للفرد وتمكين في الأرض

بقلم: محمذن بن أحمد بن المحبوبي
أستاذ بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية

نود في هذا الجهد أن نوصل للناس القول في تأثير المحاظر ببلاد شنقيط على تحصين الفرد والتمكين له في الأرض حتى تنصرف الأبصار تلقاء أصحاب هذه المنشآت التعليمية التي ترابط في ثغور الجهل والتخلف أكمل رباط وتقعد لجيوش التأورب والاستلاب بكل صراط.

فمن حسنات هذه المحاظر أنها حفظت للأمة هويتها وخصوصيتها الحضارية، فكانت توفر لأبنائها تكوينا علميا وجسميا ومهنيا وسلوكيا، فالمحظرة بالنسبة للطلاب هي مدرسة العلم والحياة ومعهد المهن والخدمات ومعدن التشبث بالمبادئ والمنطلقات، ومألف التمسك بالثوابت والأولويات، مكتسب السلوك والأخلاق، ففي حرمها ينهل الطالب من العلم وبأرجائها يتقن أنواع الحرف من طبخ وعجن وخياطة ونسج وخبازة ورعي وسقاية، وبساحتها يكتسب رفيع القيم وكريم الخلال، فكأين من خصلة حميدة لولا المحظرة لضاعت وامحت من المجتمع، وذابت في أتون التمزق والاختلاف.

فبفعل هذه المحاظر تم تحصين المجتمع الشنقيطي من موجات التمرد والانحراف، وهزات التطرف والانجراف، وراء موضات التغرب والاستشراق.

ذلك أن أبناء هذه المحاظر واجهوا بثقافتهم الأصيلة الغزوالثقافي بكل حزم وعزم فحاصروا مخططاته وقعدوا لها بكل مرصد، فلم يتأثروا بثقافته تأثرا يذكر، بل ظلوا يحافظون على نقائهم اللغوي وتعاليم دينهم الإسلامي وذلك ما هيأهم لأن يمثلوا سفارة علمية عالية في المشرق العربي، ومشيخة متميزة في الغرب الإفريقي.

فماذا عن هذه المحاظر وجهودها في تحصين الفرد ونشر المعارف بمختلف بقاع الأرض؟ ثم ماذا عن قدرتها على الصمود أمام الثقافة الأجنبية؟، وكيف استطاعت أن تعقب في نفوس أبنائها وعيا مرهفا يدفع إلى التحفز والانطلاق، ويحمل على التأهب والاندفاع، إصلاحا للفرد وإسهاما في الإقلاع الحضاري المرتقب.

ذلك ما يسعى هذا الجهد إلى الإجابة عنه في المحاور التالية:

أولا: الموضوع منطلق وتأسيس

وضمن هذا المحور سنعرض لمسألتين أولهما تعنى بمحاورة العنوان واستنطاقه وثانيتهما تهتم بتأصيل الموضوع واستنباته.

أ- العنوان: مناقشة وتحليل

إن عنوان هذا الموضوع يتألف من ثلاثة تركيبات نحوية أولها ابتدائي "المحاظر الشنقيطية" وثانيها خبري "تحصين للفرد" وثالثها عطفي "وتمكين في الأرض".

فالتركيب الأول مفتتح بكلمة "المحاظر" جمع محظرة بالظاء وتنطق بالضاد أحيانا، وهي «جامعة شعبية متنقلة تلقينية فردية التعلم طوعية الممارسة»[1].

وقد وصفها لوكرتوا (le courtois) وهوأحد المستكشفين الفرنسيين بأنها: "جامعة شعبية تستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات الثقافية والفئات العمرية والجنسية، والاجتماعية، تستقبل المبتدئ كما تستقبل العالم تجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها، ويردها الطفل والشيخ والمرأة والفقير والموسر، يبذل لكل طالب ما يريد من دروب المعرفة حسب مستواه الثقافي وهوايته وطاقته، واستيعابه، وهي لا تسد أبوابها وإن عطلت الدراسة أياما معدودات، بل تستمر في العطاء على مدار السنين، وهي لا ترد طالبا لعدم وجود مقاعد شاغرة ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب المنتسبين"[2].

ووصفت في التقارير الوزارية بأنها: "المؤسسة التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية العربية منذ تسعة قرون ونيف ولا زالت تتابع رسالتها"[3]، ومما سبق نخلص إلى أن المحظرة مؤسسة تعليمية مفتوحة يديرها شيخ من أئمة العلم يسهر على مصالحها حسبة لله تعالى وابتغاء مرضاته، في جومن الانضباط والاستقامة في حالي الظعن والإقامة، ويطبع منهجها تطوع متميز وحرية عارمة وتغطية شاملة لمختلف مراحل التعليم، واعتماد أساليب تربوية جادة تجمع الحفظ إلى التلقين والإثارة إلى التشويق، والتربية إلى التوجيه.

وهذه المحاظر موصوفة بـ "الشنقيطية" نسبة إلى شنقيط، وهي مدينة في الشمال الموريتاني، وكانت تطلق في القديم على المجال الجغرافي المعروف اليوم بـ"موريتانيا"، فهي تسمية أطلقها أبناء البلاد العربية على سكان هذه الأرض فقبلوها عن طيب خاطر ورحابة صدر، وصاروا لا يعرفون خارج بلدهم إلا بها، ولعل الأصل في اعتمادها أن مدينة شنقيط كانت منارة العلم ومرتكز التجارة ومنطلق ركب الحجيج، إذ يؤمها من حولها من أهل القرى، فقد أصبحت منذ أواخر القرن العاشر ذات شهرة كبيرة وسيرورة بين الناس، فهذه التسمية تحمل دفء معرفيا

1- بلاد شنقيط المنارة والرباط الخليل النحوي ص 53
2- المرجع السابق ص54.
3- المرجع السابق والصفحة.

وعمقا تاريخيا وبعدا حضاريا، لذلك اعتمدت في عناوين عدد من الكتب والدراسات والبحوث المتعلقة بمعارف البلد وتاريخه الثقافي[1].

ويأتي التركيب الثاني: "تحصين للفرد" مفتتح بكلمة "تحصين" التي هي مصدر حصنه منعه، والحصن بالكسر كل موضع حصين لا يوصل إلى جوفه[2]. وحصن الشيء أحصنه والحيوان والإنسان من المرض اتخذ الحيطة والوقاية منه. وتحصن اتخذ حصنا ووقاية[3]. والفرد يقصد به هنا الإنسان والتمكين مصدر مكن له في الشيء جعل له عليه سلطانا، وفي التنزيل العزيز {إنا مكنا له في الأرض)[4] والأرض أحد كواكب المجموعة الشمسية وهوالكوكب الذي نسكنه وفي القرآن الكريم (قال اجعلني على خزائن الأرض)[5] وهي مؤنثة جمعها أرضون وأراض وأروض.

والمقصود من العنوان جملة هوالتنبيه إلى جهود المحاظر في توعية أبناء الأمة وحمايتهم من التطرف والتخلف، ليصلحوا أمر دينهم ودنياهم، فكأن المحاظر من هذا المنظور حماية للفرد من الانحراف وتأهيل له وإعداد لكي يشارك بفاعلية في دفع عجلة الطور والإبداع.

ب- الموضوع: مقاربة وتأصيل

وقبل أن نتحدث عن المبادئ العامة التي ظلت تحكم النظام المحظري وتحدد علاقة الشيخ بالتلميذ وتوجه مسار العملية التربوية في هذه المنشآت التعليمية يحسن بنا أن نسوق نصا شعريا يعد بمثابة دستور جامع لمناهج المحظرة وأساليبها في التربية والتدريس، وقد استهل بالدعوة إلى لزوم رحاب هذه الجامعة البدوية المتنقلة، والإقامة بساحتها، مجالسة للأئمة، واستزادة في العمل وطلبا للفضيلة، ومصابرة على التحصيل. وتزودا من التقوى، ودراسة للقرآن والحديث وتفقها في الدين وتمكنا من القريض وتوسعا في اللغة والنحوواقتناصا للنوادر، واكتسابا لشوارد العلوم، وإحياءا لموات القلوب، ووقوفا في وجه عاصفات المد الأجنبي، يقول[6]:

1- نذكر من ذلك على سبيل المثال الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: لأحمد بن الأمين، بلاد شنقيط المنارة والرباط: الخليل النحوي، والشعر الفصيح في بلاد شنقيط: عبد الله بن ابنحميده، أدب الرحلة في بلاد شنقيط: د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي.

2- القاموس مادة حصن

3- المرجع السابق

4-

5-

6- مجلة المربطون المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية العدد 4 2008

اضـــرب قبابـــك فـــي رحـــاب المحظـــرة حيـــث المجـــالس والجمـــوع مـــوقرة
واصـــبر علـــى تحصـــيل علمـــك لا تكـــن جزعـــا فأســـباب الحيـــاة مقـــدرة
وأطـــل مقامـــك بـــين أربـــع أهلهـــا وشـــيوخها أهـــل العقـــول النيـــرة
واصـــبر لنفســـك فـــي حماهـــا برهـــة حتـــى تصـــير علـــى الفضـــيلة مجبـــرة
وتـــزود التقـــوى تكـــن مـــن أهلهـــا فـــالعلم والتقـــوى عمـــاد المحظـــرة
وقـــرأ بهـــا القـــرآن واضـــبط رســـمه وأدم قراءتـــه بهـــا وتـــدبره
واقـــرأ بهـــا علـــم الحـــديث فإنمـــا علـــم الآحاديـــث الشـــريفة مفخـــرة
واقـــرأ مهمـــات المتـــون جميعهـــا وعهـــا مطـــررة وغيـــر مطـــررة
واقـــرأ بهـــا الفقـــه الصـــحيح مؤصـــلا واقـــرأ "كفـــاف المبتـــدي" و"المطهـــرة"
واقـــرأ بهـــا "نشـــر البنـــود" ونصـــه واقـــرأ بهـــا لمحـــنض بـــاب "ميســـره"
واقـــرأ بهـــا علـــم اللغـــى واقـــرأ بهـــا شـــعر امـــرئ القـــيس الأميـــر وعنتـــره
والنحووالصـــرف الـــذي مـــن حـــازه أعطـــى وألحـــق كـــل فعـــل مصـــدره
واجمـــع نـــوادر مـــن شـــتات العلـــم فـــي كتـــب الجـــدود مبعثـــرة
واختـــر مـــن الطـــلاب للتكـــرار إن تـــرد الـــتعلم نخبـــة متخيـــرة
هـــا نحـــن نســـعى للتشـــبث بالـــذي ولـــى وأصـــبح نـــادرا مـــا أنـــدره
قـــد كـــان فينـــا العلـــم علمـــا نافعـــا يحـــي القلـــوب الصـــلبة المتحجـــرة
حتـــى تبـــدل واســـتحالت أرضـــه جـــدبا وأحـــوال الـــورى متغيـــرة
هبـــت عليـــه عواصـــف غربيـــة فأماتـــه ذاك الهبـــوب وأقبـــره

ومن خلال هذا النص ندرك أن القوم بذلوجهودا مشكورة في نشر المعارف والعلوم تربية للأجيال وتكوينا للرجال، وذلك ما سنعرض له في المستويات الآتية.

1- التدرج في اكتساب المعارف والعلوم:

وفي إطاره عمل أصحاب المحاظر على التزام التسلسل المنطقي والتدرج المطلوب في التدريس، وذلك مراعاة لنموالطالب عقليا وجسميا، فكانوا في دراسة الفقه مثلاً ينطلقون من مختصر الأخضري، ليمروا على منظومة ابن عاشر، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، منتهين إلى مختصر خليل وشروحه.

وتجسيداً لهذا المبدأ التربوي نقرأ رجزا لبعض علماء القوم يعتب ضمنه على الطلبة الذين يعنون بمختصر خليل، على حساب الرسالة، مؤكدا أن ما يقومون به يعتبر تنكيسا مخلاً بالعملية التربوية؛ إذ يقدمون ما رتبته التأخير، وذلك ما أوضحه بقوله[1]:

علامـــــــــة الجهـــــــــل بهـــــــــذا الجيـــــــــل

وتـــــــــرك الاخضـــــــــري إلـــــــــى ابـــــــــن عاشـــــــــر

إن خلـــــــــيلاً صـــــــــار مثـــــــــل الشـــــــــم

وفي هذا السياق ينصحون للطلاب بالتفرغ للمتن الواحد، حتى يستكمل، فليس للتلميذ أن يجمع مع المتن غيره، ولا أن يصرف عنه بصره قبل أن يستوفي دراسته، فهم يرون أن ترادف الفنون يورث الحرمان ويفضي إلى الخلط والإرباك، وربما حد من قدرة الطالب على الاستيعاب، فيبقى مبدد الجهد متنازعاً بين عدة متون تتجاذبه، فلا يكاد يتقن منها واحداً، لذلك يشبه أشياخ المحظرة ترادف الفنون وازدحامها على الذهن بالتوأمين يستبقان، ولا سبيل إلى خروجهما إلا بالتفاوت، يقول أحدهم[2]:

وإن تـــــرد تحصـــــيل فـــــن تممـــــه وعـــــن ســـــواه قبـــــل الانتهـــــاء مـــــه

وفـــــي تـــــرادف الفنـــــون المنـــــع جـــــا إن توأمـــــان اســـــتبقا لـــــن يخرجـــــا

2- التلبث مع المراجعة والتكرار:

ونقصد به جهود أبناء المحاظر الرامية إلى تكرار المعارف، حتى تنطبع في الذاكرة وتحصل في الصدور، وقد اتبعوا في ذلك طريقة متميزة تنطلق من كتابة النص على اللوح أولا، ثم تصحيحه على الشيخ ثانيا، ليحفظ بعد ذلك حفظا أوليا يسمح بسرده من الذاكرة. ويشفع ذلك بعرض النص على الأستاذ طلبا لإيضاح الغامض وشرحا للمتن جملة جملة، أوبيتا بيتا، وهذه الخطوات متلازمة متعاقبة، ولا يسمح بتجاوز أي واحدة منها إلى الأخرى، لأنها في الحقيقة تعد المعبر الأمثل إلى الحفظ والطريق الأقوم إلى الاستظهار، والأخذ بها على هذه الصيغة معين على التمكن من ناصية العلوم، وكل خرق لها من شأنه أن ينسف عملية الاستذكار من أساسها، وهذا ما أوضحه المرابط محمذن فال بن متالي بقوله[3]:

كتـــــب إجـــــازة وحفـــــظ الرســـــم قـــــراءة تـــــدريس اخـــــذ العلـــــم

ومـــــن يقـــــدم رتبـــــة عـــــن المحـــــل مـــــن ذي المراتـــــب المـــــرام لـــــم ينـــــل

1 - بلاد شنقيط المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 171.
2 - المرجع السابق، ص 172.
3- المرجع السابق، ص 174.

ولأهمية الحفظ في اكتساب العلوم طفق القوم ينظرون له تنظيراً جاداً، فمن التقاليد المتداولة عندهم لحفظ النص استيفاء ما يعرف بـ "عشرة المختار"، وتعني ترديد الدرس اليومي خمسا وخمسين مرة، ويستعينون على ذلك بنقاط ترسم على أديم الأرض في شكل هرم قاعدته تسع نقاط، وقمته نقطة واحدة، وكلما قرأ الطالب مرة يمحونقطة، فإذا استوفى حفظ درسه بهذه الطريقة يقولون إنه لن ينساه بعدئذ.

أما حفظ المعاني فيتركز عندهم على ما يعرف بـ "التكرار وقد حضوا عليه كثيرا، ودعوا الطلبة إلى أن يلتزموا به ويعضوا عليه بالنواجذ، مرددين قول الشاعر[1]:

خليلـــي لا تكســـل ولا تهمـــل الدرســـا ولا تعـــط يومـــا فـــي بطالتهـــا النفســـا

ولا تتـــرك التكـــرار فـــي مـــا حفظتـــه فمـــن تـــرك التكـــرار لابـــد أن ينســـى

فالتكرار عنصر أساس في الدراسة المحظرية، وعبره يستحضر الطالب كلما صدر عن الشيخ معيدا لفظه المرة بعد المرة، مجردا من نفسه مخاطبا يحاوره ويقرأ عليه المحفوظ جهرا، فالتكرار عندهم حصة مراجعة واستذكار، بفضلها يكتمل الاستظهار الذي هوأساس ثقافة القوم، إذ تروى عنهم في هذا الجانب نوادر من النبوغ عجيبة، فيذكر أن ابن الأمين الشنقيطي أملى كتابه الوسيط من ذاكرته، وأن مدينة "تينيكي" كانت تؤوي ثلاثمائة فتاة يحفظن الموطأ.

وكان من الفتيان الشناقطة من يحفظ القاموس ناهيك عن حفظ القرآن العظيم ومختصر خليل وألفية ابن مالك وطرة ابن بونه وغير ذلك من المقررات المحظرية.

3- التنوع في التشويق والإيضاح:

وفي هذا المستوى نذكر بأن النهج المحظري اعتمد أسلوبا تربويا يقوم على توضيح العبارة واستجلاء المعنى، وذلك بضرب الأمثلة واستخدام أديم الأرض باعتباره سبورة تتيح للأستاذ فرصة الشرح والإيضاح، وهذا ما أكده أحد الباحثين بقوله: «ومن أنجع وسائل الإيضاح التصوير وتشخيص المعاني المدروسة، وكما أن التعليم النظامي يهتم بهذا التصوير بالرسم فإن المحظرة تهتم بتصويره بالمسائل المرئية في حياة المجتمع، وبوضع نقاط على الأرض والحكم على كل مجموعة منها، ويعرف بطرح الصور»[2].

وقد كان الشيخ يحظيه بن عبد الودود (ت 1358هـ) بارعا في استخدام وسائل الإيضاح، ومكثرا من ضرب الأمثلة، وكان في دروسه النحوية يشبه عناصر الجملة الاسمية (المبتدأ والخبر) بخيمة مضروبة تعتمد على ركيزتين، فإذا دخلت الأفعال النواسخ هذه الخيمة فإنها تسقط الركيزة الخلفية (الخبر)، ومع قدوم الحروف الناسخة تسقط الركيزة الأمامية (المبتدأ)،

1- مقابلة مع الأستاذ محمد يحيى بن سيد احمد، بتاريخ: 2001/05/20 نواكشوط.
2- الأزهار الشذية، محمد يحيى بن سيد احمد، مخطوط بحوزتي.

ويتم إسقاط الخيمة نهائيا وإزالة رفعها مع حلول أفعال القلوب، وعبر هذه الأمثلة تترسخ المعاني في الأذهان وتنطبع في الذاكرة، وذلك ما أشار إليه أحمد محمود (مم) بن عبد الحميد (ت 1362هـ) مصرحا بتميز دروس الشيخ يحظيه منتهيا إلى أنه كان يقدم للطلبة من العبارات ما يعذب ويسوغ، مجسدا لهم المعنى البعيد، في صورة القريب المحسوس يقول[1]:

وكـــان فـــي إقرائـــه يصـــوغ عبـــارة لفهمهـــم تســـوغ

يـــريهم المعنـــى أخـــا الطمـــوس مبـــرزا فـــي صـــورة المحســـوس

يضـــرب الامثـــال التـــي تفهـــم حتـــى كأنـــه لهـــم مجســـم

ونجد أحد الباحثين المعاصرين يؤكد أن أشياخ المحاظر كانوا يعتمدون في تدريسهم وسائل الإيضاح، مركزاً بشكل خاص على جهود شيخه المختار بن المحبوب (ت 1391هـ) متحدثا عن قدرته الفائقة على الإفهام والتبليغ، حيث تنقلب العويصات على يديه بيانا ووضوحا، وتصبح الغوامض شمسا وضياء يقول: «كأن أسلوبه البديع يجذب المريد إليه، وكأنه يتتبع طيات قلبه ليبسطها أمام المعارف، وكأنه يرى نقاط الغموض فيتتبعها بالشرح والتوضيح والأمثلة ووسائل الإيضاح حتى تنطبع الحقائق في ذهنه»[2].

وقد حدثنا الشاعر محمد بن أشفغ عبد الله: (ت 1353هـ) عن روعة تدريس شيخه لمرابط محمد سالم بن ألما (ت 1383هـ) مشيرا إلى أن الطلبة كانوا يشتاقون إلى دروسه اشتياقا فيصيبهم من الظمأ إليها ما يشبه حالة المتعطش إلى الشراب والطعام، وللتعبير عن تمكن الشيخ من التدريس استخدم الشاعر أسلوبا شعبيا متداولا عبرت عنه الجملة الفعلية "يرى الحاضرون النار تضطرم"، فاشتعال النار هوالغاية القصوى عندهم للمبالغة في كل شيء، فالتدريس إلى أن تشتعل النار معناه التمكن من المادة والإجادة في التدريس، يقول هذا الشاعر[3]:

فـــي الفقـــه والنحوشـــيخي لا نظيـــر لـــه فكـــل قَـــرْم إلـــى إقرائـــه قَـــرِم

فـــإن أتـــت "طـــرة" المختـــار يقرئهـــا حتـــى يـــرى الحاضـــرون النـــار تضـــطرم

"وإن أتـــاه خليـــل يـــوم مســـغبة يقـــول لا غائـــب مـــالي ولا حـــرم"

أنـــا الـــذي قلـــت هـــذا البيـــت لا ابـــن أبـــي ســـلمى وشـــيخي هـــوالمعني لا هـــرم

وفي جانب التشويق نشير إلى أن أساتذة المحاظر أدركوا حاجة الطلبة الذين أرهقهم الاستذكار إلى محفزات تزود شعورهم المنهك بالاجتهاد طرفة، وتفيد طبعهم المكدود بالجد راحة، فسعوا جهدهم إلى إشاعة جومن الأريحية والإمتاع في الحرم المحظري، فقد عمل الشيخ الموريتاني

1- مجلة الوسيط، العدد 4، 1996 ص 55.
2- عرف الغواني الطيبة الهبوب، في مناقب المختار بن المحبوب: الراجل بن أحمد سالم (مخطوط بحوزتنا).
3- القبس الثاقب في بعض ما لابن ألما من المناقب، بوبا بن ماهي، مخطوط بحوزتنا.

على تحطيم كل الحواجز والاعتبارات الشكلية التي تفصل بينه وبين طلبته، وهكذا نجد الأستاذ يداعب طلبته بلطف، فيرحم الضعيف، ويؤنس الصغير بفتل الأذن وعرك الشعر، وبذلك أصبحت علاقة الشيخ بتلامذته علاقة مودة وزمالة، وذلك ما أوضحه مم في نظمه لسيرة شيخه يحظيه بقوله[1]:

كان لطالب العلوم يرحم ... لا سيما إذا اعتراه سقم

يؤنسه بعرك أذن وشعر ... وقد يضمه إليه فيسر

ولا يصون كتبه عن طالب ... وليس دون بابه من حاجب

4- التشبث بعلو الهمة والاصطبار

وفي هذا المستوى نذكر بأن أشياخ المحاظر سعوا جهدهم إلى استنهاض همم الطلاب، ودفعهم إلى اطلاب العلوم، وربما اتبعوا في ذلك أساليب التهكم والتقريع حثا للأبناء على الطلب واستزادة في التضحية وتنفيرا من الغباوة، فنرى أحمد بن محمذن بن المنى الحسني يرسم للجهول المتواني عن الدرس صورة قاتمة مخيفة تجعل منه غبيا من نوع رفيع، لا يقيم للشعر وزنا ولا يحسن للعبارة فهما، ولا يصلح من التعبير منطقا، يقول:[2]:

لحا الله الغباوة لا تواتي ... وأحرى في الغطارفة السراة

ترى الفتيان من أعلى الزوايا ... وأكرمهم أبين وأمهات

إذا نودوا لإيضاح المعاني ... ومنهاج التعارض والتفاتي

عموا عن ذاك وانصرفوا وكانوا ... إلى أمر سواه ذوي التفات

يخوضون القريض بلا سفين ... من الوزن القويم ولا نواتي

وإن أمليته حسنا عليهم ... كنظم الدر في عنق الفتاة

يمر على مسامع كل فدم ... كما مر الأتي على الصفاة

إلى أن في التناوة شاب كل ... وأضحى ذا بنين وذا بنات

توخى رتبة التوقيع يبدي ... أفانين الغباوة للرواة

فإن ينطق فإسهاب ولحن ... وعي في المقالة لا يواتي

وإن يكتب فمودق دالفات ... من الجعلان في وحل الثراة

1- مجلة الوسيط، مرجع سابق، ص 55.

2- مقابلة مع عبد الله المختار بن عبد الكريم بتاريخ 2015/04/10.

وإنـــي مـــن أولئـــك بيـــد أنـــي بحمـــد الله تحجزنـــي أنـــاتي
عـــن ايـــراد الأمـــور بـــلا اقتـــدار علـــى إصـــدار ســـرب الـــواردات
ولـــم أك ناطقـــا عنـــد افتتـــاحي بنطقـــي بالربـــاعى حـــروف "نـــاتي"
ولـــم أك راجعـــا مـــن ركـــن فـــرض لمنـــدوب تـــولى فـــي الصـــلاة

كما عبر أحد الشعراء عن علوهمم طلاب المحاظر معربا عن قوة الأواصر الأخوية في ما بينهم، إذ يجسدون في تعاونهم وتعاملهم أبهى صور التكافل والتكامل، يقول[1]:

تلاميـــذ شـــتى ألـــف الـــدهر بيـــنهم لهـــم همـــم قصـــوى أجـــل مـــن الـــدهر
يبتـــون لا كـــن لـــديهم ســـوى الهـــوا ولا مـــن ســـرير غيـــر أرمـــدة غبـــر

ونقرأ أبياتا لمحمد بن عبد الله الجكني تبالغ في علوهمم الطلاب إذ يقاومون بأحياءهم الجامعية ما انتشار كثير الغبار الذي يغطي الوجوه ويواري الشخوص بأتربته العاتية وأجوائه الضبابية فلا يزيد الهمم إلا صلابة ولا العزائم إلا شدة، مما جعل الرجل في أبياته يفتدي أبناء هذه الأعرشة بنفسه وأهله، واصفا ما هم عليه من عظيم التضحية وصادق العزم، فهم على الدراسة صابرون مصابرون يقضون يومهم في إتقان معضلات فصول "الرعاف" و"اليمين" من مختصر خليل، ولا يصدهم عن ذلك سغب ولا نعاس، يقول[2]

بنفســـي وأهلـــي والأقـــارب فتيـــة تـــواريهم وســـط المـــدارس غبـــرة
لهـــم همـــم فاقـــت حســـاما مهنـــدا تقصـــر عنهـــا فـــي المضـــي الأســـنة
يســـيل علـــى "قـــف الرعـــاف" رعـــافهم وفـــي "خصصـــت" تلفـــى هنالـــك نيـــة
أبومالـــك عـــن ابنـــه لـــم يعقهـــم ولا عـــن خليـــل عاقـــت القـــوم خلـــت[3]
ظلالهـــم الخضـــراء والارض مهـــادهم ومـــا لهـــم عـــن تـــي ولا تلـــك جنـــة

كما نطالع أبياتا للبشير بن امباريكي ينصح ضمنها للطلاب ألا ينتظروا بتحصيل العلم ما ينالون من نيل، أويحظون به من منح وألا يدخروا في جنبه اقتنائه شيئا مما يقدم لهم الأهل من زاد عونا على الطلب، لينتهي إلى أن العلم لا ينال إلا بالتضحية وعلوالهمة يقول[1]:

1- بلاد شنقيط المنارة والرباط ص 39
2- الأزهار الشذية محمد يحي بن سيد أحمد مخطوط بحوزتنا
3- يقصد بن أبي مالك الجوع، وبابنه محمد بن مالك مؤلف الألفية، فالضمير في "ابنه" ضمير استخدام والخلة "الجوع".

ليس التعلم موقوفا على النشب ولا بكثرة ما يساق للحلب
ولا بـ "دراعة" راقت خياطتها ولا بـ "تاسفرة" للوح والكتب
ولا "مزاود" زرع أنت تحملها فخرا فتنفقها في اللهووالعب
هيهات هيهات لا تطمع به أبدا دون التواضع والوقار والأدب
وهمة لا تزال الدهر تطلبه في حالة "الشطن" والأكدار والتعب[2]

ثانيا: المحاظر الشنقيطية حماية للفرد وتحصين

وفي هذا الجانب سنعرض لأثر المحاظر الشنقيطية في تحصين الشباب من الضياع والانفلات أثناء فترات المراهقة، إذ سعت جهدها إلى أن تصرفهم عن الملذات والمجون. عاملة على تعهدهم بالرعاية والتوجيه منذ نعومة أظافرهم إلى أن يبلغوا سن الرشد، باذلة وسعها في تسييج الإيمان والمعتقدات، وتصحيح المنطق والبيان وتحصين العقول والأذهان وذلك ما سنتناوله في المستويات الآتية:

تحصين المعتقد والإيمان

وفي هذا المستوى بذل القوم جهودا مشكورة في تصحيح عقائد الأبناء فكانوا يربونهم على فطرة الاسلام وكلمة الإخلاص، معززين ذلك بمنطلقات العقد الأشعري من خلال ما يرددون على مسامعهم من قول الشاعر[3]:

من كان في الحشر له عدة تنفعه في عرصة المحشر
فعدتي حب نبي الهدى ثم اعتقاد مذهب الأشعري

وكانوا يعتمدون في مقرراتهم العقدية المؤلفات الجزائرية وخاصة لامية أحمد بن عبد الله الزواوي ت884هـ، المعروفة بالجزائرية، والتي مطلعها[4]:

الحمد لله وهوالواحد الأزل سبحانه جل عن شبه وعن مثل

1- الأحياء الجامعية بالأحياء الشنقيطية: د. محمذن بن أحمد المحبوبي مقال منشور بمجلة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية العدد 1 2006.
2- في هذه القطعة كلمات حسانية مثل دراعة وهي فصيحة ففي اللسان الدراعة بضم الدال لباس فضفاض، سابغ يغطي الجسد كله، وهي في الحسانية تنطق بفتح الدال، وتاسفرة حسانية وهي جراب جلدي مدور يحمل فيه المسافر متاعه ومزاود جمع مزود وهووعاء الحبوب، والشطن يطلقون على شدة الانشغال، وكثرة الهموم.
3- النهج الأشعري في المنهج المحظري د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي مقال مرقون بحوزتنا. الصفحة 4
4- النهج السديد في شرح كافية المريد لعبد الله محمد بن يوسف السنوسي شرح للمنظومة المسماة الجزائرية تحقيق مصطفى مرزوق، دار الهدى الجزائر عين مليلة 1994هـ ص 31 وما بعدها.

ثـم الصـلاة علـى خيـر الـورى أبـدا وصـحبه مـع سـلام طيـب خضـل
وبعـد فـالعلم بالتوحيـد مفتـرض بـالاحتلام وعقـل غيـر مختبـل
وبـالمحيض وبالسـن الـذي ذكـروا ولـيس مـن ألحـق الإنبـات ذا خلـل
بـل كـل مـا بلسـان الشـرع نفعلـه فـرض تعلمـه وإن جهلـت سـل
فهـاك نظـم فصـول مـن قواعـده مـن رام بـالنظم حصـر الكـل لـم ينـل

كما عولوا كذلك على مؤلفات الإمام محمد بن علي السنوسي ت 889هـ مستمتعين بقطوفه المهتصرة ومؤلفاته المطولة والمختصرة، وزيادة على ذلك فإنهم اعتنوا كثيرا بمنظومة إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة لأحمد المقري ت 1040هـ باعتبارها أنشودة عقدية رائعة، تلقاها الناس بالقبول فحضرت في الأذهان وحصلت في الصدور، وترددت على شفاه الرضع وربات الخدور.

وبذلك فإن القوم أحكموا تحصين أبناءهم في جانب العقيدة معززين هذه المقررات الجزائرية بمؤلفات شنقيطية يأتي على رأسها كتاب "أس الإسلام، للمختار (انجبنان) بن ألمين الحيبلاوي، ت 1160هـ المعروف بمهرق التوحيد، وذلك ما أشار إليه أحد علماء القوم مؤكدا أنه كتاب جامع لأصول الدين وخاصة ما يلزم تعلمه ويعد تركه نبذا لما علم من الدين ضرورة، يقول[1]:

القلقشـندي علمنـا أن النبـي مـن هاشـم ومـن قـريش النخـب
وأنـه لطيبـة قـد هـاجرا مـن مكـة ومكـة أم القـرى
مشـترط فـي صـحة الإيمـان فـي "مهـرق التوحيـد" لـ "انجبـان"

وتتنزل في هذا السياق جهود الشيخ محمد اليدالي ت 1166هـ التي تجلت من خلال موسوعته الكلامية المتميزة المعروفة بفرائد الفوائد والتي استودعها الكثير من التوجيهات السلوكية المهمة، يقول: " ثم لما كان علم أصل الدين المسمى علم الكلام المتعلق بتوحيد الله وما له من صفات الجلال والإكرام هوأفضل العلوم وأعلاها وأقومها حجة وأجلاها، إذ هورأس مال المرء وإكسير النجاة، وضعت عقيدة تشتمل على فصول وقواعد من التوحيد، وأصول جمعت غرر قواعده ونظمت درر فوائده"[2].

1- مخطوط بحوزتنا
2- فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد، الشيخ محمد اليدالي مخطوط بحوزة الراجل ولد أحمد سالم الأمين العام لزاوية الشيخ محمد اليدالي في نواكشوط.

كما نجد المرابط محمذن فال ولد متالي ت 1287هـ يجمع أساس العقيدة الإسلامية في رجز سهل عده القوم من أنفع التحصينات العقدية وأكثرها وجاهة وإقناعا، يقول(1):

ومـــــوقن وجـــــود رب واعتـــــرف بـــالعجز عـــن إدراكـــه فقـــد عـــرف
ولـــيس ذنـــب فـــوق ذنـــب الخـــائض بـــالفكر فـــي ذات العلـــي الخـــافض
مـــا انفـــك حـــادث عـــن الجهـــل بـــه فـــأين للحـــادث علـــم ربـــه
غايـــة علـــم العلمـــا ومنتهـــى إدراك أربـــاب العقـــول والنهـــى
أن يجزمـــوا أن لهـــذا الخلـــق مصـــورا أوجـــده بـــالحق
متصـــفا بصـــفة الكمـــال منزهـــا عـــن ضـــدها المحـــال
وطـــرق المعرفـــة الكبـــار عيـــان اومثـــال اوآثـــار
فـــأول منعـــه الجبـــار إذ قـــال: "لا تدركـــه الأبصـــار"
والثـــاني أيضـــا لـــم يصـــح فـــي النقـــل لأنـــه لـــيس لـــه مـــن مثـــل
لـــم يبـــق بعـــد ذا ســـوى آثـــار قدرتـــه فـــي العـــالم الســـيار

وبذلك فإن العقد الأشعري أعقب في نفوس القوم إيمانا راسخا وأورث عقولهم مزيدا من التبصر وإحكام النظر، فحصنوا أبنائهم بترسانات عقدية عالية المستوى تدفع الخصم وتردع المجادل، محكمة القول في مسائل أصول الدين وعويصات علم الكلام.

تقويم المنطق والبيان

وفي هذا المستوى نذكر بأن الشناقطة سعوا جاهدين إلى أن يعلموا أبناءهم اللغة والأدب في وقت مبكر من حياتهم، وذلك تقويما للألسنة وتنمية للذوق وتحصينا للسليقة من الذوبان في أوحال التعثر والعجمة. فكانوا يدربون الأبناء على حفظ القرآن ونصوص الشعر، لينشأوا نشأة لغوية متميزة تقوم على تدريبات نحوية تعرف عندهم بـ"التمييز" يكملونها ببعض التمرينات الإعرابية ليتعزز ذلك باستظهار المعلقات ولامية العرب وبانت سعاد وبردة البوصيري. وذلك بالإضافة إلى بعض النصوص الشنقيطية.

لذلك فإن مناطق من الوطن الشنقيطي كانت تقدم دروس اللغة والنحوعلى دروس الفقه والأصول، جاعلة لمدونات الشعر الجاهلي في المقررات المحظرية نصيبا مفروضا وحضورا

1 - المجموعة الكبرى، يحيى بن البراء، مرجع سابق، 119/3.

مذكورا، إذ تأتي في المرتبة الثالثة، بعد تصحيح العقيدة وحفظ القرآن.فمن المتداول على ألسنتهم قول محمد بن الطلبة اليعقوبي[1]:

أول واجـــب علـــى مـــن كلفـــا تعلـــم اللغـــة حتـــى يعرفـــا

معنـــى الإلـــه باللســـان العربـــي لأنـــه مفتـــاح نيـــل الأرب

ونجد أحد الشعراء يجعل تعلم اللغة في المرتبة الثانية بعد العقيدة يقول[2]:

أول واجـــب علـــى مـــن كلفـــا أن يعـــرف الله وأن يعـــرف "قفـــا"[3]

ولا ننسى أن نسجل هنا أن المرابط محمذن فال بن متالي صرح بتقديم تعلم اللغة على التفرغ للنفل، والتفرد للعبادة والتبتل يقول[4]:

تعلـــم اللغـــة شـــرعا فضـــل علـــى التخلـــي لعبـــادة العلـــي

يؤخـــذ ذا مـــن قولـــه وعلمـــا آدم الاســـماء الـــزم التعلمـــا

وأكثر من ذلك فإننا نجد الشناقطة ينصحون لأبنائهم بالصدور عن النحووالإعراب وذلك ما أشار المختار بن حامد راسما لوحة فنية لتراتب بعض العلوم في بعض من المحاظر الشنقيطية يقول[5]:

عليـــك بـــالنحوألا فـــاحوه والفقـــه فـــاحوه علـــى نحـــوه

واللغـــة انـــح نحوهـــا إنهـــا مـــن خيـــر مـــا ينحـــى إلـــى نحـــوه

والـــزم عـــروض الشـــعر تغـــنم بـــه واحوالمعـــاني والبيـــان احـــوه

والمنطـــق احـــوه ففـــي ســـكره جاهلـــه يـــا صـــاح لا صـــحوه

واعمـــل بعلمـــك وإلا يكـــن علمـــك كالعـــدم أونحـــوه

وبذلك ينشأ الطفل الشنقيطي على سليقة عالية بفعل ترجيع النصوص وحفظها وهوما يعصمه من العجمة ويسهل عليه النطق بالحروف ويهيئ له أسباب الفصاحة والبيان.

1- ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي مطبعة دار النجاح الجديدة المغرب 2005 ص 29.
2- مخطوط بحوزتنا
3- إشارة إلى فاتحة معلقة امرئ القيس:
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
4- مخطوط بحوزتنا
5- مخطوط بحوزتنا

تحصين العقول والأذهان

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشناقطة اعتمدوا في تنمية ملكات أبناءهم وتحصين قدراتهم العقلية مسطرة تربوية محكمة البناء والتنسيق همها في تنمية القدرات الذهنية والعبقريات الفردية، فعولوا على جملة من المحفزات النظرية التي تدعوإلى التأمل والتعلم على نحويكسب الفرد مزيدا من الفطنة والذكاء ويدفعه إلى رفيع التبصر والاستنباط.

وفي هذه المحفزات تتعانق الملكات الفطرية مع المواهب المكتسبة فتلوح للناظر بنية تكوين العقل الشنقيطي التي تعتمد مكونات عفوية فطرية، وأخرى مكتسبة، وذلك ما سنعرض له في ما يأتي:

1- الحكايات الشعبية:

والمقصود من هذه الحكايات هوخلق إطار للنظر والتفكير في ذهن الصبي، لكي يصبح قادرا على الاستدلال والاستنتاج، عارفا بالحجة والبرهان، ومتمكنا من أساليب الجدل والإقناع، ومن الحكايات المشهورة في هذا الصدد ما يذكرون أنه دار بين الذئب والدب، وهوفي جملته يشير إلى أن الحيلة والذكاء مع الصغر والضعف أنجح في تحقيق الأمور من عظم الجثة وقوة البدن مع البله والبلادة، فيحكون أن الدب سافر مع الذئب مرة في أرض شائكة، في شتوة باردة وعندهما راحلة وكساء، فقال الذئب لزميله هلم نسهر هذه الليلة في عبادة الله، فأينا كان أسبق إلى أذان صلاة الصبح نجازيه بأن يركب الراحلة نهار، ويلبس الكساء ليلا، فاتفقا على ذلك، فنام الذئب وبات الدب يصلي حتى طلع الفجر، فأذن وأيقظ أذانه الذئب، فقال هذا الأخير: "السلام عليكم" رافعا بها صوته ليوهم زميله أنه بات يصلي وأنه سبقه إلى الصلاة حيث أكملها وفرغ منها. فبهذه الحيلة ربح الذئب الكساء في الليل والراحلة في النهار لعبقريته وذكائه[1].

وفي هذا السياق نفسه يحكون أن الذئب كان زوجا للأرنب وعنده ثور وعندها بقرة، فولدت البقرة عجلة وقال الذئب هي بنت ثوري، وقالت الأرنب: بل هي بنت للبقرة، واحتكما إلى الثعلب، فوعدهما صبيحة الغد، فلما ارتفع النهار قدما إليه، فوجداه قد طلى وجهه بالمغرة (طين أحمر معروف تطلي به المرأة النفساء وجهها إذا ولدت أنثى) فسأله الذئب: ما بالك؟ فقال له: إني نفست البارحة، فقال: أينفس الذكور؟ فقال: اعرفها إذن ورد إلى الأرنب عجلتها وأعطها حقها(2).

وهكذا يكتسب الطفل من هذه الحكاية ومثيلاتها قدحا للذهن والعبقرية، وتطويرا لآليات النظر والاستدلال، وتعميقا لمقولات المنطق التي لا تقبل الأمر الخارق للعادة غير المعزز بالبرهان.

1- حياة موريتانيا: الجزء الثقافي: المختار بن حامد، بيت الحكمة، تونس 1990 ص: 188-189.
2- المرجع السابق والصفحة.

2- التدريبات الذهنية:

تعد الألغاز والأحاجي إطارا مناسبا يتم فيه إعداد النشأ للنظر والتفكير وحملهم على إعمال الذهن وقدح العبقريات، وفي هذا الصدد كان الأطفال يجلسون أول الليل مع الأمهات والجدات في حلقات حوارية خاصة يتم خلالها تقديم جملة من الألغاز والأحاجي الشعبية يتبارى الصغار في كشف أسرارها وفك بعض أزرارها.

ومن الألغاز التي يربون من خلالها الصبيان على التفكير تقسيم زق من الدهن بالسوية بين فردين، فيسألون الطفل عن كيفية توزيع قارورة من الدهن على شخصين بالتساوي مع العلم أن القارورة تسع ثمانية أمداد، والمقسِّم لا يتوفر إلا على إناءين أحدهما يسع خمسة أمداد والآخر يسع ثلاثة(1).

والجواب عن هذا أنه يملأ الإناء الصغير ويفرغه في الكبير، ثم يملأ الصغير ثانية ليفرغه في الكبير مرة أخرى، وعندئذ سيمتلئ الإناء الكبير بأن تحصل فيه خمسة أمداد ليبقى في الصغير مد واحد، وفي الزق مدان، فيتهيأ ساعتئذ إفراغ سعة الإناء الكبير في الزق، فإذا ما خلا الإناء الكبير جعل فيه المد الذي في الإناء الصغير، ثم يملأ الإناء الصغير مرة أخرى ليفرغ في الكبير، فتحصل فيه أربعة أمداد، وتبقى في الزق أربعة، وهذا هوالحل المطلوب.

ومن الألغاز التي يمتحنون بها الذكاء أيضا بذل الجهد في تنسيق بعض الأشياء المتنافرة، وذلك على نحوما في الاختبار الآتي:

إذا كان عندك ذئب ومعزاة وغصن شجرة مورق ولديك زورق صغير لا يتسع لأكثر من واحد من هذه المذكورات، فكيف تستطيع أن تعبر نهرا بهذه العناصر من غير أن يخلوالذئب بالمعزاة أوتنفرد المعزاة بالغصن لما قد يترتب على ذلك من الخطر والعصف بإكمال المهمة[2].

والجواب عن هذا أن تحمل المعزاة أولا وتتركها وراء النهر ثم ترجع وتحمل الغصن وتتركه وراء النهر حيث كانت المعزات ثم ترجع بها معك وتتركها في نقطة الانطلاق ثم تحمل معك الذئب وتتركه مع الغصن وراء النهر وتعود صفر اليدين غير حامل معك شيئا فتأتي بالمعزاة.

ومن أساليبهم المنشطة للذهن أن يطلبوا من الطفل تكرير بعض العبارات المتقاربة في المخرج بسرعة فائقة دون أي تعثر أوتلعثم، وهذا من شأنه أن يدرب الطفل على النطق بالحروف في فصاحة وبيان، ويمرنه على إخراجها من مخارجها مع مراعاة أوصافها، ومن أمثلة ذلك أنهم يأمرون الصغير أن يكرر على عجل هذا التعبير الحساني: "انخط احروف وانحط اخروف" [3] إلى غير ذلك من العبارات المتقاربة في مخارج الأصوات.

1- المرجع السابق ص: 189.
2- المرجع السابق والصفحة.
3- وإذا ترجمنا هذه العبارة إلى الفصحى قلنا: أخط حروفا وأحط خروفا.

3- الندوة الشعرية:

ونقصد بها ذلك السمر الأدبي القائم على استحضار الشعر من الذاكرة على نحو يقدح الأذهان وينمي ملكة الحفظ، وكثيرا ما يتم هذا النشاط في حرم المحظرة أو بأحد بيوتات الحي. وصورته أن يجتمع نفر من الشباب أقلهم ثلاثة وينتظموا في حلقة ثقافية، وغالبا ما يكون ذلك بعد صلاة العشاء، أو قبيلها بيسير. وفي فاتحة اللقاء يتفقون على أن يتذاكروا محفوظاتهم الشعرية عبر آلية تدريبية قوامها أن يبدأ أحد الحاضرين بإنشاد بيت من الشعر من ذاكرته ليقوم من عن يمينه بإنشاد بيت تكون فاتحته روي البيت الذي أنشده الأول، ثم ينشد الذي عن يمين هذا الثاني بيتا ثالثا يكون أول حرف منه آخر حرف من البيت الذي أنشده سابقه وهكذا، فإذا كان المنشد الأول أنهى بيته بروي الهمزة فإن المنشد الثاني يلزمه أن يستحضر من ذاكرته بيتا يبدأ بحرف الهمزة، وإذا كان هذا البيت المبدوء بحرف الهمزة ينتهي بحرف الياء فإن المنشد الثالث يتحتم عليه أن يأتي ببيت يبدأ بحرف الياء، وهكذا حتى تتم الدورة وقد تتكرر عدة مرات على هذا النحو، دون إعادة لما سبق إنشاده.

وقد يكون مستوى الجماعة عاليا ومحفوظهم الشعري متعددا فيلجأون عندئذ إلى تقليص دائرة الاختيار لتنحصر في الشعر الجاهلي أو العباسي أو الشنقيطي مثلا، وقد يختارون مجالا محدودا كأحد الأغراض الشعرية، فيقع اختيارهم في الندوة على غرض معين كالمدح أو الرثاء أو الحكمة أو الغزل، أو غير ذلك من القيود المعرفية التي تكشف عن التمكن من ناصية اللغة سعة مخزون القريض.

ومن الأعراف المتداولة في الندوات الشعرية المتميزة إقصاء الأراجيز والمنظومات التعليمية من دائرة الاهتمام وحقل التنافس، ومن تقاليد هذه الندوات أن المشارك إذا ما عجز عن استحضار البيت الذي لزمه فإن له أن يستقرض بيتا من بعض الحاضرين ولهم أن يقرضوه، فإذا تكرر منه الأمر مرات دل ذلك على قصوره، مما قد يضطر المجموعة إلى أن تخرجه من الحلقة بلطف، وسنقدم نموذجا من نماذج الندوات الشعرية في ما يأتي:

محمد سيد الكونين والثقلين ... ن والفريقين من عرب ومن عجم
مديح سوى المختار بالعقل يعبث ... وأكثره جهل به المرء يرفث
ثم انثنى ذات اليسار غدية ... يتتبع الأوكار في "أوكارا"
رمت الفؤاد مليحة عذراء ... بسهام لحظ ما لهن دواء
ألا يا صحبتي عوجوا فحيوا ... ربوعا ما بمربضهن حي
يا معشر البلغاء هل من لوذعي ... يهدى حجاه لمقصد لم يبدع
على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
مرامي رزق واسع يتيسر ... ونصر ورضوان من الله أكبر

ربعت في مجادل "الكرب" ترعى جلهات بهن حوالبطاح
حل في القلب حب طه فتاها إنما الفخر كله حب طه
هاج قرح الغرام بعد اندمال ظعن ظعن الخليط يوم إنال
لا تنس ربك في ري ولا ظمإ ولا بحضرة ضرغام ولا رشإ
أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر
رمتني على فوت بثنية بعدما تولى شبابي واشرخن شبابها
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وبذلك تكون التربية المحظرية قد فعلت فعلها في وضع اللبنات الأساسية لبنية العقل الشنقيطي، مدربة العقل على إعمال النظر وقدح العبقريات وتقوية الذاكرة.

ثالثا: المحاظر الشنقيطية سفارة وتمكين

وضمن هذا المحور سنعرض لثلاث مسائل تهتم أولاها بالسفارة المحظرية في العالم الإسلامي وتعنى ثانيتها بالبصمات المحظرية في الغرب الإفريقي وتركز ثالثتها على الجهود المحظرية في مقاومة الاحتلال الأجنبي

أ- السفارة المحظرية في العالم الإسلامي

نذكر هنا بأن الشناقطة سعوا جهدهم إلى تكوين أبناء المحاظر تكوينا علميا متميزا وذلك ما هيأ علماءهم للتقدم في المجالس والنوادي العالمية ويكفي دليلا على ذلك أن شناقطة كثيرين سفروا لهذا البلد أحسن سفارة، فأشادوا به في المحافل الدولية، روفعوا له ذكره، ومن هؤلاء الشيخ محمد محمود بن التلاميدالتركزي، المعروف في الأوساط المشرقية بالشنقيطي، ت 1322هـ فقد أقام في الحجاز متصلا بالنخبة العالمة، ففي حرم المدينة لبث ربع قرن وهوجالس لتدريس الرجال وتكوين الأجيال، وذلك ما عبر عنه بوضوح حيث يقول[1]:

وقد ربيتهم عشرا وعشرا وخمسا كاملات من سنين
بإطعاميهم والعلم غث سدائف من ذرى علم سمين
وسقييهم وخمر العلم خل سلافة خمر علمي ذا المعين

1- الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية. مطبعة الموسوعات بمصر 1319هـ 145/2.

وقد شهد له طلبته هنالك بالتقدم والتميز، إذ صرح شاعر الجزيرة يومئذ عبد الجليل برادة بأنه محمدة العصر ومفخرة شنقيط، يقول[1]:

لئن فخرت شنقيط يوما فبالحري وحق لها بابن التلاميد مفخر

أقول وإني ناصح جد مشفق مقالة صدق أجرها أتنظر

هلم بغاة العلم في سوح طابة إلى العلم عند ابن التلاميد تظفروا

ونال الشيخ هذه المنزلة نفسها بالأزهر حيث قدمه المشايخ هنالك واعترفوا له بالفضل ومكنوا له في الأرض فتهيأت له أسباب البحث والتأليف، فدرس وناظر، وجمع كتب التراث وحقق الكثير منها، وقد امتدت رحلاته، إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية يومئذ فأوفده السلطان العثماني في مهمات علمية إلى الأندلس وإلى السويد، فكان بذلك سفير العلم والمعرفة وآية الحفظ والتمكن من ناصية اللغة.

ومن هذه الأوجه الثقافية الفقيه محمد يحي الولاتي ت 1330هـ الذي جلس للتدريس بالمدنية المنورة فترة حاور خلالها العلماء ونشر المعارف والعلوم، وذلك ما أوضحه بقوله: " وممن لقينا من الأفاضل في المدينة المنورة، السيد الأرضى علوي، والشيخ تميم سعد المخرج حسن، ودرَّسنا بمدة إقامتنا بالحرم الشريف موطأ مالك رضي الله عنه، وعقود الجمان للسيوطي، وورقات إمام الحرمين.

ولا ننسى كذلك جهود الشيخ محمد أمين الشنقيطي ت 1351هـ الذي لبث فترة في المشرق العربي يرشد الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة، فدرس بالعراق، وأسس بالكويت جمعية النجاة، التي تهدف إلى توعية المسلمين وتبصيرهم بأمور دينهم، فامتدحه أحد الشعراء الكويتيين بقوله[2]:

اليوم هللت الكويت وكبرت لما أتاها العالم النحرير

واستبشرت فرحا بنابغة الهدى حتى حسبنا أنها ستمور

إيه بني قومي وسادة معشري أوموا إليه كلكم وأشيروا

أمعطر الإسلام من نفحاته ومعيد روض الدين وهونضير

1- المرجع السابق ص 10/1

2- عبد اللطيفيالدليشي الخالدي: من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة ط 1 1981م ص 128.

بشـــــر بلهذا الثغـــــر لمـــــا زرتـــــه فلكـــــم تمنـــــت أن تـــــراك ثغـــــور

ومن هذه القمم الثقافة نذكر الشيخ محمد الامين الجكني الشنقيطي ت 1394هـ الذي تصدر المنتديات المعرفية بالمملكة العربية السعودية على عهده، فكان مدرسا وخطيبا ووجيها، فأقبل الناس إليه يزفون، ومن معارفه يغترفون، فقربته السلطات ومكنت له في المنطقة.

ومن سفراء المعرفة الذين مثلواهذه البلاد أحسن تمثيل أحمد بن الأمين الشنقيطي، مؤلف كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط الذي جاء استجابة لطلب من صديقه المصري أحمد أمين واستمالة لأفئدة المشارقة نحوأدب المغاربة وغيرة على ما أصاب منتوج قومه من غبن وإهمال، وردا على بعض المتطاولين الذين يقصرون الإبداع على أهل المشرق، وهم عن أدب المغاربة معرضون يقول: " وبعد فلما كان تدوين الآثار يثير اعتبار أولئ الأبصار وبه يتسنى للحاضر أن يقتدي بالغابر ندبني من لا تسع مخالفته ولا يسع إلا ملاطفته، صديقي السيد أحمد الأمين الخانجي، أن أجمع له ما تسنى لي من شعر أهل بلدي مما استقر في خلدي لاستحسانه ما سمع مني معزوا إليهم، فأجبته إلى ذلك الطلب راجيا من الله حسن المنقلب، وأخبرت بذلك بعض نبهاء المصريين فاستغرب ذلك ظنا منه أن الآداب العربية لا يتصف بها غير الأقطار المشرقية (...) فحدتني حمية العصبية إلى نشر ذلك البز الدفين، لينشر في المغربين والمشرقين"[1]. وقد كان الرجل جولة مسفارا فزار الحرمين الشريفين والقسطنطينية وبلاد روسيا، وهنالك رد على أحد المستشرقين ممن يحيون الشعوبية في ثوب جديد وينتقصون من فضل العرب، فألف كتابه المشهور "طهارة العرب"، وغير هؤلاء كثير ولم يكونوا ليبلغوا هذه المراتب السامية إلا بفعل تكوينهم الأكاديمي المتميز في كنف المحاظر.

وبالجملة فإنهم مثلوا بلدهم أحسن تمثيل، مجسدين بذلك سفارة معرفية عالية، فكانوا من أبرز طواقم التدريس بمختلف البقاع الإسلامية. فهم رسل المحظرة الشنقيطية إلى العالم وقد بهرت ثقافتهم من الناس العيون، فطفقوا يعترفون لها بالفضل والتقدم، ويذعنون لأبناءها بالحفظ والتوفق وذلك لما امتاز به أبناؤها من قوة في الذاكرة وسعة في المحفوظ، فاستنجد بمحفوظهم أهل نجد، وتصعد إلى مخزونهم أهل الصعيد. فأحيوا بذلك دروس العلم وهي رميم، وأرشدوا إلى التعلم من أبناء تلك البلاد جبلا كثيرا.

ب - البصمات المحظرية في الغرب الإفريقي

يحسن أن نذكر هنا بأن للشناقطة في الصعيد الإفريقي حضورا معرفيا كبيرا فقد ظلوا هنالك مصابيح الهداية والعلم، وينابيع القيم والحلم، فكانوا مستشارين للملوك والرؤساء

1- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط أحمد بن الأمين الشنقيطي مطبعة الخانجي 1961 ص 2-3.

ينيرون لهم الطريق، ويظهرون وجه الحقيقة ويسطرون رفيع الأقضية والفتاوى "فبقي بين أظهر الزنوج وبحضرتهم دائما بعض رجال الدين من الشعب الذي يسمى صنهاجة أو العرب"[1].

وينبه الرحالة البرتغالي كادامستو إلى جهود الشناقطة في نشر الإسلام بأرجاء مملكة جلف السينغالية مبينا حضورهم الفاعل ورأيهم النافذ في مقاليد السلطة ونظام الحكم، يقول: "فالملك وجميع السادة من نبلاء جلف يتبعون المذهب المحمدي ويوجد بين ظهرانيهم رجال دين من البيضان، وهم مبشرون محمديون يعرفون القراءة والكتابة"[2].

ويؤكد الرحالة الفرنسي بيير لابات أن القوم عملوا على نشر تعاليم الإسلام بين صفوف الأفارقة السود موضحا "أن البيضان هم الذين نقلوا الديانة المحمدية إلى الزنوج ولهذا كان لهم نفوذ قوي في هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة مرشدين في كل ما يتصل بالدين والدنيا"[3].

ويصرح أحد الأستاذة السينغاليين أن الشناقطة هم أشياخ أمته وأستاذة بني أرضه، فهم الذين أدخلوا التعليم العربي والإسلامي إلى ربوع إفريقيا، بل هم أول من علم السينغاليين[4].

والأهم من ذلك أن كثيرا من أبناء المحاظر الشنقيطية كان يرتحل إلى البلاد السودانية نشرا للدعوة وبثا للعلوم، فتم بذلك التثاقف بين المنطقتين وامتد تأثير أئمة التصوف وأشياخ المحاظر إلى سكان الضفة الجنوبية للنهر، فكان لعدد من الشيوخ الشناقطة أتباع ومريدون في الضفة المذكورة، ومن أبرز هؤلاء الشيخ سيد المختار الكنتي ت 1226هـ. والشيخ محمد الحافظ العلوي 1247هـ والشيخ سيدى بن المختار بن الهيبه الانتشائي ت 1285هـ والمرابط محمذن فال بن متالي التندغي 1287هـ والشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل القلقمي ت 1335هـ، وغيرهم، وبذلك فإنهم نشروا المعارف الإسلامية في السودان الغربي كله فغدت المناطق الإفريقية مناخا للدعوة صالحا، وأرضية للتوجيه خصبة، فتعالت بتلك الربوع صيحات النصح والإرشاد وارتفعت نداءات التوجيه والإصلاح، وتغلغل القوم إلى أعماق القارة مبشرين ومنذرين فلامسوا أفئدة الشعوب ونسجوا وشائج من الرحم العلمي والقرابة المعرفية نظمت أبناء المنطقتين ولحمت أعراقهما، ويتجلى جانب من ذلك في جهود الشيخ سعد أبيه الذي انتشر صيته هنالك بفعل

1- ددود ولد عبد الله حوليات كلية الآداب بجامعة نواكشوط 1990، ص 26.
2- المرجع السابق والصفحة.
3- المرجع السابق ص 28.
4- المرجع السابق والصفحة

ما نشر من المعارف والأوراد فنال الشهرة والقبول، فانضوى تحت لواءه عدد من الطلبة والمريدون، وذلك ما أوضحه المختار بن المحبوبي بقوله[1]:

ومـــات فـــي "هـــل"[2] مـــن الأعيـــان سـعد أبيـــه غـــرة الزمـــان

مـــن عـــم الأرض مشـــرقا ومغربـــا علمـــا وحلمـــا وتقـــى وأدبـــا

ونشـــر الأوراد والســـودان ذلـــوا لـــه وخضـــعوا ودانـــوا

كما أشار العالم سيد أحمد بن اسمه إلى قوة تأثير حضرة هذا الشيخ في نفوس الأفارقة مبينا أثرها الكبير في نشر الإسلام وتعميمه في مختلف المناطق والحواضر في غرب إفريقيا يقول: « شاهدنا بمباره وصوصات وغيرهم من سائر الأجناس يأتون من بلادهم البعيدة ماشين على أرجلهم إلى أهل الشيخ سعد أبيه من غير أن يدعوهم إلى ذلك إلا سابق السعادة فقد كانوا قبل إتيانهم كفارا جهالا أعجاما فبدلهم الله تعالى الإسلام مكان الكفر والعلم مكان الجهل، والتعرب مكان عجمتهم ثم يكونون أئمة دعاة إلى الخير فيهتدي على أيديهم آخرون وذلك ببركة أولئك الأشياخ»[3].

ويقدم ابن اسمه في كتاب النصح الأتم والصلح والسلم، بحثا وافيا سلط خلاله الضوء على تأثير الأشياخ ونشاطهم العلمي مؤكدا أنهم قد عملوا جهدهم على نشر الإسلام وهداية الشعوب وإرشادها إلى الخير، وقد نوه كثيرا بمجهود الأسر الفاضلية، يقول: « وكم اعتنق الإسلام على يد الشيخ المحفوظ من جولات وغيرهم أما أهل آب محمد فهم العجب العجاب فقد اهتدى على أيديهم من بمبارةوسوننكي وأجناس لا أعلم أسماءها ما لا يعلم عدده إلا الله. وقد مررت بهم في بعض السنين فأخبروني أنه تاب (أسلم) على أيديهم في ذلك العام عشرون ألف نفسا، وللمختار بن عبد الجليل التندغي من ذلك نصيب»[4].

ولا ننسى أن العلماء الشناقطة كان لهم موقف مناصر من الحاج عمر الفوتي فدافعوا عن جهوده وجهاده وبذلوا وسعهم في تغذية هذا الجهاد وتغطيته، مشكلين بخطاباتهم الشعرية

1- التواصل المعرفي بين الوطن الشنقيطي والغرب الإفريقي: د محمذن بن أحمد بن المحبوبي مقال منشور بمجلة التاريخ العربي ص 15.

2- هل تشير بتاريخ الجمل المعمول به يومئذ في تأريخ الحوادث ووفيات الأعيان إلى خمسة وثلاثين والمقصود بها سنة وفاة الرجل 1335هـ، فقد اكتفى بالعددين الأخيرين لأنه سبق وأن أشار في فاتحة منظومته إلى العدد الأولين.

3- بلاد شنقيط المنارة والرباط الخليل النحوي مرجع ساق 281.

4- سيد أحمد بن اسمه: النصح الأتم مخطوطة بحوزة الأستاذ محمد بن زين بن المحبوبي.

والنثرية شرارته ووقوده، فتعالى صوت الشيخ محمد المامي بأقصى الشمال الغربي من بلاد شنقيط مهنئا الرجل بمطولة شعرية استهلها بالتحية والثناء مشيرا إلى خصوصية هذا المجاهد ومرونته حيث جمع بين التجديد والإصلاح فجسد بحق نموذج الإمام العدل الذي إليه الشناقطة يطمحون وبمثله يحلمون يقول[1]:

سلام إلى من نور مغناه فائح ومن نوره للشمس والبدر فاضح
ومن ضره للكفر ماح وهادم ومن نفعه للخلق غاد ورائح
فكنا نرى للغرب عدلا يقيمه عليه بقرب المصطفى النور لائح
وفي عمر الحاج الموقف وسم ما نحاوله من ذلك الكنز لامح
وما كل منصور اللواء مجدد ولا كل ذي التجديد للأمر صالح
وقد حزتم الأمرين فالله ناصر لكم وزمان المهدوية جانح

أما سيد محمد بن امبوجه فيمكن أن يوصف بأنه شاعر الجهاد العمري، فقد تضمن ديوانه عدة نصوص تشيد بفتوحات الحاج عمر وجهاده من أبرزها مطولته التي تقع في سبع وتسعين ومائتين من الأبيات، قد سمها شمس القصائد الغرر في تهنئة الحاج عمر، وقد تضمنت تصويرا مستفيضا لما كان يراه الشاعر في الشيخ من فضائل دينية وأخلاقية وما يعلقه عليه من الآمال لإنقاذ البلاد والعباد، يقول[2]:

ولما استويت اشتد كاهل ديننا بساعدك المقرون باليمن والقهر
فأحييت رسما دارسا من علومه وشيدت بنيان الخلافة في قصر
وجاهدت في مولاك حق جهاده وقمت بأمر الله منشرح الصدر
فأصبحت مخصوصا بحسن سياسة تساعدها الأقدار بالفتح والنصر
قد اكتنفتها حدة عمرية تشاب بعطف مثل عطف أبي بكر

وبالجملة فإن أبناء المحاظر الشنقيطية امتد تأثيرهم إلى مختلف مناطق غرب إفريقيا فأسسوا هنالك مراكز ثقافية وحضرات صوفية ظلوا لها عاكفين وفي سبيلها مرابطين، فبلغوا رسالات الله إلى أبناء القارة السمراء فكانوا بذلك ينابيع الهداية والعلم وعناوين

1- عمر الفوتي وبلاد شنقيط ص 21
2- سيد عبد الله بن أمبوجة: ضالة الأديب تحقيق الدكتور أحمد بن الحسن منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 1996 ص 192 – 193.

الإبانة والرشد، إذ بعثوا من صفوة أبنائهم إلى الأفارقة الأميين رسلا مبشرين ومنذرين كما استقبلوا برحابة صدورهم أعدادا من الأفارقة الوافدين.

ج- الجهود المحظرية في مواجهة المد الأجنبي

لقد بذل أشياخ المحاظر جهودا مشكورة في مواجهة الاحتلال الأجنبي، سواء تعلق الأمر بمحاصرته ومضايقته بمختلف الوسائل، أواتصل بالعمل على مقاطعة مشاريعه الثقافية، فقد جاءت فتاواهم الفقهية ومنتوجهم الشعري تعبيراً عن كل ذلك، وهوما سنعرض له في مستويين:

أ- مواجهة المخططات الاستعمارية:

وفي هذا المستوى ننبه إلى أن أبناء المحاظر شحذوا أقلامهم للدفاع عن حوزة الوطن الشنقيطي مصرحين بلزوم مواجهة النصارى ومجاهدتهم، وذلك ما أوضحه المختار بن المعلى داعياً على قوات الاحتلال بقاصمات الظهر، واختلاف الصفوف مع الخزي والهوان يقول[1]:

يمين البر أتبعها يمينا ... لقد وجبت مجاهدة النصارى
أزال الله ملكهم وأجرى ... جراف الكبت فيهم والدمارا
ومزقهم بعنقا عن قفير ... وأردفها الزمانة والخسارا
فلا نهضوا إلى الغرا بكيد ... ولا شدوا لناصرها إزارا
ولا ابتهجوا ولا انتهجوا سبيلا ... يعارض ديننا إلا الفرارا
وأولى المسلمين يدا ومجدا ... وعافية وأمطارا غزارا

ولم تكن المرأة الشنقيطية غائبة عن هذه الجهود النضالية، فقد نظمت مريم بنت عبد الجليل أرجوزة ترقبت فيها هزيمة الأعداء داعية عليهم بالويل والثبور، تقول[2]:

يا ربنا بالمصطفى الرسول ... فقودينا على ديكول
وما به يكيدنا من كيد ... فلتردد في الكلب بأس الكيد
واخمد شهاب ملكه في الحين ... يا ربنا بسيد الكونين
وانصر إلهي ملة الإسلام ... نصرا عزيزا مذهب الظلام

1- شعر المقاومة الموريتانية، الدكتور يحيى بن محمدن الهاشمي، ص 101.
2- المرجع السابق، ص: 110.

ودولـــة الكفـــر امحقنهـــا طـــرا يـــا ربنـــا إلـــى هلـــم جـــرا

ويرفع امحمد بن أحمد يوره صوته عاليا مصرحا بمكر الروم وسعيهم الحثيث إلى إذلال المسلمين، إذ فرضوا عليهم عديد الإتاوات، وحملوهم من أمرهم عسرا، يقول[1]:

يـــروم الـــروم إذلال الكـــرام وإعـــزاز الأراذل واللئـــام

ولـــم أر مـــن أمـــور الـــروم أمـــرا كتجهيـــز الخيـــام مـــن الخيـــام

فكـــم رامـــوا الطعـــام بـــلا ظهـــور وكـــم رامـــوا الظهـــور بـــلا طعـــام

وكـــم رامـــوا نقيصـــة ذي تمـــام ويـــابى الله إلا بالتمـــام

كما نقرأ أبياتا لسيدي محمد بن عبد الكريم يبرز ضمنها نتائج الاستفتاء الديكولي مصرحا أن الذين اقترعوا لصالح نعم يومئذ قد عموا عن الحق، وابتعدوا عن سواء السبيل، مهنئا في الوقت نفسه أولئك الذين اقترعوا لصالح لا، مؤكدا أنهم نصروا دين المصطفى ﷺ ولم تستملهم المغريات المادية من الدراهم والأنعام يقول[2]:

مـــن أنعمـــوا لوفـــاق المشـــركين عمـــوا ولاء مقتصـــدي ســـبل الهـــدى "نعـــم"

مـــن نعمـــة ترتجـــى فـــي طيهـــا نقـــم أونقمـــة تختشـــى فـــي طيهـــا نعـــم

فـــي ظـــاهر الأمـــر والمـــأمول باطنـــه غيـــب وإن صـــدقوا فـــي كـــل مـــا زعمـــوا

واهـــا لمـــن نصـــروا ديـــن الهـــدى صـــبرا ومـــا اســـتمالتهم عـــين ولا نعـــم

ب- مقاطعة المشاريع الثقافية

يحسن بنا أن نسجل في هذا المقام أن النظام المحظري وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع سلطات الاحتلال التي فرضت لغتها بشكل تدريجي، سعت من خلاله إلى طمس الهوية ومحوالدين وتغييب الفصحى، وكانت السلطات الفرنسية أخطأت حساباتها، فاكتشفت أن القضاء على خصوصية هذا المجتمع لن يتم بين عشية وضحاها فهوشعبي عصي على الانقياد. ولما يحن بعد وقت استئصال ثقافته، لذلك أصدر المستعمر قرارا يسمح بتعليم العربية في المدارس الفرنسية غير أنه قوبل بالممانعة والرفض مما أرغم المستعمر على إعادة النظر في هذا القرار ونسخه بإصدار تعميم يكتفي بالتأكيد على ضرورة إعراب الأسر شفهيا عن رغبتها في تعلم أبنائها العربية. وكان هذا التعميم مجرد إجراء استثنائي

1- المرجع السابق والصفحة.
2- المرجع السابق ص 111.

غايته تشجيع إقبال الأطفال على المدرسة الفرنسية بتوفير قسط من التعليم التقليدي الذي يتشبث به البيضان[1].

ولما أحكم المستعمر قبضته آخذا في نشر ثقافته، طفق أشياخ المحاظر يهاجمونه، واقفين له بالمرصاد فجردوا أقلامهم دفاعا عن بيضة الدين وحفاظا على لغة القرآن وصيانة للنشإ الصغار، وتحصينا للمعتقدات وتنويها بالمحظرة وتنديدا بالمدرسة، واتبعوا في ذلك استراتيجية مزدوجة تعتمد محورين:

أ- محور المنع والتحريم:

وفي إطاره طرح الفقهاء إشكالية جواز تعلم اللغات الأجنبية وحكم دخول الأبناء إلى مدارس الاحتلال الفرنسي وذلك ما أورده محمد بن محمد المصطفى البرتلي في صيغة سؤال منظوم موجه إلى علماء البلاد، يقول[2]:

ملح البلاد ما جواب سائل عن حكم أمر في البلاد نازل

إسلامنا أولادنا الصغارا طوعا إلى مدارس النصارى

واعتبر بعض العلماء هذا الإشكال من باب السؤال عن المعلوم المذموم، وواجهه بعضهم بالصمت خوفا وتقية، وأجاب بعضهم الآخر عنه تلميحا على نحوورد على لسان الشيخ عبد الله بن داداه تـ1393هـ إذ يقول[3]:

الصمت دون ما يخاف جنه وقال في إضاءة الدجنة

(الحق لا يخفى على ذوعين والله أرجوا عصمة من مين)

وقد صرح محمد الامين بن محمد مولود الموسوي بحكم هذه النازلة وفصل القول في شأنها قائلا[4]:

جاز تعلم خطوط الكفرة لرجل عند الملاح المهرة

ومنعوا إسلام نجله الأب لكافر يبعثه للمكتب

بإثمه بعد إذ انتصرا على الذي أعطاه في ما اشتهرا

1- بلاد شنقيط المرجع السابق والصفحة

2- بلاد شنقيط المنارة والرباط مرجع سابق 357

3- المرجع السابق والصفحة

4- المجموعة الكبرى يحي بن البراء المجلد 7 ص 2981. وبلاد شنقيط مرجع سابق ص 358.

والخلـــف فـــي تعلـــم الكفـــار خطوطنـــا ذا الخلـــف فيـــه جـــار
ذكـــر ذا العلامـــة الشوشـــاوي بحـــر المعـــارف الخضـــم الـــراوي

كما حرر لمرابط محمد سالم بن ألما فتوى يعجب ضمنها ممن يسلم نجله لتعلم لغات الكفار وديانـاتهم يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم لم أفهم أحدا لم يزل يسأل ربه عز وجل أن يرزقه ولدا صالحا تقر عينه به في حياته تقيا كما فسر به الطبري قوله عز وجل (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) ويرجوأن يجمعه الله معه في الجنة بدعوة الصادق في قوله تعالى: (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)، فلما من الله به عليه تركه حتى أوقدت الفتن نارها، من كل جهة وأظلم جوالسنة، وبدا حاجب البدع العامة وناء الدين بكلكه ذاهبا عرضه لفساد دينه بالتعريض لهذه الفتن، اختيارا بقراءة المدرسة العصرية، وتركه من كتاب الله عز وجل: الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، رغبة في الحطام الفاني وإئثارا للمراتب الدنيوية، كأن أبواب الرزق قد أغلقت كلها، لا تجارة ولا ماشية، ولا حراثة إلا هذا الباب وحده، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم"[1].

ب- النبذ والتحذير:

وفي جانبه وقف أشياخ المحاظر لهذه المدارس بالمرصاد وخاصة الشعراء منهم، إذ بسطوا إلى المستعمر أيديهم وألسنتهم بالسوء، محذرين أبناء من المسلمين من تلك المدارس الفرنسية وداعين إلى نبذها وراء الظهور، ومن النصوص البارزة في هذا السياق قصيدة "بنات الفكر" للشيخ أحمدُّ بن فتى الشقروي التي يقول فيها[2]:

فـــي بـــالوعود بنـــات الفكـــر أوخيســـي وحـــاذري كـــل تســـويف وتلبـــيس
وعظمـــي الـــذكر إن الـــذكر ذوعظـــم وقدســـي ديـــن طـــه أي تقـــديس
لا علـــم لا ديـــن لا تقـــوى يؤمـــل مـــن علـــم قـــرين عـــذاب مـــولم بـــيس
ولا مـــزيج مـــن الأجنـــاس فـــي حجـــر تبنـــى لغـــي وتفســـيق وتنجـــيس
ولا خطـــوط قـــرى كالنمـــل صـــورها مـــن زوقوهـــا بشـــكل غيـــر إدريســـي
بـــاعوا الحـــواميم فيهـــا بالحمـــام كمـــا بـــاعوا الطواســـيم فيهـــا بـــالطواويس
والـــدِّين بالـــدِّين والتقـــوى بكـــل خنـــى والعِـرض بـالعرَض بـل والكَـيس بـالكِيس

1- المجموعة الكبرى مرجع سابق 7، 2982.
2- نفس المرجع ص: 119.

وتتنزل في هذا السياق كذلك أبيات أحمد بن محمذن بن المنى الحسني التي يحذر ضمنها من إدخال أبناء المسلمين إلى مدارس المستعمر الفرنسي يقول[1]:

فـــلا تجعـــل صـــبيك فـــي "الكـــول" لتـــأمن مـــن لهيـــب لظـــى الأكـــول
وكـــن عنهـــا إذا نشـــرت ذووهـــا ليـــدخلها الدعايـــة ذا نكـــول
ولا تقـــل العـــدول الشـــم فيهـــا وفيهـــا الشـــم أبنـــاء العـــدول
فليســـت عصـــمة الـــرحمن إلا لمـــن حـــاز النبـــوة كالرســـول

ونطالع نصاً آخر لمحمدٌ حامد بن آلا الحسني يستنجد ضمنه من لهم الأمر يجنبوا حيه شر المدرسة الفرنسية المفروضة عليه مؤكدا أنها إضعاف للدين وإفساد للنشء يقول[2]:

منـــي لمـــن لـــيس منـــه البعـــد ينســـيني ولـــيس عنـــه جميـــع الأهـــل يســـليني
تحيـــة كثمـــار الـــذكر تشـــربها روح المكاشـــف فـــي أيـــام تلـــوين
عـــن موجـــب أننـــا كانـــت لنـــا بكـــمُ حمايـــة الـــدين إن خفنـــا علـــى الـــدين
واليـــوم أصـــبح لا ترضـــوا وحـــاش لكـــم يســـام خســـفاً علـــى مـــر الأحـــايين
فبـــادروا الـــدين إن الـــدين مـــذ زمـــن مـــا لـــم تلافـــوه فـــي حـــال مـــن الهـــون
والـــدين مبقـــاه أن تـــأتي الصـــغار بـــه وحيـــث لا فـــإذا لـــم يبـــق مـــن ديـــن
والنـــاس إن أفســـدوا ديـــن الصـــغار رضـــوا بالمحوللـــدين مـــن كـــل الـــدواوين
ولـــيس يرضـــى بمحوالـــدين غيـــر عـــم عـــن نهـــج الايمـــان والإســـلام مفتـــون
لمـــوتهم عنـــدنا خيـــر مـــن ان يلجـــوا فيمـــا بـــه طلبـــوا مـــن أهـــل ســـجين
كـــم بـــين مـــوتهم فـــي ديـــن ربهـــم ورفضـــهم عنـــدنا للـــدين مـــن بـــون
إن كـــان فـــي ذاك للـــدنيا سياســـتهم فالـــدين أولـــى بتأســـيس وتحســـين

وفي الختام نشير إلى أن المحاظر كونت أبناءها تكوينا أكاديميا يجعل منهم صخورا صلبة تتحطم عليها كل محاولات المسخ والتغريب، فكان من هؤلاء رسل حضارة وعلم، كما كان من بينهم أئمة أفذاذ، أجهضومشاريع المستعمر الثقافية وحصنوا أبناءهم بثقافة تقليدية عالية، مما جعلهم يمتلكون إيمانا راسخا هيأهم لأن يسهموا بفاعلية في نشر المعارف والعلوم، وفي المواجهة والهجوم كذلك، بل إنهم في مرحلة لاحقة يعدون أنفسهم للحجز المؤكد ضمن رحلة الإقلاع الحضاري المرتقب.

1- المرجع السابق، ص: 311.
2- المرجع السابق، ص 343.

المخطوطات الموريتانية: جهود الجمع والفهرسة

د.محمد الأمين ولد أن – جامعة نواكشوط

المقدمة:

أثمرت المدرسة التقليدية الموريتانية (المحضرة) نتاجا علميا ضخما ما يزال أغلبه محفوظا بين ثنايا المخطوطات، وهويعبر عن مستوى النهوض العلمي الذي بلغته البلاد في تلك المرحلة من تاريخها، وليس أدل على ذلك من آلاف المصنفات التي شملت مختف العلوم والمعارف.

ولا يخفى على أحد أن أوضاع المخطوطات في بلد حديث النشأة مثل موريتانيا تبقى متردية إلى حد يصبح معه العلاج مضنيا أومستحيلا، فهي مبعثرة بين الخزائن والمكتبات الموزعة بين أرجاء البلاد الشاسعة. وقد تعرض جزء كبير من تلك المخطوطات لعوامل التلف بسبب سوء الحفظ وضعف طرق الصيانة، وهوما تم التنبه إليه عند ما تزايد الوعي لدى ملاك المخطوطات بضرورة وضع أساليب جديدة لصيانة هذا الموروث الثقافي وحفظه.

لقد عرفت موريتانيا الاهتمام بالمخطوطات منذ سبعينيات القرن الماضي (20م)، حيث قيم بمجهود كبير لجمع المخطوطات الوطنية وحفظها وصيانتها، والتي يقدر عددها بأكثر من 40.000 مخطوط. ومنذ سبعينيات القرن الماضي تم القيام ببعض المساعي والجهود من أجل حفظ التراث الموريتاني المخطوط وصيانته وتحقيقه ونشره.

ويسعى هذا العمل إلى تسليط الضوء على واقع المخطوطات الموريتانية، وجهود جمعها وحفظها وفهرستها. وهوما سنتعرض له من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

المحور الثاني: خزائن المخطوطات

المحور الثالث: جهود جمع المخطوطات وحفظها وفهرستها

1- المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

آ- تعريف المخطوط:

أورد الباحثون والمختصون في مجال المخطوطات عدة تعريفات للمخطوط، إلا أن أغلبهم التزم بإلحاق لفظ مخطوط بكلمة كتاب، فيقال: الكتاب المخطوط، إلا أنه ليس كل ما كتب باليد يسمى مخطوطا، إذ يستثنى من ذلك الكتابة باليد على الألواح الطينية والجلود والنقش على الأحجار والصخور.

والمخطوط من خط الرجل الخط بيده أي كتبه[1]، وجاء في القاموس المحيط: (الخط الكتابة بالقلم)[2]. ومن هنا يعرف المخطوط

1- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص106.

2- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004، ص687.

بأنه ذلك الكتاب المكتوب بخط اليد، سواء كان في شكل لفائف أوفي شكل صحف ضُم بعضها إلى بعض على شكل دفاتر أوكراريس[1]، وبهذا المعنى تخرج الرسائل والنقوش والصكوك على حدود معنى المخطوط.

ولعل أشمل تعريف للمخطوط وأحدثه هوتعريفه بأنه: (كتاب لم يتم طبعه بعد، أي أنه مازال بخط المؤلف أوبخط ناسخ غيره، أوأخذت عنه صورة فوتوغرافية أوأن يكون مصورا بالمايكروفيلم عن مخطوط أصلي)[2].

ب- بداية الاهتمام بالمخطوطات في موريتانيا

ترجع البدايات الأولى للاهتمام بالمخطوطات الموريتانية من حيث الجمع والحفظ إلى سبعينيات القرن الماضي، فقد تم القيام بجهود لإحصاء المخطوطات ووضع خريطة لتوزيعها الجغرافي، ومعرفة وتشخيص وضعيتها، والتعريف بها، وفي هذا السياق نظم في نواكشوط أول ملتقى دولي سنة 1977 بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لدراسة وتشخيص واقع المخطوطات العربية في غرب إفريقيا.

وضمن جهود الاهتمام بالمخطوطات تم إنشاء المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الذي وضع برنامجا طموحا لحفظ المخطوطات الموريتانية وصيانتها، فأرسل عدة بعثات إلى مناطق البلاد المترامية الأطراف لإحصاء خزائن المخطوطات وأسماء ملاكها. وقد استطاع المعهد جمع 6600 مخطوط بشتى الطرق (الشراء، الإهداء، الوديعة...). كما قام أيضا بتصوير 3000 مخطوط ومجموعة كبيرة من الوثائق والعقود والرسائل التاريخية.

كما قام المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية منذ إنشائه سنة 1979 بجمع وفهرسة أكثر من 2000 مخطوط تم تحقيق بعضها من قبل طلاب المعهد في إطار إعداد رسائل التخرج.

ج- مصادر المخطوطات الموريتانية:

لقد اهتم الشناقطة قديما بالعلم والحرص الشديد على اقتناء المخطوطات وشرائها بأغلى الأثمان، فقد ازدهرت سوق المخطوطات في هذه البلاد حتى بيع القاموس المحيط بعشرين بعيرا، والحطاب على مختصر خليل بفرس[3]، ولذا جمعوا منها الكثير بشتى الطرق.

يقدر عدد المخطوطات الموريتانية بما يزيد على 40.000 مخطوط موزعة بين مناطق عدة مختلفة من البلاد. وهي اليوم تشكل خزانة غنية ومتنوعة تشمل مجالات علوم: القرآن، الحديث، التاريخ، الفقه، السيرة، الأدب وعلوم اللغة..إلخ. وأغلب هذه

1- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989، ص15.

2- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993، ص13.

3- تنجه بنت أحمدو، فهرسة المخطوطات في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية: 2012-2013، ص37.

المخطوطات مستورد من المغرب والجزائر وتونس والأندلس ومصر وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية. بينما لا يتجاوز عدد المخطوطات التي ألفها موريتانيون 10.000 مخطوط.

تعددت المصادر والوسائل التي جمع بها الموريتانيون القدماء هذا الكم الضخم من المخطوطات، ويمكن تقدير الحصول عليها بالوسائل التالية:

- رحلات الحج: تعتبر فريضة الحج في الإسلام من أهم الدوافع الأساسية التي دفعت آلاف الحجاج الموريتانيين للسفر إلى ديار الحجاز لتأدية هذه الفريضة، وكان أصحابها يقومون باقتناء وجلب الكتب، ولدينا الكثير من الشواهد الدالة على جهود العلماء في هذا الشأن والذين عادوا بأحمال من الكتب، ومن أبرز هؤلاء الفقيه سيدي محمد بن حبت الذي جلب الكثير من المخطوطات، واستمر اهتمامه بجمعها حتى بلغ ما لديه 1400 مخطوط[1]. وكذلك الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت1226هـ) الذي كانت تأتيه قوافل الكتب من فاس والقيروان ومصر[2]، وسيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي (ت1233هـ) الذي عاد من رحلته إلى الحج بأحمال من الكتب تقدر ب 1025 سفرا، والشيخ سيديا الكبير (ت1284هـ) الذي جمع في رحلاته الطويلة أكثر من 6000 مخطوط، وحفيده هارون ولد بابا (ت1398هـ) الذي زار عدة بلدان وعاد بكثير من المخطوطات والوثائق النادرة[3].

- التأليف المحلي: يعتبر كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لمحمد بن أبي بكر المرادي الحضرمي (المتوفى سنة 489هـ) أقدم مؤلف موريتاني في هذه البلاد، فقد كان من عادة العلماء الموريتانيين التأليف في مختلف مجالات المعرفة، إذ قل ما نجد أحدا منهم إلا ولديه تآليف في ميدان اختصاصه، وتكفي الإشارة إلى أن الشيخ محمد المامي (ت1282هـ) ترك آثارا علمية تقدر بأربعمائة مخطوط، والفقيه محمد يحيى الولاتي (ت1330هـ) ألف في حياته 114 كتابا. كما يمكن أن نستدل بالعمل الذي قام به الباحثان المختار ولد حامدن (ت1414هـ) وآدم هيموفسكي حيث تضمن الجرد الذي قاما به لـ2054 مخطوط لقرابة 394 مؤلف موريتاني[4].

ويقدر عدد المخطوطات المحلية التي ألفها علماء موريتانيون بأكثر من تسعة آلاف مخطوط.

- النسخ: أولى الموريتانيون اهتماما بمهنة نسخ الكتب، فقد اشتهرت أسر وقبائل كثيرة بخط الكتب.

اشتهر الموريتانيون بشغفهم بالمخطوطات، إذ لا تخلوخيمة أودار من مخطوط، ولهذا يعتقد بعض الباحثين والمهتمين بالمخطوطات أنه يصعب تقدير عددها إذا اعتبرنا كل ما هومخطوط من وثائق وعقود

1- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص154.
2- المرجع نفسه، ص112.
3- مقابلة مع د. أحمد ولد حبيب الله، باحث بالمخطوطات، بتاريخ 2013/10/04.
4- الخليل النحوي، المرجع السابق، ص385.

ورسائل وفتاوى فقهية، فالعدد يكون بالملايين، أما إذا اختصرنا على الكتب، فإن العدد يقدر بأكثر من 40.000 مخطوط موزعة بين 700 خزانة عمومية وخصوصية في مختلف القرى والمدن والأرياف الموريتانية[1].

المحور الثاني: خزائن المخطوطات الموريتانية

تتوزع المخطوطات الموريتانية مؤسسات رسمية ومكتبات أهلية موزعة على أماكن شتى من البلاد، ومن أهمها:

1- المعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط

2- المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط

3- مكتبات ولاتة

4- مكتبات تيشيت

5- مكتبات شنقيط

6- مكتبات وادان

7- مكتبات تجكجة

8- مكتبات النعمة

9- مكتبة أهل الشسخ سيديا بأبي تلميت

المحور الثالث: جهود جمع المخطوطات وحفظها وفهرستها

ترجع البدايات الأولى لجمع المخطوطات الموريتانية إلى النصف الأول من القرن العشرين، فقد نشر المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في العدد الثامن من مجلة العالم الإسلامي الصادرة باللغة الفرنسية سنة 1909 مقالا عنوانه "مكتبة صحراوية" عرض فيه لقائمة من المخطوطات الموريتانية. كما نشر بول مارتي في كتابه "الإسلام في بلاد البيظان" الصادر في باريس 1916 قائمة لمكتبة الشيخ أحمد بن سليمان[2].

وفي هذا السياق أيضا نشر المحتار ولد حامدن وألبير لاريش سنة 1950 مقالا بالفرنسية وذلك في نشرة المعهد الوطني لإفريقيا السوداء بعنوان: "المكتبات في بلاد شنقيط"[3].

كما قام المختار ولد حامدن والباحث السويدي آدم هيموفيسكي سنة 1965-1966 بجهد لإحصاء المخطوطات الموريتانية، حيث أفضى هذا الجهد إلى فهرسة 2054 مخطوط لحوالي 394 مؤلف موريتاني، وقد نشره الخليل النحوي ملحقا في كتابه بلاد شنقيط المنارة والرباط[4].

وفي سنة 1988 صدر في بيروت "فهرس المخطوطات العربية بموريتانيا" من إعداد الأستاذ أحمدوولد عبد القادر والباحث

1- أحمد ولد محمد يحيى، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص125.

2- ربيعة بنت محمد يسلم، المخطوطات العربية والرقمنة، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية 2012-2013، ص38.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- الخليل النحوي، المرجع السابق، ص535 وما يليها.

الألماني ألريش روبيشتوك. وفي نفس السنة أيضا قام الأستاذ الأمريكي شارل استيوارت من جامعة إلينوي بفهرسة مكتبة أهل الشيخ سيديا ببوتلميت، كما أنجزت مكتبة الفرقان الإسلامية بلندن سنة 2003 مع شركاء وطنيين فهرسا لمخطوطات ولاتة والنعمة[1].

وضمن نفس الجهود قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي منذ إنشائه بإحصاء أسماء ملاك المخطوطات وأماكن وجودهم والقيام بزيارات ميدانية لخزائن المخطوطات لمعرفة وضعيتها وظروف حفظها وإعداد برامج متكاملة لحفظها وصيانتها[2].

ولتسهيل مهمة الباحثين والمهتمين وتمكينهم من الاطلاع على محتوى خزانة المخطوطات بالمعهد تم القيام بجهود متواضعة في مجال الفهرسة، فتم إعداد فهرس مخطوطات[3]، نشر الجزء الأول منه سنة 1996، وهويضم 455 مخطوطا. وقد اعتمد على الشكل التالي:

رقم التسجيل – العنوان – الموضوع – عدد الأجزاء – اسم المؤلف ولقبه – تاريخ ولادته – وفاته – الناسخ – تاريخ ومكان النسخ – مصدر الكتاب – عدد الصفحات – عدد الأسطر في الصفحة – البداية – النهاية – حالة المخطوط – تاريخ التأليف – نوع الخط – عدد الأوراق – قياس الأوراق – الملاحظات[4].

كما تم إصدار عدة فهارس للمخطوطات:

- فهرس مخطوطات شنقيط
- فهرس مخطوطات وادان
- فهرس مخطوطات تيشيت
- فهرس مخطوطات ولاتة

الخاتمة:

تزخر الكثير من الخزانات والمكتبات في موريتانيا برصيد معتبر من المخطوطات، أصبح محل اهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين الوطنيين والأجانب نظرا لقيمتها العلمية والفنية، والحفاظ عليها يعني الحفاظ على الهوية الوطنية العربية والإسلامية. ومن أجل تثمين هذا التراث المخطوط كان لا بد من قيام مؤسسات بجمع المخطوطات وحفظها، كالمعهد الموريتاني للبحث العلمي والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

إن الجهود التي تم القيام بها لحد الساعة والتي مكنت من إقامة خزانة تضم أكثر من ستة آلاف مخطوط في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وأكثر من 2000 مخطوط في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية ونسخ وتصوير عدة آلاف أخرى، تبقى جهودا متواضعة في ضوء وجود إحصاءات تشير إلى أن لدى

1- ربيعة بنت محمد يسلم، المرجع السابق، ص38.
2- أحمد ولد محمد يحيى، المرجع السابق، ص126.
3- تم إعداد هذا الفهرس من قبل الباحثين أحمد بن محمد يحيى وسيد أحمد بن محمد سالم من قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، والأمريكي شارل ستيوارت من جامعة إلينوي.
4- مقابلة مع الأستاذ محمد ولد أطفيل، رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2013/07/27.

موريتانيا أكثر من أربعين ألف مخطوط موزعة على خزائن خاصة ومكتبات للمخطوطات بالصحراء، محفوظة في ظروف قاسية، حيث تتعرض للحرارة والغبار، من ما يعرضها للتلف والضياع.

وعلى الرغم من الشأن الكبير الذي تم القيام به من خلال التعرف على أماكن وجود المخطوطات الوطنية، فإنه يمكن ملاحظة نواقص كثيرة، وليس أقلها:

- قلة الوسائل والإمكانيات المادية

- نقص الكادر البشري المتخصص

- غياب خطة لرقمنة المخطوطات وإتاحتها لأكبر عدد من المستفيدين

- انعدام برامج للتحقيق والنشر.

ولا شك أن مزيدا من البحث في هذا المجال سيسلط الضوء على جوانب مهمة من واقع المخطوط الموريتاني، مما يستوجب التنبيه إلى ضرورة القيام بعمل جبار من أجل إنقاذ هذا الموروث الثقافي المهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003.

2- أحمد ولد محمد يحيى، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

3- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

4- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993.

5- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004.

6- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989.

7- تنجه بنت أحمدو، فهرسة المخطوطات في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية: 2012-2013.

8- ربيعة بنت محمد يسلم، المخطوطات العربية والرقمنة، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية 2012-2013.

9- زيارات ميدانية ومقابلات شخصية للعاملين بقسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي والمهتمين بالمخطوط الموريتاني.

البعد القومي في الشعر الحساني

محمد ولد أحمد الميداح، باحث في الآداب الشعبية

من المتفق عليه أن الشعر مجسد لكل العواطف والمشاعر الإنسانية وأن الذاكرة الشعرية مسايرة لكل الأوضاع والتطورات علي مدى مرور الزمن وعبر مراحله المختلفة. ولا يختلف اثنان علي أن الشاعر هولسان حال مجتمعه.

وقديما، تم تعريف الشعر بأنه هوديوان العرب، لما لهذه الأمة من شغف به وما سطرته من أمجادها وأيامها من خلاله.

وإذا ما أردنا أن نثبت بالأدلة تلك العلاقة التي تربط بين العرب عموما وبين الشعر، فما علينا إلا أن نتوقف عند مكانته في بلادنا التي طغى عليها اسم "بلاد المليون شاعر".

وانطلاقا من هذه المسلمات، فإنه تجدر الإشارة إلي أن أي شعر لا يحمل هموم المجتمع لا يطرب له السامع ولا يكتب له البقاء عكسا للشعر الذي يعالج القضايا التي تهم المتلقي، فذلك يتلقفه الرواة بكل اهتمام ويسري علي ألسنتهم كما تسري النار في الهشيم.

وفي هذا السياق وانطلاقا من أهمية الشأن القومي عند الشعب الموريتاني، فإننا نستنتج أن الشعر في هذه الربوع محكوم عليه بمسايرة الذوق العام والعناية بأكثر المواضيع تداولا في الساحة الوطنية.

هذه القاعدة تنطبق علي الشعر الفصيح وعلي الشعر الحساني وبما أن هذا الأخير أكثر ارتباطا بطبقات الشعب علي أساس أن الأول نخبوي بالدرجة الأولي، فقد أكثر الشعراء الحساني من القطع التي تركز علي عروبة البلاد وتشبثها بالمنظومة الخلقية التي تميز العرب عن غيرهم من الشعوب.

لمحة خاطفة عن الشعر الحساني

يري الباحثون علي أن الشعر الحساني ولد من رحم الشعر الفصيح بعد أن تأثر بأوزان اهل الأندلس والصحراء الكبري وثقافة بني حسان وأنه مر بمراحل قبل استقراره علي المنظومة العروضية التي هوعليها اليوم.

ومهما يكن من أمر، فإن العارفين به يرون فيه جزالة في المعاني وسلاسة في الأسلوب ودقة في اختيار الكلمة المناسبة في مكانها المناسب حتى أنهم يشمئزون إذا أطلق عليه اسم "الشعر اللهجي" يقينا منهم أنه وليد ثقافة عالمة.

وبما أن تشبث الموريتانيين بعروبتهم وما تولد لديهم من حساسية قومية أججها الموقع الجغرافي والبعد من المركز، فإن أي تصنيف لا يركز بالدرجة الأولي علي قوميتهم العربية غير مقبول لديهم.

وتتجسد هذه القومية في فصاحة اللسان وفي العادات العربية التليدة...

وكما قلنا أن الشعر ناطق بما يدور في مكنونات الشعوب، فمن الطبيعي أن يكون

للبعد القومي أثره الواضح في انتاجهم الشعري والأدبي عموما.

ويتجلى ذلك في مظاهر شتى نذكر منها للمثال لا الحصر:

- استخدام الألفاظ العربية غير محرفة

- استخدام المعاني العربية والتشبث الصريح بالعروبة وأمجادها.

أ) عن طريق الاستخدام اللفظي

تزخر النصوص الشعرية الحسانية بإشارات يطلقها الشعراء لتأكيد عدم ابتعادهم عن اللغة الأم وذلك عن طريق استعمال الكلمات الفصحى غير ممزوجة باللهجة.

ويتجسد هذا الميول القومي خاصة في الأشعار التي يسمونها "اتهيدين[1]"، كقول الشاعر اعلى ولد مانو[2] مستعملا حرف الجر (في) بلفظه الأصلي ووظيفته التقليدية، في نص يمدح به أحد الأمراء:

مَـانى امْعَـاكْ الا اصْـبَحْتْ مِنْكْـرَصْ
مَـانِي فِـي ذَاكْ، طَـاحْ فـي لـصْ
مِنْفْكَـعْ مِشَّـايْنْ امْعَـاكْ مَخْلُـوكْ
مَـا يعِكْبَـكْ يَكُـونْ مَخْنُـوكْ

ويكثر الشاعر سدوم ولد انجرتو[3] من استخدام حروف الجر كما تستخدم في الفصحي كما يستخدم غالبا عبارات ظاهرها لهجي وحقيقتها أنها من مفردات اللغة العربية التي يرجع إلي القاموس لفك معانيها:

هـو يُـومُ صَـابِحْ غَضْـبَانْ
اللهـم وجـهْ الْبُرْكَـانْ
عِكْـدَ فِـي وجْـهُ يَعْمَلْـهَ
ولا حَـدْ اظَـلْ امْكَابِلْـهَ

وقد أبدع الشعراء الحسانيون مستخدمين العبارات الفصيحة علي نطاق واسع، كما يقول أحدهم في مقطوعة غنائية عنوانها "هاجرت كل النساء":

هـاجرت كـل "دَانـى دَنْ"
لـه إلا الله مـزين
النسـاء، زَيْـنَ لا إ
هـاجرت كـل النسـاء

ب) عن طريق المعاني والتشبث بصفات العرب

ويتجلى البعد القومي واضحا وصريحا في غرضين أساسيين هما: غرض المدح وغرض الفخر.

1 - شعر ملحمي عاش فتراته الذهبية أيام ازدهار الإمارات الحسانية... يظهر فيه الشاعر قدرات ممدوحه القتالية ويصف فرسه ويركز علي كرمه وجزالته.

2 - من أقدم وأشهر الشعراء الخسانيين... عاش في منطقة اترارزه وتوفي في منتصف القرن الثامن عشر.

3 - من أقدم وأشهر الشعراء الحسانيين، عاش في الحوضين وتكانت وخلد أمجاد الإمارات في تلك الربوع وتوفي معمرا في بداية القرن التاسع عشر (راجع ديوان سدوم ولد انجرتو)

ففي مجال المدح، نلاحظ أن الشاعر يتعمد دائما اظهار صفات العروبة في ممدوحه مثل الفروسية والشجاعة والشهامة وغير ذلك من الصفات الحميدة التي خلد التاريخ ذكرها وتمسك العرب بناصيتها.

أما إذا لجأ إلي الفخر بشخصه أو بعشيرته، فإن للعروبة نصيبها الأوفر مما سيركز عليه لصالح قومه.

يقول الشاعر باب ولد هدار[1] في مدح الأمير أحمد ولد امحمد[2]:

أنْـــتَ شِـــيخْ اعْـــرَبْ صَـــمَنْتَ
وانَ مَـــا نِشْـــكِرْ كُـــونْ انْـــتَ
وعَـــربْ اطَـــارْ وعَـــرْبْ الكِلْـــتَ
يَـــلّ مِـــنْ لِعْـــرَبْ حَـــكْ اطْـــرَبْ

ويبين الخوولد مانو[3] صفات العروبة (الكرم والشجاعة) في ممدوحه

مِنْهُـــوالّ مِـــنْ بِعْـــدْ يِـــذَّلّ
واكْثَـــرْ مَعْـــطَ امْـــنْ النَّـــاسْ واحْـــلَ
يَسْـــوابْطَيْتْ وجيْـــتْ بالْعَجْـــلَ
وتَلِحْكُوفَـــاتْ انْـــسَ ذِيـــكْ لَـــوْلَ
ومِنْهُـــوالّ اوَرْدْ الْهَـــا الرِّجْـــلِ
والا طَـــاكْ شـــى اعِلُّوامَّـــلّ

تَصْـــلَحْ لَـــكْ غَـــايَ ولاَ اتْنَكْـــلِ
والاَ اكْبَظْـــــتْ الثَّـــــانْيَ ولّ

ج) البعد القومي النضالي

مع بداية الوعي السياسي، أهتم الشعراء بهويتهم العربية وأعربوا عن ذلك في انتاجهم الأدبي:

يقول أحد الشعراء الغاضبين من تفشي اللغة الفرنسية في الأوساط الشعبية:

هَـــاذَ مِـــنْ وَيْ وذَ مِـــنْ نُـــون
مَـــا يِمْكِـــنْ عَـــنُّ يَتْمَـــرْ هَـــونْ
ولكْلَيَّـــامْ الّ مَـــا يَطْـــرَبْ
نَحْـــنَ هَـــاذُ يَالنَّـــاسْ اعْـــرَبْ

يقول الشاعر محمد ولد ادخيل ولد سيد باب الركيبي في رسالة الي الأمير المجاهد سيد احمد ولد أحمد عيده، لما اشتدت هجمات المستعمر علي منطقة آدرار[4]

كـولْ ال سـيد احمـدْ عـنْ شِ زيـنْ
ذاك اعـــلَ لعـــربْ مـــاهُ شـــينْ
اغلـــيظ وغلظـــومن شـــكينْ
يتـــواسَ يـــدخلْ فـــالوذنينْ
لَحـــــرَ شِ هومقـــــدارُ
وغلـــظ العـــربِ عِـــزة جـــارُ

وأمام التوغل الاستعماري المداهم، حرص الشعراء علي استنهاض الهمم بتذكير المقاتلين بما يسير في دمهم من العروبة وما

1 - هوباب ولد محمد ولد هدار المتوفي في أواخر أربعينات القرن العشرين. من أسرة انتجت شعراء أفذاذ ذاع صيتهم في الوطن كله.

2 - ولد أحمد عيده، من أشهر أمراء آدرار وقد ارتبط اسمه بالعدل خاصة.

3 - شاعر وفنان مشهور عاش في وسط ونهاية القرن التاسع عشر، في منطقة اترارزه... له شعر ملحمي جزيل.

4 - ص 295 من ديوان المرحوم احمد سالم ولد ببوط.

يترتب علي ذلك من الشجاعة وعدم الإذعان للصائل.

يالعربـــان اعلـــيكم تســـكانْ[1]
والـــدَّرجَ والشـــيعَ والشـــانْ
وامـــرَدْ الصـــايلْ مـــن حسَّـــانْ
والِّ مـــنْ ش كـــان افبـــلُّ
مـــا طـــالعكمْ عيـــبُ يـــلُّ
ســـفينت بقعـــتكم بالمـــانْ
ذُ كـــانُ هـــومَ كـــرعتكمْ
اعلـــيكمْ واعـــلَ طلبـــتكمْ
لازمكـــم هـــوحرفتكمْ
تمِّـــتْ فيـــديكمْ عـــدِّتكمْ

وفي نفس الإطار، يقول الشاعر احمد سالم ببوط[2]

نهضـــت موريتـــان غـــزِّ
للعربـــان ادورْ بِـــزِّ
موريتـــانْ الـــذا ويعْـــز
نافـــد لســـتعمار يغْـــزِ
ياســـر للسِّـــكانْ
لخيـــار العربـــان

ويقول الشاعر همام افال[3] متشبثا بعروبة البلاد بعيد حصولها علي الاستقلال:

التَّـــال فِـــينَ مِـــنْ لَخْبَـــارْ
اتَـــمْ المُخْتَـــارْ، المُخْتَـــارْ[4]
اعْلِيـــهْ اتَّفْقِـــتْ كَلْمِـــتْنَ
والعربـــيَّ لُـــوغِتْنَ

ويمكننا أن نستنتج من هذه الأشعار ومن غيرها أن الهاجس الأكبر للشعراء الحسانيين ظل دائما إثبات عروبتهم والتشبث بالقيم والأخلاق التي يتطلبها ذلك البعد القومي النبيل.

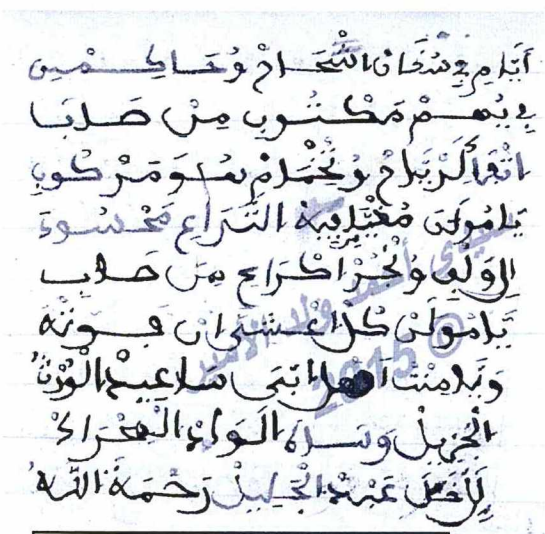

مخطوط قديم لسيدي أحمد ولد الأمير

1 - هذه القطعة من انتاج الشاعر محمد المختار ولد بدي ولد المامون وكان يخاطب الشاعر والوجيه أحمد سالم ولد ببوط - انظر الصفحة 161 من ديوان أحمد سالم ولد ببوط.

2 - شاعر مفلق ووجيه تقليدي كان له حضور بارز في منطقة آدرار، له ديوان شعر زاخر بمقطوعات من جميع الأغراض السياسية والإجتماعية.

3 - شاعر وسياسي ورجل أعمال موريتاني مشهور... توفي في بداية الثمانينات من القرن الماضي.

4- المختار ولد داداه: أول رئيس للجمهورية الإسلامية الموريتانية

Les guerres prenant naissance dans l'esprit des hommes, c'est dans l'esprit des hommes que doivent s'élever les défenses de la paix.

Al Mawkib Al Thaqafi

La Caravane Culturelle

N° 46 – Juillet 2016

Revue éducative, culturelle et scientifique à comité de lecture, éditée par la Commission Nationale pour l'Education, la Culture et les Sciences

Aéroport International de Nouakchott Oumtounsy